فردوس قرية الأشباح

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

٭

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

٭٭٭

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، أربيل، كُردستان العراق

فردوس قرية الأشباح

رواية

زهدي الداوودي

اسم الكتاب: فردوس قرية الأشباح – رواية
كتبها: زهدي الداوودي
من منشورات ئاراس – رقم: ٦٦٩
التنقيح: أوميد البناء
الإخراج الفني الداخلي: زياد طارق
تصميم الغلاف: مريم متقيّان
الطبعة الأولى – ٢٠٠٧
رقم الإيداع في المكتبة العامة المركزية بأربيل: ١٣٠٠/٢٠٠٧

رواية تُقرأ وخلفها مسرب طير

عندما يعيد أحدنا تصوراته عن بداية كتّاب الستينات يجد أن غابة المراحل تلك ممتلئة بالثمار، زهدي الداوودي أحد هؤلاء الذين إبتكروا مبكراً توظيف مثيولوجيا القرى الشمالية في القصة القصيرة ، ثم عمّقها في رواياته لاحقاً. هذا لا يعني ان إكتشاف تلك الشيمة أبعدته عن قضايا المجتمع، بل كان انتماؤه المبكر للحركة الوطنية وتلقّيه عذاباتها، كالكثير من أبناء جيله، رسخت عنده فكرة المزاوجة بين موروث شعب عريق، ومتطلبات قصة حديثة. فشكل البحث عن تأصيل لفن الواقعية الإجتماعية في القصة عنده هدفاً مزدوجاً، أبطال قصصه حقيقيون، وأرضيتهم الإجتماعية خصبة، وأحداثهم مختارة بعموميتها، كل هذا ليس موروثاً ليستحضره بل معايشة . فكان السجن منحة فكرية، وكانت الدراسة في ألمانيا مادة لتعميق البعد الإنساني فنياً. اليوم يواصل زهدي الكتابة بطريقة يُغبط عليها، فقد تشبعت تجربته بالجديد في ميدان الرواية، تعدد الأصوات والبحث عن غنى المحلية وأبعادها، وتحويل الحياة البسيطة من نثرية الحياة إلى شعريتها، فيؤلف ما يشبه الصورة الكلية لبلد، ويجعل من الشخصيات كلاماً أوسع من ذواتها المفردة. كل هذا كي يعمق، فيها حس المثيولوجيا والبعد الوطني. وها هو في رواية "فردوس قرية الأشباح" المتميزة يزاوج بين تجربة شيخ مجرب ومختبر، وتطلعات صبي، لا ليكتب عما مضى من غزو لديارهم،أو ما سيأتي من أمل، بل ليحكي قصة المنطقة وما تعاقب عليها، منطقة تتجاور فيها التواريخ والألسن والنفوس والمبادئ، فتصبح مهمة تتواصل الأبناء بتجربة الآباء، مادة لحكاية لم تنقطع..

الصبي، هذه الذاكرة المنفتحة، والشيخ ممثل التاريخ يؤلفان معا سياق يلم به القاص المدن والقرى، التاريخ والناس، الوقائع بالمثيولوجية، فيصبح الزمن مجرد تتابع لحكاية ما مضى، في حين أن تحصيل عملية القص هو نقلنا نحن القراء إلى المتشابه منها ، وعندما يعيد الصبي رؤيته لأجساد المعلمين والطلبة وهي تعلق في المشانق مقرونة بالعري لامرأة في بحيرة ما، يعيد علينا كثافة أزمنة مرت على العراق، فأسست

مثيولوجيا القمع والاستبداد. والقاص ما بين يقظة شعرية، وحلم يعيد تركيب المشهد المأساوي لقرى الشمال، وهي تتلقى الهجمات عليها.

نستطيع القول وبوضوح، أنها رواية نضالية، ولكن مثل هذه التوصيفات تلغى إذا لم تكن الفنية موازية للهدف،لذا أؤكد على أنها رواية فنية متقدمة. فهي لا تختصر تجربة للمقاومة الكردية والعربية في كردستان فقط، بل وتمنح تاريخ المقاومة الوطنية شرعية أن تؤلف سياقات جديدة لتطعيم الحكاية القصصية بالجديد..

ياسين النصير

بلا وداع

بلا قبر

بلا سورة يس

بلا صلاة الميت

بلا ذنب

شيعتكم آيات الأنفال

أرواحا هائمة

مثل فراشات ملونة

إلى غياهب السماء

تصاحبكم

سمفونية الله الأزلية

بصمت

وخشوع

وألم

تاركة إياكم

مثل المسيح

تواجهون قدركم

لوحدكم

١

لا يدري كيف جرت الأمور، ولكن الذي يعرفه أنها بدأت مع الفجر، حيث كان الظلام يخيم على كل شيء، أصوات عالية، قرقعة أسلحة، بكاء، دفع وركلات، طلقات نارية تشق السكون، أضواء كاشفة، خيل إليه أنها نجوم تسقط من السماء، صياح بلغة لم يفهمها وهدير محركات أنواع المكائن.

كان لا يزال يفرك عينيه بعد أن استيقظ من نومه مذعورا، لا يدري ما إذا كان يحلم أم أنه الواقع الذي لا يتمكن من استيعابه. وحين سحبته يد قوية من ساعده ليلقي به إلى خارج دائرة الضوء، أدرك أنه لا يحلم. لا يدري ما إذا كان صاحب اليد هو والده أم شقيقه الأكبر، بيد أن الذي تأكد منه هو أن صاحب اليد أراد أن يخلصه من هذا الجحيم، أن يهرب، أن يلتجئ إلى مكان ما، أن يفكر في نفسه فقط ولا يلتفت إلى الآخرين. هل ينبغي عليه أن يطلق ساقيه للريح؟ ولكن إلى أين؟ إنه في الظلام يرى ما يحدث في دائرة الضوء. جنود مدججون بأسلحة مختلفة يمسكون أخواته، إخوانه، والدته وأباه ويرمونهم بقوة في شاحنة واقفة أمام بوابة بيتهم، ويجري ذلك بالضرب بالأيدي والركلات وأخامص البنادق. وثمة دبابة تدب في الأرض مثل حيوان أسطوري ويخترق الجدار المبني من لبن الطين محولة غرفة سكن العائلة إلى أرض منبسطة. إنهم يريدون أن يأخذوا أهله إلى مكان ما، ولكن إلى أين؟ ولماذا؟ لا يدري. عندما أحس ببقعة الضوء القوية الصادرة من الدبابة تكاد تسقط عليه، انحنى في مكانه وأخفى نفسه وراء حظيرة الدجاج.

فكر، أن المختار سبق أن أبلغ أهالي القرية بإخلائها، ولكن أحدا لم يأخذ كلامه بجد. هل الذنب، ذنب المختار؟ أم ذنب أهالي القرية الذين لم يأخذوا كلامه بجد؟ وراح الضجيج يرتفع أكثر ويختلط بعواء الكلاب التي سرعان ما تسكت بعد إطلاق الرصاص عليها. تصور في البدء أن العملية تجري ضد أهله فحسب، ولكنه، بعد أن سمع الضجيج والعويل وهدير المحركات وهي قادمة من كل مكان، تأكد بأن المصيبة قد وقعت على القرية كلها وليس على بيتهم فقط. ظل رابضا وراء حظيرة الدجاج، متجمدا،

مشلولا لا يعرف ماذا يفعل. كانت العملية تجري بسرعة فائقة أسرع من تفكيره. وهو ينتظر وقوع شيء ما، شيء يعيده إلى حالته الطبيعية التي فقدها. إنه يرتجف، ولكن ليس من البرد الذي يعرفه، بل من شيء غريب يتسلل إلى جسمه من كل الجهات؛ من أصابع يديه الباردة مثل الثلج، من أخمص قدميه المتسمرتين، من رأسه الفارغ كالطبل، من قلبه الذي يكاد يقفز من خلال فمه اليابس ومن أماكن مجهولة من جسده الهزيل. فكّر، هل بإمكانه إنقاذ أهله؟ رفع رأسه بصعوبة إلى أعلى دون أن يتمكن حتى من الابتهال إلى الله. والنجوم تتلألأ في مخادعها بأمان.

لا يدري كم ظل في مكانه، وما إذا كان قد أخذ غفوة نوم أم فقد وعيه، ولكنه أحس بالصمت يطبق على كل شيء والضوء يغمر الكون، رغم أن الشمس لم تشرق بعد. مد رأسه من وراء حظيرة الدجاج، يستطلع المكان. أجال عينيه حواليه، فلم يجد أحدا. كانوا قد خربوا البيوت وأضرموا النار في بعضها وما زال الدخان يتصاعد في كل مكان مشكّلة غيمه زرقاء فاتحة في فضاء القرية. وراح يبحث في أنحاء البيت لعله يجد أحدا من أهله سواء حيا أم ميتا، ولكن عبثا. كانوا قد أخذوا حتى الأغنام والأبقار والبغال وكافة محتويات البيت. بعد أن مرّ بكل جزء من البيت، توجه إلى البوابة الملاصقة بالكراج. كانت ثلاث عنزات شاردة من القطيع الذي أخذوه، قد التجأت إليه. وكان التراكتور باقيا على حاله، والسبب يعرفه وهو عدم وجود قطرة من الوقود في الخزان. وحين عرج إلى خارج البوابة، وقعت عيناه على كلبهم الأسود الذي نفق، متمددا في بركة من الدماء بعينين مفتوحتين جامدتين تحدقان في السماء وقوائم مرفوعة إلى أعلى، إذ ذاك لم يتمكن من ضبط نفسه، فأجهش في بكاء هستيري وصراخ غريب وهو يضرب رأسه بيديه بقوة ويصيح بأعلى صوته:

" باوه روو، دايه روو.."

لم يكن ثمة جدار منتصب، كي يعيد إليه الصدى. كان صوته يختنق ويتلاشى في المدى البعيد، دون أن يلتقطه أحد. وأحس برجليه لا تقويان على حمله، رغم هزال جسده، فسقط على الأرض مغشيا عليه.

حين فتح عينيه كانت شمس آذار قد أشرقت وهي تبعث الدفء في الجو. أحس بظل يسقط عليه من شبح منتصب بالقرب منه، يحجب عنه أشعتها الدافئة. كان قد تاه في

غياهب الزمن وأختلط عليه تقويمه، دون أن يدري ما إذا كان الوقت صباحا أم مساء. كان الرجل الواقف قربه شيخ طاعن في السن، مقوس الظهر بلحية بيضاء خفيفة، يكاد لا يتمكن من الوقوف دون الاتكاء على عصاه. أراد أحد العرفاء أن يرديه قتيلا، بيد أن ضابطا شابا منعه قائلا، دعه أن زوجته العجوز تحتاجه. أما أولاده وأحفاده، فأخذوهم جميعا. وها هو الشيخ الطاعن في السن يتجول بين الأنقاض مع زوجته العجوز، يبحث عن الأحياء والموتى في القرية منذ الصباح الباكر. كانت زوجته تجرجر قدميها وراءه على بعد خطوات منه وهي تبكي وتولول وتضرب رأسها وصدرها بيديها وتكرر:

"أخذوهم كلهم، أخذوهم كلهم.. إنهم لن يرجعوا، سيقتلونهم كلهم...الله ينتقم منهم"

وبين فينة وأخرى يلتفت الشيخ إليها ويقول معاتبا بهدوء:

" أسكتي يا امرأة، اهدئي، الأمر كله بيد الله"

سألته زوجته ما إذا كان الصبي حيا أم ميتا. أجاب وهو يحثه على القيام في مكانه بأنه حي يرزق والحمد لله.

كان الصبي، هزيلا، لا يتجاوز الرابعة عشر من عمره، حليق الرأس بوجه مستطيل، تمدد على الأرض، يحدق في الفراغ بعينين جامدتين ويبدو كما لو أنه فارق الحياة، بيد أن الشيخ انتبه أنه يتنفس بشكل ملحوظ. كان الشيخ يعرف أهله كمعرفته لمعظم أهل القرية. أدرك أن الصبي مصاب بالصدمة ولا شك أنه تخلص من قبضتهم بأعجوبة، كأعجوبته هو، إذ أنه حتى الآن، رغم تجواله في أنحاء القرية لم يجد إنسانا، سواء حيا أم ميتا. أخرج الشيخ من عبه خرقه قطعها إلى أشرطة رفيعة، شدها ببعضها البعض بحيث بلغ طولها حوالي المتر ثم جلس القرفصاء أمام الصبي. قالت زوجته بعد أن اقتربت منه:

"افعل شيئا من أجل الصبي يا رجل"

أجاب الشيخ دون أن يلتفت إليها:

"ألا ترينني مشغول به، هيا حاولي أن تجلبي طاسة ماء، وكفي عن الولولة"

"سأبحث عن الماء يا رجل، سأبحث عن الماء"

قال الشيخ للصبي وهو يهزه:

" حاول أن تنظر في عيني يا بني وكن رجلا"

أجال الصبي عينيه في محجريهما بصعوبة مثل كرتين زجاجيتين مبللتين ثم ركز نظراته في وجه الشيخ كما لو أنه يستعطف أمرا. قال الشيخ وهو يمسك بيد الصبي اليمنى:

" حسن يا بني، والآن خذ هذا الشريط وحاول باسمه تعالى أن تلفه على يدك اليسرى"

تسلم الصبي الخيط من يد الشيخ وراح يلفه على يده اليسرى ببطء وصعوبة.

شجعه الشيخ لإستجابته وطلب منه أن يلف الشريط كله هذه المرة على يده اليمنى، قائلا أن الله سيحفظه من كل سوء.

عندما انتهى الصبي من لف الشريط على يده، طلب الماء بصوت خافت يكاد لا يسمع. رجاه الشيخ، وهو يقوم من مكانه، أن يحل الشريط ويلفه على يده مرة أخرى، وطمأنه أنه سيجلب له الماء فورا.

أراد الصبي أن يشرح له الموقع الذي يتواجد فيه حب الماء، ولكن لسانه لم يسعفه. كانت العجوز لا تزال تبحث عن الماء، رغم وقوفها أمام الحب. نبهها الشيخ بأن هذا الشيء الذي ينتصب أمامها هو الوعاء الذي يحفظون فيه الماء.

علقت العجوز باستغراب:

" أهذا هو وعاء الماء؟ يا لي من عديمة العقل، كنت أبحث عن القربة فحسب"

قال الشيخ وهو يتوجه إلى الصبي حاملا إليه طاسة الماء:

" زمن حفظ الماء في القرب قد ولى يا امرأة"

كان الصبي قد انتهى من لف الشريط، وحين وقعت عيناه على الطاسة، ظن أنه يحلم، ودفعته قوة خفية للجلوس. وعندما ارتشف الماء البارد، عرف أنه لا يحلم وراح يجيل نظراته بين الشيخ والعجوز بوجه جامد. قال الشيخ وهو يربت رأسه بيده المعروقة:

" كن رجلا يا بني، إن ما كتبه القدر، يجب أن نتحمله. أغسل وجهك بالماء المتبقي في الطاسة"

قال الصبي ساهما بلهجة عتاب وهو يغسل وجهه بصعوبة:

" إنهم أخذوهم وضربوهم"

" إنهم أخذوا الكل يا بني، فقط نحن الثلاثة نجونا منهم"

بدأ الصبي يستعيد وضعه الطبيعي، قال وهو لا يزال يجلس في مكانه:

" إنهم قتلوا كلبنا الأسود، هل قتلوا كلبا آخر؟"

" لم يبقوا كلبا واحدا في القرية يا بني، إن هؤلاء ليسوا من صنف البشر، إننا يجب أن نعمل شيئا، أن نفكر في مصيرنا"

عندما تمكن الصبي من الوقوف في مكانه، عانقته العجوز قائلة:

" الحمد لله يا بني، الله يعطيك العافية والعمر الطويل"

٢

كان معلم القرية الشاب قد حذّر الأهالي وأبلغهم بإخلائها والتوجه إلى الحدود، لأن الحكومة قررت هدم القرى وتهجير الناس إلى جهات مجهولة أو ربما إبادتهم. بعض العوائل اقتنعت بكلامه وتركت القرية حاملة معها ما يمكن حمله. وأما البعض الآخر، فلم تسمع كلامه، بل اعتبروه مجرد كلام فارغ وإشاعة لتشويه سمعة الدولة. وكان الشيخ يعرف ذلك، نبّه الناس إلى كلام المعلم الذي هرب قبل يومين، ولكن دون جدوى.

أراد الشيخ في قرارة نفسه أن يناقش مصيرهم، هم الثلاثة، مع الصبي. ماذا يفعلون؟ هو وزوجته يقفان على حافة القبر، ولكن الأعمار بيد الله ولا يمكن له أن يقف مكتوف اليدين بانتظار الموت، ولا سيما أنه يحس بأن هذا الحادث المروع قد منحه حيوية وزخما غريبين للقيام بعمل ما. ولكن أي عمل؟ وجد نفسه يتحمل مسؤولية هذا الصبي الذي أنقذه القدر، ولكن يا ترى، هل سيأخذ هذا الصبي بنصائحه وبما يريده؟ إن صبيان هذا الزمان يختلفون كل الاختلاف عن صبيان زمانه هو. إنهم يدّعون بمعرفة كل شيء أحسن من آبائهم، ويناقشونهم في كل صغيرة وكبيرة. رأى في بادئ الأمر أن يدعو الصبي إلى بيته الذي بقي نصفه صالحا للسكن. كانت العجوز قد تعبت وسكتت من الولولة والبكاء:

" كنت أعرف اسمك يا بني، ولكنني نسيته، الشيخوخة تعني مائة مرض"

أجاب الصبي وهو يحدق بشرود في الخراب المحيط به:

" اسمي كامران، ولكن الجميع ينادونني بـ(كامه)"

قال الشيخ كما لو أنه يتكلم مع رجل متكامل وهو يضع يده على كتفه:

" أنظر يا كامه يا بني، إننا سنذهب الآن إلى بيتنا ونتناول الفطور ونتحدث بهدوء عن مصيرنا وما ينبغي علينا عمله"

قال الصبي بلهجة يائسة:

" ماذا يمكننا عمله؟ إنهم أخذوهم، ربما سيقتلونهم جميعا"

حاول الشيخ أن يسبغ كلامه بالثقة ويزيل التشاؤم من أعماق الصبي:

" كلا يا بني، لو كان هذا هدفهم لقتلوهم في الحال مثلما خرّبوا البيوت، دون أن يجشموا أنفسهم عناء نقلهم بالسيارات"

تساءل الصبي بفضول:

" إلى أين أخذوهم إذن ولماذا؟"

قال الشيخ كما لو أنه واثق من كلامه:

" سيأخذونهم إلى مجمعات سكنية قريبة من المناطق الخاضعة كليا لسلطة الدولة، ويعيدون إليهم كل ما أخذوه معهم"

قال الصبي باحتجاج، مشيحا وجهه بغضب:

" أنت تتكلم مثل رجال الحكومة يا جد. أو تعتبرني صبيا عديم العقل؟ لماذا لم يهدموا بيتكم ولم يأخذوك معهم؟"

تدخلت العجوز كما لو أنها تريد أن تصحح خطأ:

" الضابط الشاب يا بني، الضابط الشاب، حدّثه عن ذلك يا رجل"

قال الشيخ بهدوء، ملتفتا إلى زوجته:

" أنت لا تتدخلي يا امرأة، هيا اذهبي واجلبي طاسة ماء أخرى، ولا تنسي أن الماء في الحب وليس في قربة"

ثم التفت إلى الصبي مبتسما:

" عديمة العقل، إنها ما زالت تعتقد أن الناس لازالوا يستعملون القرب. يا بني، يا كامه، إنني أعرف والدك وهو يعرفني جيدا. وكل واحد في القرية يعرفني. إن ضابطا شابا هو الذي أبقى على حياتي، بعد أن أراد عريف قبيح قتلي، كي لا تبقى العجوز لوحدها"

أدرك الصبي أنه تجاوز حده تجاه الشيخ، فأعتذر منه متسائلا عن سبب ضربهم وقتل الكلب.

" ضربوهم لأنهم لم ينفذوا قرار الحكومة بتخلية البيوت"

" ولماذا أراد العريف القبيح قتلك؟"

" لأنني كنت أشتمهم وأحاول منعهم من أخذ أولادي وأحفادي، أنا لا أستطيع مسك لساني، هذه طبيعتي"

لم يتمكن الشيخ من قمع موجة البكاء الهستيرية التي اقتحمته، فلما سمعته العجوز القادمة بطاسة الماء، ولولت هي الأخرى. وما كان من الصبي إلا وألقى بنفسه على الشيخ وراح يعانقه بقوة:

" أنت رجل شجاع يا جد"

خجل الشيخ لوضعه وهو يمسح دموعه وأعتبره طعنة في رجولته وضعفا في شخصيته تجاه هذا الطفل الذي ينبغي أن يكون أمامه قدوة حسنة. وحين استعاد هدوءه، تناول الطاسة من يد العجوز وأفرغها في جوفه. أطبق عليهم الصمت لهنيهة وبدوا كما لو أنهم يريدون قضاء فترة قصيرة استراحة قصيرة بعد إنجاز عمل مرهق، وذلك استعدادا للجولة القادمة. خرق الصبي الصمت، قائلا بشرود:

" أخذوهم ولن يعودوا أبدا، سيقتلونهم كلهم. والدي هو الذي دفعني كي أخفي نفسي وراء حظيرة الدجاج، إنه أراد أن يخلصني من الموت، لأنه كان يعرف بأنهم يأخذونهم للموت"

قال الشيخ وهو يحاول إخراج الصبي من صدمته التي لا زالت تهيمن عليه:

" إرادة الله هي التي تقرر كل شيء يا بني، يا كامه. والأعمار بيد الله. إن وقوفنا هنا لا يغيّر من الأمر شيئا، هيا لنذهب إلى بيتنا ونتناول الفطور الذي ستعده لنا العجوز. وإذا شبعنا وأخذنا قسطا من الراحة، إذ ذاك نتمكن من التفكير بهدوء وإيجاد حل لوضعنا"

وتحركوا بخطوات وئيدة باتجاه بيت الشيخ. استفسر هذا من العجوز ما إذا كانت تملك شيئا جاهزا للأكل، فأجابت أنها جهزت العجين في منتصف الليل قبل أن يأتي الأوباش وأنهم لحسن الحظ لم يمسوا ركنها الذي تحفظ فيه الطعام، هناك زبده طازجة وبيض. قال الصبي دون أن ينتبه لكلامهما:

" ولكن ألا نواري الكلب بالتراب؟"

أجاب الشيخ وهو يضع يده على كتفه:

" طبعا سنفعل ذلك يا بني، يا كامه، ليس مع كلبك فحسب، بل كل الكلاب المنفقة، ولكننا قبل كل شيء يجب أن نتناول الفطور كي نستعيد طاقتنا. أمامنا أشغال كثيرة"

وراحوا يجرجرون أقدامهم بين الأنقاض والبيوت المهدمة.

كانت العجوز، رغم كبر سنها الذي يتجاوز الثمانين حسب قولها، أم بيت نشطة، تمكنت خلال فترة قصيرة أن تعد الفطور وتجهز خبز الصاج الحار، الذي لولا رائحته النفاذة التي تثير الشهية، لما تمكن الصبي من تناول أي شئ. وأزال الدفء المنبعث من النار المتوقدة تحت صفيح الصاج توتر الصبي. وكانت العجوز تدمدم مع نفسها بكلمات غير مفهومة. وحين ارتشفا الشاي، عاد الصفاء إلى نفسيهما، بيد أن قلقا ما وشيئا من الإحساس بتأنيب الضمير كانا لا يزالان يهيمنان على قلب الصبي، مبعثهما هو عدم ذهابه مع أهله. قال وهو يعيد قدح الشاي إلى موضعه:

" كان ينبغي أن أذهب معهم، قمت بعمل سيء حين أخفيت نفسي وراء حظيرة الدجاج كأي أرنب جبان"

" كلا يا بني، يا كامه. إنك التزمت بكلام أهلك. لعلك كي تبقى في البيت وتحرسه إلى أن يحين موعد عودتهم"

وثب الصبي في مكانه بعد أن كان متكئا على وسادة:

" وهل تعتقد أنهم سيأتون؟"

انتهى الشيخ من لف لفافته، أجاب وهو يشعلها:" لم لا؟ كل شيء ممكن"

كانت العجوز لا تزال تجلس قرب الموقد، رغم انتهائها من إعداد الخبز، وتنتبه إلى كلامهما، قالت داعمة كلام زوجها:

" كلام الشايب صحيح، أخذوا المرحوم والدي في زمن السفربر مثلما أخذوا أولادنا فجر هذا اليوم، وكنا جميعا نعتقد أنه لن يرجع، ولكنه رجع سالما، وكنت أنا في السابعة من عمري"

قال الشيخ بارتياح: " هل رأيت يا بني، يا كامه؟ إن الله قادر على كل شيء"

قال الصبي باحتجاج:

" إذا كان الله قادرا على كل شئ، فلماذا يقبل مثل هذا الظلم؟"

" استغفر الله يا بني، يا كامه. إننا لا نستطيع التدخل في شؤونه تعالى"

قال الصبي وهو يحلم بقوة خارقة تمنى لو وضعت تحت تصرفه:

" ليتني حصلت على الطاقية السحرية. كنت سأضعها على رأسي وأتسلل إلى بيوت هؤلاء والتقطهم واحدا بعد آخر. كنت سأعثر عليهم حتى في آخر الدنيا"

" اترك الأمر لله يا بني، يا كامه. إنه لا شك سينتقم منهم"

تذكر الشيخ أنه أراد أن يقول شيئا للصبي قبل أن ينساه وذلك منذ لقائهما هذا اليوم، قال بعد أن عدَّل من وضعه:

" على فكرة أريد أن أوصيك بشيء مهم يجب أن لا تنساه يا بني، يا كامه. شيء تحتفظ به لليوم الموعود، إذ أنني لا شك سأموت قبل أن أرى أولادي، وأما أنت فأمامك العمر الطويل وأنا لا أريد أن آخذ هذا السر معي إلى القبر. تذكر أن الرجل الذي قاد عساكر الحكومة إلى قريتنا هو خضر أغا، لقد رأيته بأم عيني، رغم أنه أخفى وجهه بلفافة"

كان الصبي قد سبق له أن سمع بهذا الاسم المرعب من أبيه وإخوانه. استرعت انتباهه مسألة اللفافة:

" أنا لن أنسى الاسم، ولكن لماذا اللفافة، هل يعاني من عاهة في وجهه؟"

" كلا يا بني، يا كامه. إنه كرئيس عشيرتنا، كان يخشى أن ينكشف أمره، لأنه يدّعي دائما بأنه لن يخون بني جلدته"

قال الصبي بلهجة واثقة لا تقبل التأويل:

" إذا كان هذا الرجل هو نفس الرجل الذي يعرفه والدي، فتأكد يا جد أننا لن نرى أهلنا إلى الأبد. وأن الأموال التي استولوا عليها ستنتقل إلى هذا الذي كان يسميه والدي بكبير اللصوص"

" إنه هو نفسه يا بني، يا كامه. هناك خضر أغا واحد فقط لا غير. وإذا كان ثمة من يستحق العقاب فهو هذا الوحش الذي تسبب في قتل المئات من الأبرياء. إنه استولى حتى على أراضي إخوانه وأبناء عمومته"

قال الصبي بحقد: " إنه يستحق القتل"

فكر الشيخ أن الصبي قد أشغله حتى الآن عن التطرق إلى السبب الذي اتفقا على بحثه بعد تناول الفطور. وأراد أن يفاتح الصبي أو بالأحرى أن يبحث معه مسألة مصيرهم المشترك، فهو لو كان وحيدا بدون زوجته، لفكر بشكل آخر، ولكن حريته الآن مقيّدة، فهو يجب أن يحسب حساب زوجته العجوز أيضا. وإمكانات العجوز في الحركة محدودة جدا، وهو في كل الأحوال بحاجة إليها، لأنها هي التي تعد الطعام له وتغسل ملابسه. وهي نفسها بحاجة إليه، وهذه الحقيقة أدركها حتى الضابط الشاب الذي منع العريف من قتله. لو لم يكن مرتبطا بهذه العجوز التي تشكل له عبئا كبيرا ولو كان لوحده، لتمكن أن يذهب إلى إحدى المدن التي يتواجد فيها أحد الخيّرين من أبناء عشيرته، ولكن أن يجرجرها معه فهذا تجاوز للحد. وفكر أنه لا يستطيع التخلي عن هذا الصبي الذي لا يتجاوز الرابعة عشر من عمره، فهو إن شاء أم أبى مسؤول عنه أمام الله وأمام ضميره وواجبه يكمن في أن لا يترك الصبي لوحده. وجد الشيخ في قرارة نفسه أن الحل الوحيد هو بقاؤهم في القرية. القمح متوفر، إذ أنهم يحفظونه عادة تحت الأرض. إنهم يجب أن يكونوا لأنفسهم طرازا جديدا للمعيشة. وعليه أن يقنع الصبي بوجهة نظره هذه.

التفت إلى الصبي الغارق في شروده، ناسيا قدح الشاي الثاني الموضوع أمامه على الأرض:

" في أي شيء تفكر يا بني، يا كامه، اشرب شايك قبل أن يبرد"

انتبه الصبي ومد يده بسرعة إلى القدح:

" أفكر في هذا الشخص المدعو خضر أغا، كيف يعيش وأين يعيش"

" لا تشغل بالك بالقذارة يا بني، إن مثل هذه الحثالة لا تستحق أن يفكر فيها الإنسان حتى للحظة واحدة"

قال الصبي بلهجة صارمة:

" إنه يجب أن ينال عقابه يا جد"

فكر الشيخ لو أنه كان شابا لعرف كيف يعالج الأمر مع هذا المجرم، ولكنه رأى أن

يبعد الصبي عن مثل هذه الأفكار الانتقامية.

" يا خسارة للطلقة التي تقتل مثل هذا القرد، إنه سينال عقابه بأيدي أقرانه كأي لص"

انتبه الشيخ إلى الموضوع الذي فكر فيه من قبل وقال قبل أن يسبقه الصبي إلى الكلام:

" ينبغي علينا أن نفكر في أمر أهم يا بني، يا كامه وهو كيفية ترتيب حياتنا المشتركة من الآن فصاعدا، إذ كما ترى، تحولت قريتنا إلى خرائب. أرى من المفضل أن نعيش ثلاثتنا تحت هذا السقف الذي لم يهدموه والحمد لله"

قال الصبي كما لو أنه كان يفكر في نفس الموضوع:

" أشكرك لاقتراحك يا جد، ولكنني إذا بقيت في القرية فسأسكن في بيتنا، إنني يجب أن احرسه وأرتبه"

قال الشيخ بدهشة، دون أن يتوقع مثل هذا الجواب:

" تسكن في بيتكم وتحرسه وترتبه، كيف تفعل كل ذلك؟"

أجاب الصبي بلهجة واثقة:

" سأخرج التراكتور من الكراج وأحوله إلى غرفة للسكن بعد أن أبني جدارا مع باب في واجهته. إنني إذا تركت البيت، سيتعرض التراكتور والقمح والعنزات الثلاث التي نجت، إلى السرقة. ربما سيرجع أهلي ذات يوم من يدري"

" وكيف تدافع عن نفسك إذا داهمك اللصوص؟"

" ومن أين يأتي اللصوص يا جد؟ هل يخرجون من باطن الأرض؟ ومع ذلك سأدافع عن نفسي بالبندقية، عندنا بندقية إنكليزية مخفية في مكان أمين"

" هل تستطيع استعمالها؟"

" ما هذا الكلام يا جد، إنني أستطيع أن أستعمل حتى الكلاشنيكوف"

" بارك الله فيك يا بني، يا كامه، أنت رجل حقا، إنني أفتخر بك"

قال الصبي بلهجة فيها شك ويأس:

" ولكنني أعتقد يا جد انهم لا يتركوننا وشأننا، إنهم سيرجعون. كان معهم لصوص صغار من بني جلدتنا، يعرفون خبايا القرى. إنهم سيرجعون بقيادة خضر آغا، على الأقل للتنقيب عن القمح المدفون تحت الأرض"

هزّ الشيخ رأسه وهو يحدق في الأرض متأملا:

" كلامك صحيح يا بني، يا كامه، ولكن ما العمل؟"

أضاف الصبي مستدركا:

" ولا تنس إنهم إذا مسكونا، سيعذبوننا للإدلاء بأماكن القمح المدفون"

أحس الشيخ بأن كلام الصبي أكبر من مستوى عمره، فكرر سؤاله:

" ماذا يمكننا فعله في رأيك؟"

" هذا هو ما أفكر فيه طيلة الوقت يا جد. سمعت قبل فترة غير قصيرة انهم لا يريدون أن يبقى أحد في هذه المنطقة. إنهم يريدون إخلاءها من السكان، كما يدعون. سمعت ذلك من معلمنا الذي هرب قبل ثلاثة أيام، وقال أنهم يريدون تحويل المنطقة إلى ساحة حرب، أي أننا إذا بقينا هنا سنبقى تحت أقدامهم"

" صحيح يا بني، سمعت هذا الكلام كله من المعلم أيضا عندما كنا جالسين أمام الجامع للتمتع بدفء الشمس، ولكن ما العمل؟ وهذا السؤال نفسه، كان يطرحه الجالسون هناك، على المعلم.."

وقبل أن يتمم الشيخ كلامه، قاطعه الصبي متسائلا:

" وماذا قال المعلم؟"

" قال أن الحل الوحيد هو الهروب بإتجاه الحدود، حيث منظمات الأمم المتحدة التي لا يستطيع العساكر الاقتراب منها"

حك الصبي رأسه بتوتر وهو يصور في ذهنه حشود الناس المنتشرة على امتداد البصر وهي تخرق الآفاق المجهولة، وقال:

" إننا يجب أن نفكر بجد يا جد، فيما إذا نبقى هنا أم نرحل كسائر الناس الذين رحلوا، سواء بالقوة أو برغبة ذاتية"

علق الشيخ باحتجاج كما لو أنه يتحدث مع نفسه:

" حتى الغجر حين يرحلون، يعرفون إلى أين، أين تريدنا أن نرحل يا بني، يا كامه؟"

أطبق عليهم صمت قصير، خرقته العجوز قائلة:

" بيني وبين الموت خطوة واحدة فقط، لذلك لن أغادر هذا المكان. ليفعلوا ما يشاءون. إنني يجب أن أموت في بيتي"

" المشكلة ليست مشكلتك أنت أو مشكلتي أنا يا امرأة، إننا نفكر في مصير الناس وممتلكاتهم وزرعهم"

رجا الصبي الشيخ كي يسمح له بالذهاب إلى بيتهم بعد أن شكره على الفطور. كانت المسافة قصيرة بين البيتين، لا تتجاوز عشر دقائق. أصر الشيخ أن يرافقه إلى المنزل كي يساعده في ترتيبه. وفي الطريق تذكر أن هناك في منتصف القرية حفرة متروكة كانت تستعمل فيما مضى لخزن القمح، واتفقا أن يجمعا رمم الكلاب ويلقيانها في الحفرة. وبعد أن تم لهما ما أرادا، غطياها ببقايا البناء المتهدم. قال الصبي مداعبا، ليأتي خضر أغا مع أوباشه وينقب هنا عن القمح. وتمنى الشيخ أن يعاقبه الله ليس بقتله، بل بتسليط مرض عضال عليه.

كان الصبي عادة يقود التراكتور بنفسه. ولما كان والده قد أخفى برميلا من سائل الديزل تحت أكوام التبن الذي يستعملونه كعلف للحيوانات والبعرور الذي يشعلونه كوقود، أراد أن يعبئ الخزان، بغية تشغيل المحرك، وذلك لإخراج التراكتور من الكراج ثم القيام بجولة في المنطقة كي يتأكد ما إذا كانت القرى المجاورة قد عانت نفس المصير. وحين أعلم الشيخ بفكرته، لم يؤيده، بل رفضه بصورة قاطعة مقترحا عليه أن يقتصد الديزل ليوم آخر قد تكون الحاجة فيه إلى التراكتور ماسة جدا، ثم حذره من أنه والتراكتور سيصبحان هدفا سهلا لقصف الطائرات التي تستطلع المنطقة ليلا ونهارا.

قاد الصبي العنزات المعتصمة في الكراج إلى مخزن التبن الذي نجا من الهدم ثم رجع ليحل الفرملة، وكان أن دفعا التراكتور إلى خارج الكراج بدون صعوبة. قال الشيخ أنه كان لا يتصور بأن التراكتور خفيف إلى هذه الدرجة. كانت غرفة السكن قد هدمت عن آخرها. تمكنا من إخراج بعض الصحون والأفرشة والوسائد ولباد صوف

من تحت الأنقاض ونقلها، بعد تنظيفها بإزالة التراب عنها، إلى داخل الكراج الذي نظفه الصبي. وراحا يجمعان لبن الطين من بين الأنقاض، مكومين إياه أمام مدخل الكراج. أقترح الشيخ أن يبنيا الجدار للمدخل في اليوم الثاني على أن يقضي الصبي ليلته عندهم، بيد أن هذا أصر على المبيت في الكراج رغم برد الليل الذي قال أنه سيعالجه بإشعال النار حيث لديه الكفاية من الحطب. ولما كان الشيخ يعرف أن الصبي إذا أصر على شيء، فلا يمكن إقناعه للعدول عن رأيه، ووجد أن النهار ما زال في منتصفه وهناك ما يكفي من الوقت لبناء جدار، لذا اتفقا أن يسحب الصبي الماء من البئر ويقوم هو بإعداد الطين وخلطه مع التبن. وحصل على التراب الأحمر الجيد من مكان منخفض في الحوش، سبق أن أستعمل لهذا الغرض. وتمكنا من الانتهاء من بناء الجدار بكوة وباب قبل حلول المساء. وتمكنا أيضا من إخراج الباب الخشبي لغرفة السكن من تحت الأنقاض وتركيبه على الباب الجديد. ولم ينس الشيخ عمل حفرة في منتصف الغرفة، يقوم مقام الموقد للتدفئة وطبخ الطعام وإعداد الشاي.

وقف الشيخ أمام البناء الجديد متباهيا، يصف حسنات الغرفة الصغيرة التي تتدفأ بسرعة ويعثر فيها الإنسان على حاجياته بسهولة. وكان لابد للصبي أن يلبي دعوة الشيخ لتناول طعام العشاء عنده، إذ انه لم يعثر بعد في بقايا البيت على شيء يسد به رمقه. وكان الشيخ وزوجته يتمنيان أن يعيش معهما ويتناول مثلهما ما قسمهُ الله، حيث انهما يعتبرانه مثل حفيدهما. وتوصلوا إلى حل وسط، يطبقونه لفترة الأيام أو الأسابيع القليلة القادمة، وهو أن ينام الصبي في منزله على أن يشاركهم الوجبات الثلاث. وأقتنع الشيخ بالحل، ذلك أن بقاء الصبي في البيت ضروري لحراسته. وما أن انتهيا من أشغال بناء الجدار، إلا وذهب الصبي إلى الركن الذي تحفظ فيه البندقية في مخزن البعرور والتبن بغية إخراجها إلى النور ، قائلا أنه سيدافع عن البيت حتى آخر طلقة. أما الشيخ فحذره من اللجوء إلى إطلاق النار، مؤكدا بأن لكل سلاح حدين، أحدهما لك والآخر عليك. وقال أن السلاح يجب أن يبقى أداة للتخويف وطرد اللص وليس قتله، لأن صاحب اللص يعرف القاتل جيدا، فيلجأ إلى الثأر، في حين أن صاحب البيت يجهل اللص، فيهدر الدم بلا أي سبب.

كان الصبي لا يزال يعاني من الصدمة العنيفة، رغم تجاوبه مع الشيخ بشكل طبيعي،

الأمر الذي أدى إلى أن يقتنع هذا بأنه في حالة نفسية جيدة. ولكن ما أن كان يتوقف عن العمل ولو للحظات، إلا ويقع في دوامة شروده الذي ينقله إلى عالم آخر. وتتراءى له وقائع فجر هذا اليوم بكل رعبها وتفاصيلها. تراءى له والده وهو بين جنديين، أحدهما يركله برجله والآخر يضربه بأخمص البندقية على ظهره. في هذه اللحظة سمع هدير محركات طائرة بعيدة تنفث وراءها شريطا فضيا طويلا من الدخان الذي يلمع في ضوء الشمس. نبه الشيخ إلى مصدر الصوت وسأله ما إذا كان يسمعه هو الآخر، ولما أكد له الشيخ بأنه لا يسمع شيئا، هجم عليه بقوة ملقيا إياه بحركة بارعة على الأرض وطالبا منه أن لا يتحرك، وإلا فإن الطائرة ستقصفهم. لم يستغرب الشيخ من حركته التي سبق أن تمرن عليها هو الآخر، وظل متمددا على الأرض ينظر في السماء. غيرت الطائرة اتجاهها وراحت تقترب من الأرض، ودارت في فضاء المنطقة دورة واحدة ثم اختفت في الأفق البعيد. عند ذلك صرخ الصبي بصوت عال مستفسرا عن السبب الذي أدى بهم إلى أن يضربوا أباه بأخمص البندقية، وراح يشرح له بالتفصيل كيف أنهم ضربوا والدته وكل أفراد العائلة ورموهم داخل الشاحنة كما لو أنهم يتعاملون مع أكياس الحنطة.

قام الشيخ من مكانه نافضا التراب من ملابسه وهو يحدق باستغراب في وجه الصبي المتقع وجحوظ عينيه بشكل غريب، الأمر الذي ذكره بوضعه صباح هذا اليوم. ظن الشيخ أن سبب ذلك هو التعب والإرهاق اللذين يعانيهما الصبي، ولكنه سرعان ما تذكر حفيده الذي مرَّ بنفس التجربة، فتأكد بأن وضعه النفسي والعقلي ليس على ما يرام. وأنه يجب أن يعالج عند السيد العربي الذي عالج حفيده. ولكن كيف يمكنه إيصاله إليه؟ وهو يعرف جيدا أن أي تأخير أو إهمال في مثل هذا المرض سيؤدي إلى مضاعفات لا تحمد عقباها. كانت حالة حفيده مشابهة لحالة الصبي، إذ أنه كان في طريقه إلى المدينة بصحبة والده لشراء الحاجيات الضرورية عندما تصدت لهما في طريق العودة مجموعة من العسكر في نقطة السيطرة والتفتيش واتهموهما بتهريب المواد الغذائية. ولما أراد الأب أن يناقشهم، رموا مشترياته على قارعة الطريق وداسوا عليها وأشبعوه ضربا وكسروا بعض أسنانه، وقالوا له لو أنه لم يكن بصحبة ابنه الصغير لأخذوه إلى أسفل السافلين. وكان أن أخذ الشيخ حفيده إلى السيد العربي،

حيث بقي عنده أسبوعا واحدا، أرجعه بعده إلى البيت وهو في كامل صحته.

فكر الشيخ في طريقة يمكنه بواسطتها إقناع الصبي على مصاحبته إلى القرية التي يسكن فيها السيد العربي، رغم معرفته بوجود منع التجول في المنطقة، حيث اعتبرت ساحة حرب رسمية، وأن كل من لا يلتزم بذلك يعرض نفسه للقصف الجوي أو إلقاء القبض عليه. ويعرف الشيخ جيدا أن من يتم إلقاء القبض عليه سيكون مصيره مجهولا. ورأى في قرارة نفسه أن أحسن حل هو المشي ليلا. وهناك ربية عسكرية واحدة يعرف مكانها جيدا، يمكنهما الالتفاف حولها. بقي أن يفاتح الصبي ويجد له مبررا مقنعا للسفر، ولكن كيف؟ هل يذكر له السبب الحقيقي للزيارة، أم يختلق له سببا موهوما؟ هذا ما يجب عليه أن يفكر فيه مليا. وترك ذلك للمصادفة التي قد تمهد الطريق لولوج الموضوع.

وخطر ببال الشيخ فكرة جديدة أخرى، وجدها ضرورية جدا للوضع الصحي للصبي، ألا وهي عدم بقائه لوحده. ورغم أنهم اتفقوا على أن يتناول وجباته عنده ويقضي الليل في الكراج، حسم الأمر مع نفسه بأن لا يترك الصبي لوحده حاليا، حتى إذا اضطر أن يبقى هو عنده في الكراج. لذلك طلب منه بصوت حاسم أن يقدم الماء والعلف للعنزات ويحكم المزلاج على باب الزريبة تفاديا لهجوم الذئاب. قال الصبي إنه سيفعل ذلك عندما سيعود من عنده إلى الكراج بعد مغيب الشمس. ربت الشيخ على كتفه وأبدى له عن حاجته الماسة إليه هذه الليلة، لأنه يريد أن يستشيره في أمور كثيرة تحتاج إلى وقت كثير ثم انه يخشى أن يداهم البعض القرية، لذا يرى أن بقاءهم حاليا مع بعضهم ضروري جدا. وأنهما سيتمكنان من التقاط الأخبار من جهاز الراديو الصغير الذي يملكه. ولكي يتمكن من إقناع الصبي، أكد له مرة أخرى بأنه هو وزوجته بحاجة إليه فعلا، ذلك أنهما يحسان بالطمأنينة بوجوده. فكر الصبي في الاقتراح الذي أسنده الشيخ بمبررات أعجبته، ووجد أن الشيخ من النوع الذي يرتاح إليه الإنسان وانه حين يتكلم لا يحس المستمع بالملل وله خبرة ودراية كبيرتان بالحياة يمكن الاستفادة منهما. ولما كان رأسه مليئا بالأسئلة والمشاريع، لذا لم يجد مبررا لرفض الفكرة. أبدى الصبي موافقته على الفكرة دون أن يفكر طويلا، ولكن لليلة أو ليلتين فقط لا أكثر. قال الشيخ بارتياح:

" أعتقد إننا نتفاهم فيما بيننا بسرعة"

" أنا أعتقد ذلك أيضا، ولكن عليك أن تنتظر بعض الشيء، ريثما أنتهي من تقديم العلف والماء للعنزات والدجاج"

اتخذ الشيخ مكانه على دكه طينية معدة للجلوس وانشغل بلف لفافة طالبا من الصبي أن لا يستعجل ويعمل بهدوء. وأما الصبي فأتجه بسرعة إلى البئر وسحب الكمية المطلوبة من الماء. كانت الزريبة مظلمة في البداية، وحين تعودت عيناه على الظلام، وضع الماء في الوعاء المخصص لسقي الحيوانات ثم خلط التبن بكمية قليلة من الشعير ووضعه في المعلف للعنزات الثلاث. قال وهو يربت على ظهر إحداها، ألم يكن من المستحسن لو ذهبتن أنتن أيضا مع أهلي؟ لماذا بقيتن هنا أيتها البليدات؟ وحين هم بترك الزريبة، رأى شيئا غريبا صدمه بقوة بحيث تسمر في مكانه دون أن يصدق عينيه، وجد والده واقفا وراء الباب بوجه شاحب وعينين براقتين حزينتين، كما لو أنه يريد أن يخفي نفسه عن الأنظار. اقتحمته رعشة مفاجئة، ظل متسمرا في مكانه ومحدقا في عيني والده الكئيبتين، دون أن يتأكد ما إذا كان هذا هو نفسه أم شبحه. وقال بصوت خافت وبصورة لا إرادية كما لو أنه في حلم:

" بابا، هل هربت منهم؟"

قال الشبح وهو يتلاشى:

" سنعود قريبا يا بني، أنتبه إلى نفسك"

تسمر في مكانه لهنيهة غير قصيرة كالمأخوذ وراح يبحث عن والده في أرجاء الزريبة، ولكن عبثا. ترك الزريبة بخطوات متثاقلة بصورة لا إرادية دون أن يغلق الباب. أنتبه الشيخ إلى وجهه الشاحب الجامد واستفسر عما جرى له. أجاب الصبي ساهما، أنه رأى والده وكلمه ويعتقد أنه ما زال واقفا هناك وراء الباب. ظن الشيخ أنه فلت منهم وأخفى نفسه هناك، ورغم عدم تأكده من ظنه، هرع مع الصبي إلى الزريبة ليستطلع الأمر بنفسه وهو يؤكد للصبي بأنه لاشك رأى شبحه، لأن الصغار أبرياء مثل الملائكة، يرون ما لا يراه الكبار. ولما لم يجدا له أثرا، وقف الصبي في نفس المكان وهو يؤكد للشيخ بأنه كان واقفا هنا، وأنه كلمه فعلا.

تأكد الشيخ من أن استنتاجه بخصوص الوضع العقلي للصبي صحيح، وأنه يجب أن

يصطحبه إلى السيد مهما كان الثمن. ووجد أن الفرصة مواتية لمفاتحته بالموضوع. قال الشيخ، وهما في طريقهما إلى منزله، أن هناك رجلا عربيا تعود أرومته إلى سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يسكن في القرية المجاورة، له دراية بمثل هذه الأمور وأنه صاحب معجزات كثيرة. قاطعه الصبي قائلا أنه سمع من والده حكاية هذا الرجل ويقال أنه يشفي المرضى، قال الشيخ كما لو أنه أصاب الهدف:

" أجل، هذا هو بالذات، هل تحب أن نزوره ونستكشف منه عن مصير عوائلنا، إنه يقرأ الغيب أيضا، كما وسنطلع على وضع القرية هناك أيضا"

رحب الصبي بالفكرة، ولكنه سرعان ما فكر بالعنزات التي تحتاج إلى رعاية يومية. طمأنه الشيخ بأنهما لا يغيبان طويلا، ثم أن زوجته تملك ما فيه الكفاية من القوة لتقديم العلف للعنزات والدجاجات. اقترح الصبي أن يسافرا بالتراكتور، بيد أن الشيخ أبدى معارضته القاطعة للفكرة، مؤكدا أن سفرتهم يجب أن تكون في كل الأحوال ليلا ومشيا، ذلك أن هدير محرك التراكتور وضوءه الساطع سيفضحانهما ولا سيما عندما يقتربان من ربية الحراسة العسكرية. تساءل الصبي بفضول ما إذا كانا سيسافران هذه الليلة بعد تناول العشاء، أجاب الشيخ بارتياح:

" العجلة من الشيطان يا بني، يا كامه. نحن مرهقان ومتعبان جدا، يجب أن نرتاح وغدا سنفكر في الأمر. ربما سنسافر مساء غد"

قفز الصبي جذلا وهو يضحك لأول مرة منذ الصباح الباكر. وأبدى للشيخ عن رغبته في الانتقال إلى تلك القرية معتقدا أن الوضع هناك طبيعي. ولكي لا يظل الصبي متعلقا بآمال وهمية، أكد له بأن مصير تلك القرية وكل القرى الأخرى ليس بأحسن من مصير قريتهم. اكتأب الصبي وعاد إلى شروده. وعندما أحس الشيخ بذلك، أراد أن يغيّر مزاجه بإدخال بهجة ما في قلبه، فقال له بأن هذا الإجراء مؤقت ينتهي بانتهاء الحرب، وأما إذا طالت القضية فيمكنهم الانتقال إلى إحدى المدن. أراد الشيخ أن يستبدل وهم الصبي بوهم آخر. وحين أمطره الصبي بوابل من أسئلته، طلب منه الشيخ أن يتمهل ريثما يلتقيان بالسيد ويستمعان إلى رأيه، لأنهما في كل الأحوال لا يتمكنان من استباق الأحداث. وراح الصبي يفكر بالعنزات والدجاجات، بشبح والده ووالدته، بمصير أهله، بمدرسته وبالمدينة الموهومة التي سيستقر فيها.

كانت العجوز قد أشعلت النار في الموقد وجلست تنتظرهم وهي تستعيد في ذهنها أحداث فجر هذا اليوم وتبكي بصمت بعد أن أرهقتها الولولة، وتجد نفسها عالة على الحياة وتتمنى موتها من كل قلبها للتخلص من هذا العذاب. بيد أنها رأت مع كل ذلك أن الشيء الوحيد الذي يمنحها السلوان هو خدمتها الضرورية لزوجها الشيخ الذي هو بأمس الحاجة إليها. هذا هو المعنى الكامن في بقائها. والآن يحتاجها هذا الصبي أيضا، فإذن لا بأس أن يمد الله في عمرها ويمتعها بصحة جيدة كي تتمكن من خدمتهما على أحسن ما يرام. حين أحست بقدومهما، وضعت المقلاة المحتوية على الزبد على الموقد ثم أضافت إليها التمر المهروس فالبيض. ما أن وطأت أقدامهما أرض الغرفة إلا وصاح الصبي جذلا:

" خورماو رون، خورماو رون.." (التمر المهروس بالدهن)

عندما انتهيا من تناول طعام العشاء، أحسا بالتعب يقتحم أعصابهما بقوة. وتمدد كل واحد منهما في مكانه متمتعا بنشوة الاسترخاء لسلطان النوم القادم من أعماقهما المرهقة. وقبل أن يبدأ الشيخ بشخيره الخفيف، بدأ الصبي بالهذيان وضرب الأرض بيديه وقدميه. وحين أرادت العجوز أن ينبهه، طلب منها الشيخ أن تتركه وشأنه، وقال لها إنه سيذهب معه في كل الأحوال غدا إلى السيد العربي.

٣

كانت العجوز والشيخ قد اعتادا أن يستيقظا فجرا، وبعد أن يؤديان مراسيم صلاة الفجر، تنشغل هي بإشعال النار في الموقد وإعداد الخبز على الصاج وأما الشيخ فيتخذ مكانه قربها ليلف لفائفه وينتظر إلى أن يستيقظ الجميع، حيث يجلسون معا لتناول الفطور وعند الانتهاء منه ينصرف كل واحد منهم لإنجاز العمل المخصص له وينتهي النهار دون أن يحسوا به. وأما هذا اليوم، فيختلف عن الأيام السابقة: صمت مطبق وفراغ لا نهائي. الإحساس بالحزن العميق بدأ يلدغهما من الداخل. إنها يجب أن تعد اليوم أقراص خبز لا تتجاوز أصابع اليدين، فكرت وهي تمسح دموعها بخرقه معدة لمسك الصاج: ترى أين هم الآن، هل سيكون فطورهم خبزا حارا؟ قالت لزوجها أنها لا تتحمل الألم، إن قلبها يكاد يحترق، إنها تتمنى الموت. قال الشيخ بصوت يخنقه الألم:

" لا تموتي يا امرأة، نحن ما زلنا بحاجة إليك. هذا هو قدرنا، الشكوى لا تفيد. لا نستطيع أن نفعل أكثر من الدعاء إلى الله أن يكون في عونهم ويعيدهم إلينا سالمين"

كانت الشمس في الخارج قد أشرقت واستيقظ الصبي جالسا في مكانه يلتفت يمنة ويسرة مستطلعا المكان باستغراب كما لو أنه يريد أن يعرف أين هو. وظل هنيهة بهذا الوضع إلى أن نبهه الشيخ لوضعه. وحين عاد إلى وعيه، تذكر أنه كان يحلم بأهله وأنهم كانوا يحيطون به من كل الجهات. وأحس بثقل الحزن الجاثم على قلبه وبلانهائية الفراغ المحيط به. سأله الشيخ ما إذا كان نومه عميقا ومريحا، قال أنه حلم بواد ملئ بالثعابين والحيوانات المرعبة التي طاردته طوال الليل، ولكنه تخلص منها بأعجوبة بعد أن ألقى بنفسه في بستان جميل مسيج، ثم وجد نفسه في البيت يحيط به أهله. قال الشيخ بانشراح:

" حلم جيد يا بني يا كامه، سوف ينتصر الخير على الشر إنشاء الله"

بعد الانتهاء من تناول الفطور المتكون من البيض المقلي واللبن وأقراص خبز الصاج الحار، اقترح الشيخ على الصبي أن يقوما بجولة في أنحاء القرية للاطلاع عن كثب

على أوضاع البيوت المهدمة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بحفظه في المباني التي لم يتم تخريبها. وكانت البيوت التي اكتوت بنار الحملة الأخيرة لا تتجاوز أصابع اليدين. وأما أصحاب البيوت الأخرى المتروكة، فقد هجرها أهلها بالتتابع خلال الأشهر الستة الأخيرة. ولا أحد يدرى إلى أين هجروا. يقال أن قسما منهم رحل إلى المدينة والقسم الآخر إلى إيران وتركيا. ولما لم يتمكن بعض العوائل من أخذ كل شيء، لذا تركوا قسما من حاجياتهم في بيوتهم على أمل العودة إلى القرية ذات يوم. وأنتبه الشيخ إلى أن معظم البيوت التي هجرها أصحابها لم تخرب، ولكن أبوابها كانت مكسورة بدليل أن العساكر قد اقتحموها لمعرفة ما إذا كانت مسكونة أم مهجورة. وتبين لهما أن أكثر من نصف القرية لم يهدم. وكانت ثمة علامة ضرب X باللون الأخضر على أبواب البيوت غير المهدمة. وقف الشيخ أمام أحد الأبواب كما لو أنه تذكر شيئا، وصاح على الصبي الذي كان مشغولا بالنظر إلى داخل زريبة دجاج:

" تعال يا بني يا كامه، تعال فكر معي"

جاءه الصبي وبيده عدة بيضات، واصل الشيخ دون أن ينتبه إلى ما بيده:

" هل يمكنك أن تقول لي ماذا تعني هذه الإشارة؟"

حك الصبي رأسه وهو يحدق مليا في إشارة الضرب الخضراء المرسومة على الباب:

" هذه الإشارة كانت غير موجودة من قبل، لا شك أنهم رسموها في ليلة مداهمة القرية، ولكن لماذا رسموها؟ هذا ما ينبغي أن نفكر فيه"

أجاب الشيخ بسرعة:

" ربما من أجل أن يفرقوا بين البيوت الفارغة والمسكونة، الأولى يتركونها وشأنها والثانية يهدمونها ويأخذون أصحابها"

تذكر الصبي كلام المعلم الذي قال ذات مرة أن سبب تهجيرهم للسكان سببه ليس الحرب، كما يدعون، بل القضاء على الكورد وجلب العشائر العربية لتحل محلهم. قال كما لو أنه يواصل شروده:

" نعم يا جد، البيوت الفارغة لم يهدموها، وذلك كي تبقى جاهزة لسكنى العرب"

ربت الشيخ على كتف الصبي قائلا:

" سمعت بذلك من المعلم، ولكن القبائل العربية رفضت تنفيذ أوامر الدولة"

كان الشيخ يعرف أصحاب البيوت التي يمران بها فردا فردا ويذكر أسماءهم وعدد أفراد عوائلهم وما يمتلكون ومدى غناهم وفقرهم ويشرح كل ذلك بالتفصيل للصبي الذي ينتبه إليه بإمعان، لاعنا الظالمين الذين قاموا بهذا العمل أمام أنظار الله. ويحس الصبي في أعماقه كما لو أنه مسؤول عن القرية التي لا زالت في نظره تحتفظ بمنزلتها السابقة، رغم الخراب الشامل والصمت المطبق، ففي لحظة تجلي من شروده، حصلت لديه قناعة خفية تؤكد له بأن ما حصل إنما هو شيء وقتي. وأن كل شيء سيعود إلى وضعه السابق. وإن الناس سيعودون حتما ذات يوم. واقتحمته نشوة غريبة، أحس بقدميه لا تمسان الأرض وأنه يكاد يطير من الفرح. وتذكر أن اليوم أو يوم غد إنما يصادف عيد نوروز الذي نسوه.

وقف ممسكا بساعد الشيخ وقائلا بصوت عال:

" بابا، بابا، هل تعرف إننا نسينا عيد نوروز؟"

أجاب الشيخ كما لو أنه عثر على شيء مفقود:

" لعنة الله على الشيطان الرجيم يا بني، يا كامه، كيف ينسى الإنسان مثل هذا العيد؟ غدا عيد نوروز. الله ينتقم منهم، لقد حولوه إلى عزاء. يجب أن نشعل النار هذه الليلة"

" سنشعل نارا هائلة لم تعهد بها القرية من قبل"

وراحا يجمعان الحطب ويكومانه في ساحة القرية المرتفعة وهما ينتظران حلول الظلام على أحر من الجمر. وكرر الشيخ أكثر من مرة بأنه يعرف بأن النار ستجلب انتباه الوحدات العسكرية المنتشرة في المنطقة إلى مكان تواجدهم، الأمر الذي قد يخلق لهم بعض المشاكل، ولكن، المبلل لا يخاف المطر، فليكن ما يكون وليفعلوا ما يشاءون. وشاركه الصبي هو الآخر رأيه مؤكدا بأن مصيرهم ليس بأحسن من مصير عوائلهم.

حين أطبق الظلام الدامس على القرية، خرج الثلاثة، متوجهين إلى كومة الحطب المرصوصة على المرتفع القريب من مسكن الشيخ. كانت الآفاق، بخلاف السنوات السابقة في مثل هذه الليلة، مظلمة لا يبدو فيها بصيص من النور. علق الشيخ، وهو

يشعل الولاعة ويطفئها بتوتر، بأنه لم ير ليلة عيد نوروز مظلمة مثل هذه الليلة. إنه لنذير سوء أن لا تشتعل النيران في هذا العيد المبارك، ولكنه يتوجس شرا من إشعال النار. قال الصبي وهو يتوقع في كل لحظة أن يشعل الشيخ الحطب اليابس المكوم أمامهم:

" ماذا تنتظر يا بابا، هيا أشعل النار، لماذا تخاف؟"

" لا أخاف على نفسي ولا على العجوز، بل أخاف عليك أنت يا بني، يا كامه، أنك ما زلت صغيرا لم تعش حياتك بعد"

قال الصبي بعناد طفولي: " أشعل النار، فليكن ما يكون"

" أنا سأشعل النار، ولكننا يجب أن نبتعد عنها ونخفي أنفسنا وراء جدار ولا نتحرك. إنهم قد يأتون بالهليكوبتر ويقصفون المكان ويسلطون عليه الأضواء الكاشفة. إن وجود النار في مكان ما، يعني وجود بشر"

بعد هنيهة تفكير عميق، أيد الصبي كلام الشيخ الذي اعتبره معقولا جدا واقترح أن ينسحبوا إلى خارج القرية، حيث المكان الأضمن، لأنه ليس من المعقول أن يفتشوا كل شبر من الأرض. وأضرم الشيخ النار في الحطب، ولما تأكد أن اللهب قد استقر على الجمر، طلب إليهما أن يتحركا معه إلى خارج القرية. أرادت العجوز أن تذهب إلى البيت، ولكن الشيخ منعها، فتبعتهما راضخة.

بعد فترة قصيرة لم تتجاوز نصف الساعة، سمع الصبي هدير محرك هليكوبتر خافت، تصاحبه إشارة ضوئية تومض وتنطفئ. وسرعان ما بدأ الهدير يرتفع مع اقترابه منهم، بحيث سمعه الشيخ أيضا. اقتربت الطائرة العملاقة من الأرض وراحت تدور حول النار مرسلة أضواء كشافة على خرائب القرية، ثم ما لبثت أن حلقت إلى أعلى بسرعة واختفت في الأفق البعيد.

" الآن أستطيع أن أدخن لفافتي بدون خوف من هذا الجبل الطائر"

رغم اختفاء الهليكوبتر، ظلوا جالسين في أماكنهم خارج القرية يراقبون ألسنة النيران المتصاعدة وكأنهم ينتظرون قدوم الطائرة مرة أخرى. انتهى الشيخ من تدخين اللفافة الثانية. تساءل الصبي ما إذا كانت قد اختفت نهائيا أم أنها ستعود مرة أخرى؟ أجاب الشيخ أنها لا شك لن تعود، إذ أنهم تأكدوا من عدم وجود أحد قرب النار ثم

أنهم لاشك سوف لا يتصورون بأنها أشعلت خصيصا لمناسبة عيد نوروز، بل أنها من صنع أيديهم هم، لأنهم لا يمكن أن يتصوروا وجود إنسان هنا. أي إننا نحن الثلاثة غير موجودين، كما وليس من المعقول أن الضابط الشاب الذي أنقذ حياتي من أجل زوجتي سيذهب خصيصا إلى القاعدة العسكرية ليبلغهم بوجودنا هنا. وحتى إذا فعل ذلك، فإنهم لا يمكن أن يتصوروا بأن شيخا في مثل سني سيشعل نار نوروز. وتركوا أماكنهم إلى حيث النار وظلوا يتمتعون بمنظرها إلى أن زالت ألسنة اللهب التي أتت على الحطب الذي تحول إلى جمرات ما لبثت أن تحولت بدورها إلى رماد. وأطبق الظلام الدامس على خرائب قرية الأشباح المتهدمة.

كانت العجوز قد أعدت لهذه المناسبة تشريب دجاج، تناولوه في وقت متأخر، بسبب بقائهم إلى جانب النار. علق الصبي، بعد أن أعجبه مذاق التشريب، بأن الحيوان الوحيد الذي نجا من سطوة الأوباش هو الدجاج وأن الكمية الموجودة في القرية تكفيهم لأكثر من سنة. قالت العجوز، إنها ذخيرة جيدة، بيد أنها بحاجة إلى العلف والماء يوميا. قال الصبي بحماس:

" لدي الوقت الكافي للقيام بهذا العمل"

قال الشيخ بيأس:

" هذا إذا لم يأت أوباش خضر آغا هذه المرة للنبش عن القمح المدفون"

علق الصبي كما لو أنه كان ينتظر مثل هذا الكلام:

" ألا يمكننا قتل هذا الوحش؟ قل لي أين يسكن؟"

تململ الشيخ في مكانه قائلا وهو يلف لفافة:

" بقتله لا تنتهي المشكلة يا بني، يا كامه. هناك مائة خضر آغا. الشجرة يجب أن تقتلع من الجذور"

أضاف الصبي بحماس:

" ولكن قتله يكسر عيون الآخرين ويمنعهم من التمادي في ظلمهم"

قبل أن يرد الشيخ على الصبي، داهمته فكرة، وجدها مهمة جدا بالنسبة لحياته، إذ أنه بخلاف بقائهما، هو وزوجته على قيد الحياة بصورة رسمية، يعتبر الصبي هاربا من

وجه العدالة. ولا شك أن الضابط الشاب قد أعلم الجهة المسؤولة عن بقائهما في القرية بموافقته. كما أن خضر آغا لابد سيقوم بجولته الثانية للتنقيب عن القمح، ولذلك عليه أن يضع خطة للحفاظ على حياة الصبي:

" أنظر يا بني، يا كامه. هناك مسألة أهم بكثير من مقتل هذا الإبليس، وهي الحفاظ على حياتك. أنا لا أريد أن يداهموا القرية على حين غرة ويلقوا عليك القبض، إنهم لا يفرقون بين الصغار والكبار، ولما كانوا يداهمون القرى عادة في الصباح الباكر، لذا يجب أن نستيقظ مبكرا ونتنبه طيلة النهار إلى الأفق الغربي، حيث الطريق الذي تأتي منه السيارات"

تساءل الصبي بلهجة غير جادة:

" وماذا تريدنا أن نفعل، إذا جاءت سيارة؟"

" هناك مخبأ بناه ابني لإخفاء التبغ المهرب، سأريك إياه فيما بعد، إنه مكان مأمون جدا"

فكر الصبي، ما إذا كان بإمكانه إخراج البندقية من مخبئها والتخندق في إحدى الخرائب وقتل خضر آغا مع جميع أفراد حاشيته واحدا بعد آخر. أراد أن يقول شيئا، بيد أنه فضل الصمت. ولكنه قرر مع نفسه، أن يقوم بإخراج البندقية من مخبئها غدا عند زيارته للبيت.

في اليوم الثاني ساعد الصبي العجوز في جلب الماء من البئر ثم توجه إلى منزله بعد أن اتفق معهما على الحضور ظهرا لتناول الغداء معهما. أخرج العنزات الثلاث من الزريبة وقدم لها العلف والماء في الهواء الطلق، حيث الشمس الدافئة. ونالت الدجاجات هي الأخرى حصتها من العلف. ثم توجه إلى الزريبة المعتمة وهو يجيل نظراته في الزوايا المظلمة. توقع أن يرى والده مرة أخرى، ولكن عبثا. ظل واقفا في مكانه وراء الباب. لم يره، ولكنه سمع صوته وهو يطلب منه أن يخرج البندقية من مخبئها ويحملها معه دوما ولا يفارقها حتى في نومه. سأله عن مكان تواجدهم وماذا يفعلون، ولكنه لم يتسلم أي جواب.

بعد انتظار غير قصير، توجه إلى الركن الذي تحفظ فيه الأدوات الزراعية وأخذ معولا وذهب إلى المكان الذي أخفوا فيه البندقية. أزاح أكياس التبن الموضوعة على

المخبأ، فظهر في الجدار لبن ناتئ كبير الحجم، أزاحه بضربة واحدة من المعول، ثم وسع الحفرة بإزاحة لبن آخر. وأخرج البندقية الملفوفة بالنايلون والكيس المحتوي على العتاد والحزام. قال بعد أن أحس بثقل كيس العتاد:

" إنه يكفي لمقاومة فصيل من الجحوش المرتزقة"

أتخذ مكانه في الشمس على دكه طينية. نزع النايلون الملتف حول البندقية برفق وراح يتفحصها بدقة باحثا عن صدأ ما، وتنفس الصعداء حين لم يعثر على شيء من هذا القبيل، ثم فكك البندقية وزيت كل الأجزاء بعناية، ناشرا إياها على قطعة قماش. وبعد أن تفحص الاطلاقات وحسبها وملأ جيوب الحزام، أعاد تركيب البندقية وأنزل مشطا في الخزان ثم سحب الترباس ليتأكد من سرعة انزلاق الاطلاقات. عندما تأكد من صلاحية البندقية، عاين هدفا موهوما، وفكر ما إذا يطلق النار، ولكنه فكر في الشيخ. وحين تنكب البندقية، أحس بنفسه قويا له القدرة على مجابهة المخاطر الطارئة، فبدلا من الانزواء في مخبأ تبغ الشيخ، يمكنه الاعتصام بخرابه والمقاومة إلى أن يبيدهم كلهم أو تقع جثته بأيديهم، فحياته، في كل الأحوال، ليست أهم من حياة أهله المجهولة.

مسك دجاجة سوداء وشد رجليها ثم لف الحزام المعبأ بالعتاد على خصره وتنكب البندقية وتوجه إلى بيت الشيخ بخطوات شبه عسكرية ثابتة.

كان الشيخ قد أتخذ مكانه على لباد في الشمس، متكئا على وسادة، عندما رأى الصبي المسلح قادما بهامة مرفوعة، قال بصوت عال:

" ما شاء الله .. ما شاء الله، تعالي يا امرأة وانظري إلى هذا المقاتل"

لم تسمع العجوز كلام الشيخ، ولكنها رأته قادما من خلال الباب، فخرجت من الغرفة مرددة هي الأخرى: "ما شاء الله.. ما شاء الله"

٤

في اليوم الثاني وقبل مغيب الشمس بفترة قصيرة، لاحظ الصبي في الأفق الغربي نقطة سوداء قادمة باتجاه القرية. وسرعان ما تبين له أنها سيارة جيب. كان يسحب الماء من البئر، ترك الدلو وهرع إلى الشيخ الذي كان رابضا في مكانه ومشغولا بسلخ أرنب ذبحه توا، قائلا بانفعال:

" سيارة جيب قادمة إلى القرية يا بابا.."

تجمدت يدا الشيخ وسقط الأرنب على الأرض، وقام من مكانه وهو يتساءل كما لو أنه يكلم نفسه:

" سيارة جيب؟"

" أجل، سيارة جيب، إننا يجب أن نفعل شيئا"

حدق الشيخ في الجهة المعنية مظللا عينيه بيمناه ليتأكد بنفسه من الخبر. وبعد تأمل قصير قال بهدوء:

" إنها سيارة جيب مسلحة تابعة للشرطة، ربما جاءوا ليعرفوا من أشعل النار ليلة أمس"

ثم طلب من الصبي أن يهيئ نفسه لدخول المخبأ على أن يتولى هو شأن إخفاء البندقية وحزام العتاد ثم يتوجه لاستقبالهم والتحدث إليهم. وحين أراد الصبي أخذ السلاح معه إلى المخبأ، منعه الشيخ من ذلك، محذرا إياه بأن استعمال السلاح في مثل هذه الحالات لا يؤدي إلاّ إلى الموت المحقق الذي لا فائدة من ورائه.

" ولكنني أخشى أن يعتدوا عليك أو يأخذوك معهم"

" إنهم لا يورطون أنفسهم بأخذ شيخ طاعن في السن مثلي. ثم لا تنس إنني لست وحدي، وأما إذا أخذونا أنا والعجوز، فليكن الله في عونك ودبر شأنك بنفسك. ولا تنس أن تذهب إلى السيد، إنه سيفيدك وبلغه تحياتي"

قال الصبي بلهجة واثقة:

" لا تخشى علي، إنني سأدبر أمري، ولكنني أخشى عليكما، أليس من المستحسن أن نختبئ ثلاثتنا؟"

" كلا، يا بني، يا كامه. إننا يجب أن نحافظ على حياتك أنت. أنا والعجوز عشنا حياتينا وكفى"

أحست العجوز أنهما يتشاوران في أمر ما، غريب عليها، فدفعها الفضول لأن تترك قربة اللبن التي كانت تخضها في فناء الدار وتتوجه إليهما، سائلة إياهما ما إذا قد حصل شيء ما. أبلغها الشيخ عن احتمال وصول سيارة إلى القرية قريبا، وطلب منها أن لا تتحدث أمامهم. قالت ضاربة رأسها بيديها:

" قطع الله لساني إذا فتحت فمي أمامهم، إنني خرساء وطرشاء، والولد؟ يجب أن نخفيه، إنني خائفة عليه"

طلب منها الشيخ أن تذهب إلى قربتها ولا تتدخل في شؤون الرجال. عندما اقتربت السيارة من القرية، اتخذ الصبي مكانه في المخبأ. وطلب الشيخ من العجوز أن تدخل الغرفة بعد أن ساعدها في نقل القربة إلى هناك وموضحا لها بأنهما يجب أن يعتصما في الداخل ولا يخرجا إلى فناء البيت لأن أفراد الشرطة قد لا يجشمون أنفسهم عناء البحث الدقيق في الغرف، بل يلقون نظرة سريعة إلى فناء البيت وينصرفون وبذلك لا يريان الشيطان ولا الشيطان يراهما. ظل الشيخ مترددا بين عتبة الباب الخارجية والداخلية ومفكرا فيما إذا يدخل الغرفة ويغلق الباب أم يخرج إلى الفناء لاستطلاع الأمر. وحين طلبت منه العجوز أن يحسم الأمر ويدخل الغرفة ويسد الباب، قرر أن يتوجه إلى الفناء، قائلا لها أنه من المستحسن أن لا يخفي نفسه، لأن ذلك قد يجلب الشك فيبدءون بتفتيش البيت بصورة دقيقة، الأمر الذي قد يؤدي بهم إلى أن يهتدوا إلى مخبأ الصبي. قالت العجوز بلهجة قانعة: " أفعل ما تشاء، المهم هو حياة الصبي، ولكن لا داعي لسد الباب، أتركه مفتوحا"

لم يكتف الشيخ بالوقوف في فناء البيت، بل ارتقى السلم إلى السطح ليراقب حركة السيارة التي توقفت أمام مدخل القرية وترجل منها أربعة رجال، شاهرين أسلحتهم الاوتوماتيكية بصورة منفعلة كما لو أنهم يتهيئون لدخول معركة.

وبعد أن أطلقوا عدة عيارات نارية في فضاء القرية، تحركت السيارة ببطء يصاحبها

الرجال الأربعة شاهرين فوهات أسلحتهم إلى مختلف الجهات كما لو أنهم يتوقعون مقاومة ما. وحين أكملت السيارة دورتها الكاملة حول القرية توقفت في مكانها الأول، وراح الرجال يتشاورون فيما بينهم. ولم يتمكن الشيخ من سماع أصواتهم، ولكنه استنتج من مجمل النقاش الدائر بينهم ومن حركات أيديهم، أنهم تشاوروا فيما إذا يدخلوا القرية أم لا؟ ثم اتخذوا أماكنهم في السيارة عائدين إلى حيث أتوا، مقتنعين من عدم وجود إنسان في القرية. وحين تحولت السيارة إلى نقطة سوداء في الأفق البعيد، نزل الشيخ إلى الفناء وهو يحس بالزهو لفكرته الصائبة في مراقبة الوضع من على السطح:

" هل رأيت يا امرأة كم كان رأيي صائبا في عدم البقاء في الغرفة. لقد ذهبوا مثلما جاءوا دون أن يدخلوا القرية، لو كنت معتصما في الغرفة لما رأيت كل ذلك"

عقبت العجوز متنفسة الصعداء: " لولا عقلك المدبر يا رجل لأكلتنا الذئاب، هيا أذهب وبشر الصبي"

كان الصبي يعتقد أن المخبأ لا ينقذه من مداهمتهم، إذ أنهم حين يبحثون عن شيء ما، يقلبون البيت رأسا على عقب ولا يتركون زاوية دون أن تطالها أيديهم، لذلك كان يفكر في مصيرهم ثلاثتهم وماذا سيجري لهم: لماذا أطلقوا النار؟ هل قتلوا الشيخ وزوجته؟ ماذا سيفعلون به؟ إلى أين يأخذونه؟ هل يضربونه بأخامص بنادقهم مثلما ضربوا أباه وإخوانه؟ وماذا يقول لهم؟ وماذا سيكون موقفهم من الشيخ وزوجته العجوز؟ هل سيأخذونهما أيضا؟ وإلى أين؟ وإذ هو في تفكيره هذا يضرب أخماسا بأسداس، سمع صوت الشيخ من وراء الجدار يقول بفرح:

" هيا أخرج يا بني، يا كامه، لقد انتهى كل شيء"

لم يصدق الصبي أذنه ومع ذلك قفز من مكانه تاركا المخبأ المعبق برائحة التبغ، قال وهو يعانق الشيخ:

" ظننت أنهم قتلوكما، ماذا حصل؟ لماذا أطلقوا النار؟"

وراح الشيخ يحدثه بزهو كيف أنه اعتلى سطح الدار وراقب كل شيء عن كثب دون أن يحسوا به وأنهم بعد أن تأكدوا من خلو القرية من البشر، قفلوا راجعين إلى حيث أتوا، وأنه ظل يراقب السيارة إلى أن اختفت في الأفق. وأختتم كلامه معلقا:

" لقد ذهبوا بلا رجعة، عساهم يذهبون إلى الجحيم يا كامه، يا بني".

مسحة من الكآبة أطبقت على قلب الصبي وكدرت مزاجه. علق بيأس:

" إنهم سوف لا يتركوننا نعيش هنا بسلام يا بابا. إنهم لابد يراقبون القرية وسيعودون إليها مرة أخرى. لاشك أنهم يخططون لشيء ما. إننا يجب أن نفعل شيئا"

انتقلت عدوى الكآبة والتوجس إلى الشيخ هو الآخر. وراح يسائل نفسه عن السبب الذي دعاهم أن يأتوا إلى القرية في مثل هذا الوقت. ألا يكفيهم أنهم أفرغوا القرية من سكانها وحرقوا معظم بيوتها؟ ماذا يريدون بعد؟ ليلة أمس أرسلوا طائرة هليكوبتر واليوم سيارة جيب مسلحة. ترى، ماذا سيرسلون غدا؟ كان هم الشيخ الوحيد هو هذا الصبي الذي خرج من بين شدقي الموت. وأما مصيره هو وزوجته فأمر لم يهمه أبدا. إن حياتهما لا تساوي شيئا بعد أن أخذوا أهله عنوة أمام عينيه. كان يتمنى أن يقتله هذا العريف الذي وجه فوهة بندقيته على صدره ويا ليت لم يمنعه الضابط الشاب من فعلته التي كانت ستنتهي حياته ومن ثم تخلصه من هذا العذاب. وهو في كل الأحوال، وكذلك زوجته العجوز، لا يهمهما أي شيء. إنهما قررا منذ اللحظة الأولى أن يبقيا في القرية ويموتا في بيتهما. ولكن الله لم يلبث أن أرسل لهما هذا الصبي. ولاشك أن الله قد أنقذه من الموت بسبب هذا الصبي الذي كان سيبقى وحده دون معين وعضيد.

كانت العجوز قد تركت القربة بعد أن أفرغتها من محتواها المتكون من اللبن والزبد وخضتها بالماء الدافئ عدة مرات وعلقتها على الجدار كي تجف بغية طيها وحفظها فيما بعد في إحدى زوايا البيت المهجور. وفي تلك اللحظة ودعتها إلى الأبد كما لو أنها تودع إنسانا عزيزا عليها عاشرته دهرا من الزمن، إذ أن قطيع الغنم قد أخذوه كله فلا حليب بعد اليوم، ناهيك عن الأبقار والبغال ولم يتركوا لهما حتى معزة واحدة. وحين سمعها الصبي وهي تكلم نفسها بصوت عال وتتذمر لحرمانهم من اللبن من الآن فصاعدا، توجه نحوها مبتسما كالمنتصر ومطمئنا إياها بامتلاكهم لتيس وعنزتين تدران الحليب. وتحرك الشيخ هو الآخر من مكانه كما لو أنه يريد أن يبتعد عن الأفكار السوداوية التي اجتاحته. واتفقا على أن يذهبا إلى مسكن الصبي لجلب العنزات إلى بيت الشيخ كي تكون على مقربة من العجوز. وعند بلوغهما البيت اقترح الصبي بنقل الدجاجات أيضا إلى هناك، إذ أنهما ربما سيتأخران عند السيد. وإلى جانب سبب

الزيارة التي وجدها الشيخ ضرورية للصحة العقلية للصبي، اقتنع الاثنان بضرورة الاتصال بأي شخص كان وذلك للإطلاع على آخر أخبار المنطقة وما ينبغي عليهم عمله، إذ أن الصبي بدأ يفكر بجد في ترك ليس القرية فحسب، بل المنطقة كلها. وهذا هو ما أحس به الشيخ أيضا.

بعد انتهائهم من تناول طعام العشاء، أطبق الظلام على الكون. وكان الشيخ والصبي قد اتفقا على أن يتركا القرية تحت جنح الظلام، بيد أن مجئ السيارة غير المتوقع قد شوش أفكار الشيخ وأثار قلقه ومخاوفه من أن تنصب كمينا للمارة، فيقعان هو والصبي فيه، فتكون النتيجة سيئة على الصبي الذي قد يأخذونه ويتركونه هو لوحده، الأمر الذي لا يمكنه تحمله. أو ربما سيفتحون عليهما النار ويتركونهما وليمة سهلة للذئاب وتبقى العجوز لوحدها تندب حظها وتظل تنتظر وتنتظر بلا جدوى إلى أن تموت. حين انتهى من لف لفافته، أشعلها واتكأ على وسادته وهو لا يزال مستغرقا في شروده، يحاول بكل جهده إبعاد الأفكار السوداوية من مخيلته التي لم يسبق لها أن عانت من ثقلها من قبل. وكان الدخان الذي ينفثه من صدره هو الوحيد الذي يتكفل بتبديدها وينشر الراحة في أعماقه القلقة . بدا للصبي كما لو أن الشيخ قد نسي ما اتفقا عليه، فلم يرد أن يعكر عليه صفو تفكيره، بل وجه كلامه إلى العجوز ليذكره بالأمر، قائلا:

" هل تخافين من أن تبقي لوحدك يا ننه إذا سافرنا للسيد؟"

" ممن أخاف يا بني، يا كامه؟ اذهبا والله معكما. الشيطان نفسه يخاف مني"

لم يستجب الشيخ لكلام الصبي، بل ظل على وضعه يدخن ويفكر ليس في أمر السفر حسب، بل في مسألة بقائهم أو عدم بقائهم في القرية. ووجد أن الأبواب كلها مسدودة أمامهم. وعرف الصبي أن مزاج الشيخ ليس مع السفر وربما هو متعب، يخشى أن لا يتمكن من المشي وفكر بالتراكتور:

" بابا، إذا كنت لا تتمكن من المشي الطويل، فاقترح أن نسافر بالتراكتور. لدينا كمية كبيرة من زيت الديزل، هيا لنتحرك"

أجاب الشيخ وهو يجلس في مكانه:

" أعرف أنك تريد أن تخرج من هذه الخرائب لتسمع خبرا ما يا بني، يا كامه. أنا لا

يهمني المشي، وأما التراكتور فسبق أن أبديت لك رأيي بشأنه. إن ما أفكر فيه هو، هل نسافر هذا اليوم؟ أم نؤجل سفرنا إلى يوم آخر، إذ إنني تشاءمت من هذا الجيب اللعين. أخشى أن ينصبوا هذه الليلة كمينا لغيرنا فنقع نحن فيه"

علقت العجوز من مكانها:

" إذا كان قلب أحدكما ليس إلى جانب السفر فمن المستحسن تأجيله، أنا أيضا لست إلى جانب سفركما هذا اليوم"

اقتنع الجميع بضرورة تأجيل السفر بدليل أن الصبي عبر عن شكه تجاه نوايا سيارة الجيب. وحين بدءوا بشرب الشاي، راح الشيخ والصبي يناقشان مسألة البقاء أو عدم البقاء في القرية. ورغم أن العجوز سبق أن أبدت رأيها بهذا الخصوص، مؤكدة على أنها مصرة على الموت في بيتها، فانهما دخلا في نقاش طويل حول هذا الموضوع. وبعد مناقشة كل فكرة، كان ينتصب أمامهم السؤال التالي:" إلى أين؟". واقتنع الصبي في داخله أن الشيخ، مثل زوجته، لن يترك القرية. ليس لأنه لا أحد له ليؤويه، بل لأنه لا يستطيع أن يترك زوجته لوحدها، إذ أن حركتها محدودة ولا يمكن إجبارها على شيء لا تقتنع به. ولذلك اقتنع الصبي بأن الشيخ إنما يخاف عليه هو، فلولاه لما فكر في ترك القرية ولا سيما لأنهما، هو وزوجته قد أشرفا على نهاية حياتهما ولا يهمهما أجلهما الذي يقترب منهما يوما بعد يوم. ولكن أيهما يموت أولا يا ترى؟ وإنه لمن المستحيل أن يموتا معا في يوم واحد، ولذلك سيبقى الثاني لوحده، وهذا يعني أن الباقي على قيد الحياة سيحتاج إلى الرعاية. ولذلك وجد أنه هو الآخر مثل الشيخ لا يمكنه أن يخذل هذا الذي سيبقى لوحده في الحياة، فإنه إذن، شاء أم أبى، مرتبط بهما كارتباطهما هما به. أحس الصبي بنشوة غريبة تقتحم كيانه، إذ أنه رأى نفسه مسؤولا عن حياة هذين الانسانين الواقفين على عتبة الموت وأنهما بحاجة ماسة إلى رعايته وعطفه، تماما كما هو بحاجة إلى رعايتهما وعطفهما الأبويين. قال بلهجة فيها إصرار:

" بابا، إننا لا نستطيع أن نفترق عن بعضنا ولن نترك هذا المكان، إلا إذا أجبرتنا على ذلك قوة فوق إرادتنا"

قال الشيخ وهو يعانق الصبي:

" هذا ما كنت أريد أن أسمعه منك يا بني، يا كامه. بارك الله فيك. إننا يجب أن

ننشد ببعضنا البعض ونلتصق بقريتنا مثل التصاق الجبل بالأرض"

وعقبت العجوز هي الأخرى: " بارك الله فيك يا بني، يا كامه"

كان من عادة الشيخ ذكر الحكايات القديمة التي عاشها أو سمعها من أبيه وجده، رابطا إياها بالمناسبة التي يجري الحديث عنها. ولما كان حديثهما يدور حول ضرورة البقاء في القرية وعدم تركها تتحول إلى خرائب بلا بشر، بل تحويلها إلى نواة لقرية جديدة، قال:

" نحن يا بني، يا كامه ناس لا راع لنا. هذه ليست المرة الأولى التي تشردنا فيها الدولة وتعاملنا بهذه القسوة. لقد سبق أن شردتنا الدولة العثمانية ونقلت عشائرنا إلى الجنوب، حيث الصحراء. وعندما سقط العثمانيون، جاء الأنكليز وقصفونا بالطائرات، وحين وصلنا إلى منطقة آوباريك بقيادة الشيخ محمود، هرب بعض العشائر من ساحة القتال، خاذلة قيادة الحركة التي لم تحسب حساب الطائرات التي حولت المنطقة إلى نار مشتعلة. وهكذا تمكن الأعداء من إلقاء القبض على الشيخ محمود ونفيه إلى الهند. وأما الحكومات العراقية المتعاقبة، فإنها لم تقصر بحقنا. إن هذه ليست المرة الأولى التي يخربون ويحرقون فيها هذه القرية، هذه هي المرة الثالثة يا بني. ومثلما كانت الحياة تعود إليها في كل مرة، ستعود هذه المرة إلى حالتها الطبيعية أيضا بفضل الله، إن الله لا يقبل الظلم"

كان الصبي يستمع إلى الشيخ بكل جوارحه. ولا يعيد تصوير ما يذكره في ذهنه فحسب، بل يضيف إليه ما يجود به خياله من الصور الإضافية. وبين حين وآخر يحركه سؤال ما، فيطرحه على الشيخ دون أن يتركه هذا دون إجابة. فقد أعتاد أن يجيب على كل سؤال، إذ أن الشيخ، أي شيخ، لم يقوس الدهر ظهره عبثا، ولذلك يجب أن يعطي جوابه، ولا يهم ما إذا كان هذا صحيحا أم لا، فهولا يتحمل مسؤولية كلامه. أراد الصبي أن يعرف شيئا عن مصائر أهلهم وإلى أين أخذوهم. ولما كان الشيخ نفسه بحاجة إلى الكلام للترفيه عن نفسه ولكي يتخلص من الفراغ الهائل المخيم عليهم، راح يستطرد في كلامه ويدخل في أدق التفصيلات. وكانت معلوماته ليست قليلة، إذ أنه سبق أن درس في صباه عند الملا وتعلم القراءة والكتابة. وعندما جاءت موجة تشكيل الجمعيات الفلاحية بعد ثورة تموز، أنتخب رئيسا للجمعية التي تأسست في قريتهم، ثم

ما لبث أن ألغيت الجمعية وأوقف مع بعض الفلاحين الآخرين بتهمة الفوضى. وراح يحكي كل ذلك للصبي بكل تفصيل. و يحاول أن يقنعه بأن هذا الوضع لا يستمر، وأخذ يعدد له الحكومات التي كانت تسقط بانقلابات العساكر الذين يوقفون القتال لبضعة أشهر ثم لا يلبثون أن يعودون إليه من جديد:

ربما أخذوهم إلى مجمعات سكنية قريبة من الثكنات العسكرية، بحيث يكونون تحت إشرافهم وسيطرتهم مباشرة أو أخذوهم إلى الجنوب ليتخلصوا منهم، لأن بقاء الناس في القرى يعني مساعدة البيشمركة الذين، كما تعلم، كانوا يدخلون القرى ليلا وينظمون منها الحملات ضد الثكنات العسكرية الحكومية.

قاطع الصبي الشيخ متسائلا ما إذا كان السيد العربي يعرف شيئا عن أخبار أهلهم، وأنهما يجب أن يزوراه في أقرب وقت ممكن، لأنه لم يعد يتحمل الانتظار بعد. طمأنه الشيخ بأنهما يمكن أن يسافرا إليه غدا، ولا شك أنه يملك المعلومات حول الوضع الجديد، إذ أنه كسيد عربي يثق به الجميع، وعدا ذلك يمكن استشارته ما إذا كانوا يتمكنون من البقاء في القرية دون خوف. وبهذا عادا من جديد إلى موضوع إقامتهم في القرية. تساءل الصبي فورا:

" لنفرض أن السيد حذرنا من البقاء في القرية وطلب منا أن نتركها فورا، فماذا يكون موقفنا؟"

أجاب الشيخ بلهجة واثقة:

" إذ ذاك يجب أن نترك القرية فورا"

" وننه؟ ماذا، إذا أصرت على البقاء؟"

وجه الشيخ السؤال إلى العجوز طالبا منها الجواب. أجابت العجوز أنها لا تستطيع أن تخالف كلام السيد العربي.

" ولكن الطريق طويل يا ننه، كيف تتمكنين من المشي؟"

أجابت العجوز بشيء من الاعتزاز:

" إذا طلب مني السيد ذلك، فإن الله سيمنحني القوة. أنا لا أدري، القرار بأيديكم أنتم الرجال، ولكنني لا أريد أن أترك هذا المكان. أحب أن أموت في بيتي"

كان المستقبل المجهول يثير فضول الصبي ويحرك في أعماقه الشوق للبحث عن أهله ومعرفة مصيرهم، إذ أنه منذ اللحظة التي فارق فيها أهله، أحس بنفسه كشجرة في مهب الريح، اجتثتها العواصف من جذورها.

ورغم أنه كان قد قرر المبيت في منزله، استجاب لإقتراح الشيخ بالمبيت عندهم. وظل متمددا في مكانه إلى أن غلبه النعاس. وأستكن الشيخ هو الآخر لسلطان النوم. وحين علمت العجوز أنهما ناما، فرشت لبادها جنب الحائط الذي يقسم الغرفة إلى قسمين واندست في فراشها.

٥

استيقظ الصبي مذعورا من حلمه الطويل المزعج الذي قضاه في مدينة كبيرة غريبة يطبق عليها الظلام الدامس. كان يبحث عن بيت ما، قيل له أن أهله يسكن هناك. كان يحمل العنوان الكامل في جيبه. وحين راح يبحث فيه لم يجده وتبين له أنه شبه عار لا يلبس سوى قميصا قصيرا يكاد لا يستر عورته. تذكر أنه ترك الصرة المحتوية على نقوده وملابسه عند صاحب المطعم السريع الذي تناول فيه أكلة خفيفة ثم هام على وجهه. وقفل راجعا يبحث عن المطعم، وبعد بحث طويل استغرق ساعات، عثر عليه، ولكنه كان فارغا ولم يجد صاحبه. كانت ثمة زاوية تحتوي على حقائب وصرر وأحذية، ائتمنها أصحابها هناك ريثما يعودون إليها في وقت آخر. وراح ينبش فيها باحثا عن صرته دون جدوى. ولم تهمه الملابس المفقودة بقدر اهتمامه بالعثور على العنوان الذي لا يمكنه بلوغ غايته بدونه، ثم تبين له أنه ترك هناك حذاءه أيضا، وراح يبحث عنه، وطال البحث بين أكوام الحقائب والصرر والأحذية. وفجأة خرج من مكان ما شاب بدا أنه يشتغل هناك، قال له أنه إذا لم يتمكن من العثور على حاجته، فيمكنه أن يختار له أي حقيبة أو زوج حذاء. وقال له الصبي أنه يحتاج إلى صرته هو لأنها تحتوي على عنوان البيت الذي يبحث عنه. أجابه الشاب كما لو أنه يعرفه بأن الشارع الذي يبحث عنه لا يوجد في هذه المدينة. ونصحه أن يذهب إلى زقاق يقع وراء البناية الضخمة المقابلة لهما وهناك يمكنه ركوب سيارة الأجرة التي تسافر يوميا إلى تلك المدينة وعليه أن يكون حذرا جدا ويتأكد مما يحمله، لأن هناك رقابة عسكرية صارمة في مدخل المدينة ثم نصحه الشاب أن يرتدي بنطلونا، يستر به عورته، وينتعل الحذاء، وإلا سيلقون عليه القبض ويأخذونه إلى مستشفى المجانين أو يلقون به في السجن. وساعده الشاب في البحث عن بنطلون وحذاء معقولين، وحين علق الصبي على ذلك، كونه عمل غير لائق ويعتبر سطوا على أموال الآخرين، ضحك الشاب مستهزئا من عقلية الصبي، وهو يقول، لا تكن غبيا يا بني، هنا يسطو كل واحد على أموال الآخر، وإلا أين هي صرتك؟ ألم يقل لك صاحب المطعم بأنه لا يتحمل مسؤولية ضياع أمانتك؟ أم أنك أنت نسيت ذلك. لم يتذكر الصبي شيئا من هذا القبيل. وربما قال صاحب المطعم شيئا،

ولكنه لم يفهمه أو لم ينتبه إليه. ولكن العنوان، أين هو؟ هل ينبغي عليه فعلا أن يذهب إلى المدينة الأخرى؟ وماذا يعني التأكد مما يحمله؟

ارتدى الصبي بنطلونا فضفاضا وانتعل زوج حذاء أكبر من مقاس رجليه، وقبل أن يهم بترك المطعم، سأل الشاب عن كيفية الوصول إلى الجانب الثاني من البناية الضخمة. شرح له الشاب الطريق الذي ينبغي عليه أن يسلكه. وجد الصبي نفسه فجأة واقفا أمام البناية الضخمة التي يحيط بها سور عال، لم يحسب له حساب. وحين أراد أن يسير حسب المواصفات التي شرحها له الشاب، تبين له أنه لن يصل إلى الجانب الثاني، إذ أن السور يمتد من الجانبين إلى ما لا نهاية. وكانت ثمة بوابة كبيرة بجناحين، شُدّا إلى بعضهما بسلسلة حديدية يربطهما قفل كبير. ولما كان موقف السيارة يقع وراء البوابة مباشرة، لذا رأى أن يتسلل من الخصاصة الواقعة بين جناحي البوابة. وبكل سهولة أصبح في الجانب الثاني. وجد نفسه في بناية هائلة بأقسام مختلفة وسراديب عميقة تربطها أعمدة وتتخللها أكوام من مواد إنشائية مختلفة مثل الأسمنت وقضبان حديدية وألواح خشبية وصخور بمختلف الأحجام. ووجد إلى جانب البنايات الحديثة التي لم يتم بناءها بعد، مجموعة من بنايات قديمة بقبب مبنية من الحجر والجص، تعود إلى عهود سحيقة في القدم وكانت تحتوي على منحوتات وتماثيل وآثار قديمة. ووجد في أحد سراديب إحدى هذه البنايات بئرا عميقا مليئا إلى منتصفه بالماء. وكانت ثمة خرائب وأطلال مبعثرة هنا وهناك، ولكنها كانت كلها مربوطة ببعضها البعض بممرات ضيقة. وسار الصبي في ممر، أعتقد أنه سيوصله إلى هدفه. وبعد مسيرة غير قصيرة في الطريق المظلم المحفوف بالأحجار والصخور والجدران المهدمة والتماثيل المتحطمة، وصل إلى بوابة، أعتقد أنها ستوصله إلى الجانب الآخر من البناية حيث موقف سيارة الأجرة المزعوم، فوجد أمامه سلّما يؤدي إلى الطوابق العليا وحين بلغ الطابق الثاني، انتهى السلم، وكان عليه أن يتسلق الجدار إلى حبل يوصله إلى الطابق الثالث. خيل إليه أنه انشغل بعملية التسلق طول الليل. وحين تمكن من بلوغ الطابق الثالث، وجد أمامه مجموعة طوابق بلا أرضية، بل بقضبان حديدية مرصوفة، لم يعرف ما إذا كانت معدة للبناء، أم أنها أطلال بناية مهدمة. وكان عليه أن ينزل بالحبل. وحين تمكن من الهبوط، ارتعب حين وجد أمامه رجلا مرعبا يحمل فانوسا وبندقية،

عرف منه أنه حارس المكان. قال له الرجل أنه محظوظ، ذلك أن قدره أنزله أمامه مباشرة، وإلا فإنه لو رآه من بعيد لأرداه قتيلا في الحال، لأن دخول هذا المكان ممنوع منعا باتا وعليه أن يترك البناية فورا. قال له الصبي أنه منذ الأزل يبحث عن مخرج يؤدي به إلى خارج هذا التيه. أجاب الرجل الذي يشبه المومياء:

" تعال معي يا بني، يبدو أنك ما زلت طفلا بريئا لم يعترك الحياة بعد. أنا أعرف ماذا تبحث، ولكن حذار أن تفتح فمك. إن من تبحث عنهم، أتوا بهم قبل يومين أو ثلاثة أيام. وبعد أيام سيواصلون رحلتهم إلى الصحراء"

فتح الحارس غطاء الكوة، طالبا من الصبي أن يلقي من خلالها نظرة سريعة إلى الداخل: رجال شبه عراة مربوطي الأيدي من الخلف بحبال وقيود حديدية ونساء عاريات يجرى اغتصابهن من قبل سكارى أمام أعين الرجال الذين يتلوون على الأرض مثل نعاج مذبوحة. حين تعرف الصبي على أخته بين النساء العاريات، فقد وعيه. ولم يعد إلى نفسه، إلا بعد أن استيقظ من نومه مذعورا.

ظل جالسا في فراشه يستعيد تفاصيل الحلم الغريب وهو يتصبب عرقا ويسمع دقات قلبه الرتيبة التي تخفق بشدة. كانت العجوز والشيخ يغطان في نوم عميق. مد يده إلى شربة الماء القريبة وأطفأ ظمأه. كان الظلام في الخارج دامسا. بدا له أن الوقت هو نفسه الذي داهموا فيه بيتهم وأخذوا أهله. وبدت له صورة أخته العارية واضحة جدا، وأما بقية أهله فلم يتعرف عليهم. أحس بالخجل مع نفسه، وهو يتساءل في داخله عن مغزى الحلم الذي لا شك يتمكن الشيخ أو السيد من تأويله، ولكن كيف يروي لهم ما رآه بخصوص أخته؟ وراح يعتقد في قرارة نفسه أنه كان هناك فعلا، وأنه لم يحلم. كلا، أبدا. أنه كان هناك فعلا، ويستطيع أن يثبت ذلك لكل من الشيخ والسيد، بل ولكل إنسان آخر. أراد أن يصرخ وينبه الشيخ كي يستيقظ، ولكن لسانه لم يسعفه. اعتقد أنه أصيب بالشلل التام وحين حاول القيام، تمكن من ذلك، فأتجه إلى الباب تاركا الغرفة إلى الفناء بعد أن حمل بندقيته.

كانت ملايين النجوم تشتعل في السماء مثل الشموع وتغمر القرية في ضياء حليبي أبيض لم يعهد به من قبل. وثمة شلالات ضوئية تنبعث من البيوت بإتجاهات مختلفة، تتقاطع مع بعضها وهي تنطح السماء لتتلاشى في أعماقها اللانهائية. أراد أن ينادي

على الشيخ للمرة الثانية كي يريه هذا المهرجان الضوئي، ولكن لسانه لم يسعفه هذه المرة أيضا. صعد السلم إلى السطح ليتأكد ما إذا كانت الأضواء تصدر من البيوت فعلا. كانت القرية أشبه بجزيرة ضوئية يحيط بها الظلام الدامس من كل الجهات. هبط السلم إلى الفناء. قادته قدماه بلا إرادة منه إلى الزريبة ليلقي نظرة على العنزات، فوجد أمامه ذئبا يحاول فتح الباب الخشبي الموصد، وعندما أنتبه الذئب إليه وسمع قرقعة البندقية، ولى هاربا وعيناه تبثان عمودين من الضوء الأحمر. كان بإمكانه قتله، بيد أنه كان لا يستهدف ذلك، خوفا من المشاكل التي قد يثيرها دوي الطلقة. كانت العنزات لا تزال مذعورة وتركض في أنحاء الزريبة المغمورة بالضوء الحليبي، باحثة عن ركن يحميها من هجمة الذئب الذي كانت رائحته المشحونة بالدم لا تزال تملأ الجو. وحين طغت رائحة الصبي على فضاء الزريبة، هدأت العنزات. ترك الزريبة وأحكم مزلاج الباب خوفا من أن يعود الذئب من جديد. وحين أصبح في فناء الدار، وجد نورا قويا ساطعا ينبعث من الغرفة التي يسكن فيها مع العجوز والشيخ، والتي سبق له أن تركها مظلمة قبل قليل. رجع إلى الغرفة ليتأكد ما إذا كانت العجوز والشيخ ما زالا نائمين. وحين وطأ عتبة الباب، فوجئ بأفراد العائلة نائمين في أنحاء الغرفة. ولما التفت إلى فراشه، وجده مشغولا من قبل الحفيد الأكبر للشيخ. ترى، هل أنه يحلم؟ مستحيل! قال ذلك في نفسه وهو لا يزال يشك في أنه مستيقظ. وفكر أنه قبل قليل استيقظ من نومه مذعورا من الكابوس الثقيل وشرب الماء وصعد إلى السطح ورأى الذئب الذي كاد أن يقتله بطلقة من بندقيته. كلا، إنه لا يحلم. إنهم لا شك قد عادوا دون أن يحس بهم، وأن أهله قد عادوا أيضا. ولكن ما قصة هذا النور الذي يملأ الكون؟ ترك الغرفة بخفة كي لا يزعجهم ووجد كلبهم راقدا في منتصف الفناء قرب البئر وهو يحدق فيه بعينين لامعتين. ورغم كونه غريبا عن الدار، فإنه لم ينبح، بل ظل يتابعه بنظرات أليفة إلى أن أجتاز الباب الخارجي وهو ينوي الذهاب إلى منزلهم ليتأكد من وصول أهله. وفي الطريق صادف بعض الكلاب الأليفة وهي تحرس أبواب أصحابها، كما وصادف راعيا يقود أغنامه إلى خارج القرية. ولما سأله عن كيفية عودتهم، لم يلتفت إليه، بل ظل سائرا كدمية بيضاء تتبعه سحابة من الأغنام بلون الحليب. أراد أن يدخل أحد البيوت التي مر بها، كي يتأكد من عودة أصحابه، ولكنه لم يتمكن من فتح الباب، بالإضافة إلى أن الكلب كاد أن يهجم عليه، لولا أنه ابتعد بسرعة عن الباب، ولكنه اقتنع بأن أهل البيت

قد عادوا. وملأته نشوة غريبة لقرب استقباله لأهله. لو كان الشيخ معه لتمكن أن يسأله عن الوقت، بل وتمكن أن يخبره متى ستشرق الشمس. وحين التفت صوب الشرق، لمح الخط الأبيض وهو يشق الظلام الدامس. إنه الفجر إذن، نفس الوقت الذي قامت فيه القيامة وجاءوا كي يفتحوا أبواب الجحيم ويسلطوا النار على القرية وأهلها، عندما هدموا بيتهم وأخذوا أهله بعد أن أشبعوهم ضربا بالركلات وأخامص البنادق. وها أن أهله يعودون في نفس الوقت. ولا شك أنهم الآن نائمون وأحس بأن نشوته تدفعه إلى أن يطير بعيدا في أعماق السماء. إنه سوف يكون حذرا عند فتح الباب ويتسلل إلى الغرفة دون أن يزعجهم في نومهم العميق بعد الرحلة التي كانت بلا شك متعبة جدا.

ترى، ماذا سيقولون حين يستيقظون من نومهم ولا يعثرون عليه؟ لا شك أنهم ستساورهم أنوا ع الأفكار السوداوية حول مصير ابنهم الذي فلت من قبضة العساكر المدججين بأنوا ع الأسلحة، ولكنهم حين يلقون نظرة على كراج التراكتور، سيتأكدون بأنه حي يرزق وأنه لا شك في طريقه لإنجاز شغل ما. وأنه سيأتي عاجلا أم آجلا. وراح يسرع من خطاه وهو يكاد يسمع دقات قلبه. ومما لفت انتباهه في الطريق هو زوال الأنقاض وعدم وجود أي بناية مهدمة. كان كل شيء على وضعه القديم. وحين وصل بيتهم، رأى كل شيء على حاله القديمة أيضا. فتح الباب غير الموصد بسهولة، وفي الفناء وجد الغنم والحيوانات الأخرى كلها منتشرة كالعادة واقفة وراقدة. ورأى التراكتور في موضعه القديم في الكراج. وثمة نور قوي ينبعث من غرفة السكن الكبيرة. والسكون يطبق على كل شيء والنور يغمر الكون. تسلل بخطوات حذرة إلى داخل غرفة السكن. كان كل فرد من أفراد العائلة نائم في المكان المخصص له كالعادة. بحث عن أخته التي حلم بها، فلم يجدها، ولكنه سرعان ما وجدها وهي نائمة في زاوية أخرى غير مكانها المعتاد.

" إنه تعب الرحلة الطويلة، ولكن لماذا أخذوهم بذلك الشكل؟ وكيف عادوا؟ ترى، هل أخذوهم خطأ؟ كل شيء ممكن"

قال ذلك وهو يترك الغرفة بخطوات حذرة كي لا يزعجهم في نومهم العميق، متوجها إلى الكراج للتأكد مما بناه هناك مع الشيخ. وجده على وضعه القديم كأن أحدا لم يمسه. غريب وعجيب، هل أنه يحلم الآن؟ أم أن ما حصل من مداهمة وضرب وتخريب

ومعايشة مع الشيخ وزوجته العجوز، كلها هي التي حلم بها؟ إنه لمن المستحيل أن يكون قد حلم بحياته مع الشيخ. كما وأنه من المستحيل أيضا أنه يحلم الآن. إن وجود العنزات في زريبة الشيخ أكبر دليل على أنه لا يحلم. وتوجه إلى الزريبة ليتأكد من إنه نقل العنزات فعلا إلى زريبة الشيخ، عند ذلك يمكنه أن يستنتج ما إذا كان يحلم أم لا؟

ها أنه يقف مرة أخرى أمام نفس الذئب الذي كاد أن يقتله قبل قليل وهو يحاول فتح باب الزريبة. أراد هذه المرة أن يقتله فعلا، بيد أنه فكر أن الدوي سيكون باعثا على إيقاظ النائمين المتعبين، سواء من أهله أم من العائدين الآخرين. وحين اقترب من الذئب، محاولا ضربه بأخمص البندقية، ولى هاربا وعيناه تبعثان عمودين من الضوء الأحمر.

سمع صوتا يقول له أنه حسنا فعل بعدم قتل الذئب، ذلك أنه ذئب مقدس، ثم فتح الباب ودخل الزريبة ووجد العنزات الثلاث في حالة ارتباك شديد. تساءل بصوت عال:

" من جلبكن إلى هنا؟"

جاءه جواب، تيقن بأن الذي نطق به هو إحدى العنزات:

" أنت جلبتنا إلى هنا"

أحس الصبي بأن قوة ما، خفية تجره إلى الأرض، تجره من يديه وقدميه ثم تدور به بسرعة خارقة. أراد أن يبقى واقفا، ولكنه لم يتمكن فكب في مكانه ملتصقا بالأرض.

٦

كانت أشعة الشمس تتسرب من خلال خصاص الباب إلى داخل الغرفة، حين استيقظ الشيخ من نومته الثانية. وكانت العجوز قد استيقظت قبله، متخذة مكانها قبالة الموقد، تنتظر أن يغلي الماء في الإبريق الموضوع على النار، كي تعد شاي الفطور وهي تبكي بصمت وتفكر في مصير أهلها. وبعد أن أنهى الشيخ مراسيم الوضوء في الفناء، أدى صلاة الصبح في الغرفة. ثم قام من مكانه ليبحث عن كيس التبغ الذي يحتوي على الولاعة وورق اللف. وكان أن ألقى نظرة عفوية على الزاوية المعتمة التي ينام فيها الصبي، فبدا له كما لو أنه غير موجود في فراشه، فاقترب أكثر ليتأكد من الأمر فلم يجده. ومد يده رافعا اللحاف، فلم يجد الصبي. وبحث عن البندقية التي يضعها الصبي عادة إلى جانبه، فلم يجدها أيضا. التفت بحركة لا إرادية إلى العجوز صائحا بصوت عال ومنفعل:

"ريحان، هل رأيت الصبي؟ إنه غير موجود في فراشه"

قامت العجوز من مكانها كما لو أنها تريد أن تتأكد بنفسها من الأمر، قائلة:

"ربما ذهب لقضاء حاجة"

"والبندقية؟ ما حاجته بها عند قضاء الحاجة؟"

وراحت العجوز تولول وهي تارة تضرب كفاً بكف وأخرى ترفعهما إلى السماء:

"أين هو، أين هو؟ لقد تركنا لوحدنا وهرب، الله وحده يعلم إلى أين؟ احرسه يا غوث، يا شيخ عبد القادر الكيلاني".

نهر الشيخ العجوز وطلب منها أن تهدأ وترك الغرفة مسرعا إلى الفناء وهو يبحث عنه في كل مكان دون جدوى. قالت العجوز التي تبعت الشيخ إلى الفناء أنها تعتقد بأنه ذهب إلى بيتهم لإلقاء نظرة عليه، ولا سيما أن هناك عدة دجاجات أخرى.

"أبق أنت هنا، سأبحث عنه هناك"

كان ما يخشاه الشيخ هو أن يكون الصبي قد ترك القرية ليلا إلى السيد أو إلى أي

جهة أخرى، فيكون بذلك فريسة سهلة للوقوع بأيدي العساكر الرابضين في الربايا المحيطة بالمنطقة وبذلك يكون مصيره الموت المحقق، ولاسيما إذا مسكوا عنده البندقية، إذ أن هؤلاء الأوباش لا يفرقون بين الصغير والكبير. عندما بلغ البيت، توجه مباشرة إلى الكراج، فلم يجده وبعد أن مرَّ بحظيرة الدجاج، ذهب إلى زريبة الأغنام. كان الباب مفتوحا. قال في نفسه أنه إذا لم يجده هنا، فلن يعثر عليه إلى الأبد. كان الصبي ممددا على الأرض بلا حراك وإلى جانبه بندقيته. تذكر الشيخ اللحظة التي عثر فيها عليه لأول مرة قبل أيام: إنه يتنفس، ولكن وجهه شاحب شحوب الموتى، الصبي إذن تلقى ضربة قوية من الجن، هذه الضربة أقوى من الضربة الأولى. هدأ الشيخ بعض الشيء، ولاسيما بعد أن تأكد بأنه يتنفس بانتظام. وراح يهزه برفق إلى أن فتح عينيه بصعوبة، وبدتا مثل كرتين زجاجيتين مبللتين:

"حاول أن تقوم يا بني، يا كامه، قل بسم الله الرحمن الرحيم، وستقوم بقدرة قادر"

كان الصبي قد عاد إلى رشده منذ فترة غير قصيرة، بيد أن الكوابيس التي داهمته كانت تشل حركته وتمنعه من القيام في مكانه. إنه كان بحاجة إلى قوة خارجية تساعده في التحرك والقيام في مكانه. وتمكن بمعونة الشيخ أن يقف ويخطو خطوات وئيدة. ورغم سيره جنبا إلى جنب مع الشيخ الذي حمل بندقيته، لاحظ هذا أنه يهذي. وتركه في استرساله دون أن يعلق. وراح الصبي يتحدث، على غير عادته، بصورة متواصلة ويتطرق إلى مواضيع غير مترابطة ثم سأله، وهما ما زالا في طريقهما إلى بيت الشيخ، عن سبب إرجاعه العنزات إلى بيت أهله:

"العنزات موجودة عندنا في الزريبة يا بني، يا كامه. وستراها بأم عينك حين نبلغ البيت"

قال الصبي بلهجة صارمة:

"هل تعتقد إنني أهذي يا جد؟ العنزات رأيتها بنفسي في بيتنا مثلما رأيت أفراد أهلي وأهلك العائدين، حتى أنني لم أقتل الذئب، كي لا أزعجهم في نومهم العميق بدوي الاطلاقة".

رأى الشيخ أن السفر إلى السيد أصبح أمرا ضروريا لا يقبل التأجيل، وقرر في نفسه أن يبدأ بذلك بعد تناول طعام الفطور مباشرة دون انتظار الليل، وليكن ما يكون،

فإن صحة الصبي أهم من كل شيء آخر. وإذا صادف أن قابلا في الطريق بعض العساكر، فإنهم لاشك حين يرونه سيقتنعون بأنه قد أصابته ضربة جن، وأنه سيقنعهم بأنهما في طريقهما إلى السيد كي يعالجه.

حين بلغا البيت، هرع الصبي إلى الزريبة وسرعان ما عاد إلى الشيخ ليقول له بأن هذه المخلوقات الثلاث إنما شياطين في هيئة عنزات. بعد تناول طعام الفطور، طلب الشيخ من العجوز أن تسلق عدة بيضات للطريق. وكان الصبي سعيدا جدا لسفرهما المفاجئ، وبدا من حركاته التي تنم عن الفرح العميق، كما لو أنه أنهى مدة محكوميته وهو في طريقه إلى عالم الانعتاق. وعند توديع العجوز قال الشيخ أنه في كل الأحوال سيعود غدا إنشاء الله، وربما سيبقى الصبي عند السيد لعدة أيام. ولم يخف الصبي فرحته عندما علم بأنه سيبقى عند السيد للشفاء، إذ أنه أدرك بأن وضعه غير طبيعي. وهو يعرف أن السيد هو الملاذ الذي يلتجئ إليه الجميع بدون تردد. ورغم شعوره ذاك، كان لا يتمكن من السيطرة على حركاته وكلماته غير الموزونة. ومما زاد من بؤس تفكيره المشتت، تداخل الكوابيس والأحلام مع هلوسته ورؤيته لمخلوقات غريبة وسماعه لأصوات لا مصدر لها، حين يكون لوحده. أما إذا أصبح على مقربة من الشيخ، فتعود إليه حالته الطبيعية.

كانت شمس نهاية آذار تبعث الدفء وتمنح لون الربيع الأخضر الباهت قوة وحيوية. وسارا بإتجاه قرية السيد وهما يجيلان بصرهما في الآفاق اللانهائية كما لو أنهما يحاولان العثور على نقطة ما تهديهما إلى هدفهما أو تغير اتجاههما. سارا فترة غير قصيرة دون أن يفتح أحدهما فمه. وحين أصبحا في ملتقى طريقين، وقف الشيخ وهو يلتفت إلى الاتجاهين. قال دون أن يلتفت إلى الصبي:

" هذا الطريق المؤدي إلى اليمين، طويل ومضمون، ولكن ليس دائما، وأما هذا المؤدي إلى اليسار، فقصير ولكنه خطر، لأنه يمر بالربايا العسكرية، فأيهما نسلك؟"

قال الصبي بعفوية:

" نحن ليست لنا نوايا سيئة ضد الربايا، فلماذا نخاف منهم؟ لنسلك هذا الطريق القصير"

لم يعترض الشيخ على كلام الصبي، وذلك اعتمادا على المقولة "خذ الحكمة من فم

المجنون" وواصلا سيرهما. بعد مسيرة استغرقت أكثر من ساعتين، وصلا إلى سفح تل تعلوه ربية مبنية من لبن الطين المجفف في الشمس والأحجار. وراحا يتعمدان المشي ببطء كي لا يثيرا الشكوك، وهما يتوقعان أن ينادى عليهما في أي لحظة. قطعا المسافة الخطرة، دون أن يسألهما أحد وتنفسا الصعداء. وراحا يتناقشان في سبب عدم الانتباه إليهما. وكانت الأسباب كثيرة: عدم وجود أحد في الربيه. انشغالهم بالحديث مع بعضهم. تأكدهم من عدم وجود خطر. استسلامهم للنوم. عدم أخذهما بالجد، شيخ طاعن في السن وصبي هزيل ماذا يمكنهما أن يفعلا تجاه ربية محصنة؟

" هل رأيت يا جد؟ ألم أكن على صواب؟"

" طبعا يا بني، يا كامه، لذلك وافقت على رأيك فورا"

وبعد مسيرة غير قصيرة، بدت لهما القرية من بعيد. إذ ذاك أخذا قسطا من الراحة، تناولا خلاله زادهما، علق الشيخ على حماقة أهل القرية الذين كانوا يتفادون المرور من هذا الطريق معتقدين وجود عدة ربايا، وسالكين الطريق الطويل خوفا من بطش العساكر، في حين لم تكن الربيّة المزعومة، سوى وهما:

" أجل، إنه الخوف الذي يجعل الإنسان يتصور جحر الفأرة كما لو أنه مغارة"

" ولكن الوضع قبل حرق القرى كان يختلف يا بابا"

هز الشيخ رأسه موافقا:

" كلامك صحيح يا بني، يا كامه. كان الوضع قبل التهجير يختلف"

كانت الشمس قد بلغت كبد السماء حين وصلا القرية. وكانت العادة الجارية في القرى أن أي غريب يقترب منها، تبدأ الكلاب بالنباح والهجوم عليه وربما تتحول الكلاب الهائجة إلى خطر جدي إذا لم يتقدم أحد من أهل القرية وينهرها. إن وجود الكلاب يعني وجود الحياة والحركة في القرية. وها هما يدخلان القرية بدون كلاب تنبح أو حمار ينهق أو رجل فضولي يلتفت إليهما أو طفل يلعب بالتراب. الصمت يطبق على كل شيء والبيوت متهدمة وليس هناك بشر. قال الشيخ بحسرة:

" قريتنا إذن ليست وحدها التي خربوها ورحّلوا أهلها يا بني، يا كامه"

لم ينتبه الصبي إلى كلامه، إذ أنه كان مشغولا بالتفكير في المدينة التي كانت تتراءى

له من بعيد وهي راقدة في سفح الجبل الذي يمتد في سلسلة طويلة من الجانبين، وحيث الطريق العام المبلط الموازي له يلمع تحت أشعة الشمس كما لو أنه ثعبان أسطوري.

وراحا يمشيان بين الأنقاض والخرائب وهما يسلكان الطريق العام المؤدي إلى وسط القرية. وكان الشيخ يقف بين فينة وأخرى أمام أحد البيوت المهدمة التي يعرف صاحبها، فيذكر اسمه وأسم العائلة التي ينتسب إليها مكررا: " الله ينتقم منهم، الله ينتقم منهم.."

وفجأة رأيا إمرأة لا تتجاوز الخامسة والعشرين جالسة على دكة، تحتضن بيديها صرة صفراء كبيرة، تميل بوجهها الجميل إلى الأسفل وتحدق في الأرض وتبدو كما لو أنها تنتظر أحدا. وظلا يراقبانها إلى أن اقتربا منها، دون أن تأتي بحركة أو تلتفت إليهما، حتى بإلتفاتة سريعة وعفوية. كانت تبدو كتمثال منحوت منذ الأزل. أو تبدو كما لو أنها ميّتة ومتصلبة أو متحجرة في مكانها، ولكن محتفظة بجمالها ونضارتها. وقفا أمامها ينظران إلى بعضهما باستغراب، متوقعين أن تلتفت إليهما كي يسألاها عن قصتها أو عن كيفية الوصول إلى بيت السيد، ولكن دون جدوى. وظلا هكذا هنيهة، إلى أن أشر الصبي إلى الشيخ بحركة من عينيه أن يكلمها. انحنى الشيخ عليها قائلا بلطف:

" بنتي، هل يمكنك أن تقولي لنا كيف نصل إلى بيت السيد العربي؟"

عندما سمعت المرأة أسم السيد تغيَّرت ملامح وجهها وبدت متفتحة وأكثر جمالا ثم رفعت عينيها المطرزتين بأهداب طويلة سوداء وألقت عليهما نظرة استطلاعية سريعة وبعد صمت قصير قالت:

" في نهاية هذا الطريق، إنه يسكن في خيمة. ماؤه بارد دائما"

" ولكن، لماذا أنت جالسة هنا بين هذه الأنقاض، هل تنتظرين أحدا؟"

أجابت بصوت هادئ رقيق:

" أجل، أنتظر خطيبي"

" وأين هو خطيبك؟"

" لا أدري، ولكنه يبحث عني. إنه سيأتي. إنني ذهبت مع والدتي وأختي إلى المدينة

لشراء جهاز العرس. هذا هو الجهاز داخل هذه الصرة، اشتريناه كاملة بعد أن أعلنّا الخطبة، وحين رجعنا، لم نجده. قالوا أخذوه، ولكنني أعرف أنه سيرجع"

" وأين أمك وأختك؟"

" لا أدري، إنهما ذهبتا للبحث عن أبي وإخواني"

أدرك الشيخ أن المرأة بحاجة إلى مساعدة وقرر أن يأخذها معه مهما كلف الأمر، قال برجاء:

" نحن لن نتمكن من العثور على مسكن السيد يا بنتي بين هذه الخرائب، أرجو أن ترافقينا إلى هناك"

قالت وهي تقوم من مكانها بحركة سريعة متأبطة صرتها:

" سأريكما الخيمة وأشرب جرعة ماء عند السيد ثم أعود إلى هنا، أخشى أن يأتي خطيبي ولم يجدني"

كان الشيخ قد سبق له أن التقى بالسيد عدة مرات وفي مناسبات مختلفة، معظمها يتعلق بشفاء المرضى الذين ضربهم الجن من أقاربه أو من معارفه. وكان المريض يبقى عادة عند السيد لمدة أسبوع أو أكثر وذلك حسب حدة مرضه، كما ويعامل أيضا في ضوء تصرفه، فإن كان هادئا يبقى يعاون السيد في البيت ويخدم الضيوف ويتناول معه طعاما غير دسم لثلاث مرات في اليوم. وأما إذا كان المريض شرسا وعدوانيا، فكان يهدئه بضربه وتقييده بسلسلة حديدية فربطه بخازوق مثبت في الأرض، كأي حيوان. ومن الغريب أن المرضى يخافون منه ويرضخون له دون أي مقاومة. وكانت الهدية تأتي عادة بعد شفاء المريض. وعند إطلاق المريض، يتسلم منه أدعية محفوظة داخل قماش أخضر على شكل مثلث، يحفظها في أماكن أمينة من ملابسه.

ويتذكر الشيخ بأن السيد كان يسكن في بيت كبير مبني باللبن المجفف في الشمس، شأنه كشأن الفلاحين الآخرين، وأنه لم يسبق له أن رأى هذه الخيمة السوداء التي حين اقتربوا منها، خرج منها السيد وهو يراقبهم بفضول. وعندما أصبحوا على مقربة منه، عرفه فورا وراح يناديه باسمه وهو يعانقه:

" الحمد لله على السلامة يا شيخ رمضان، الحمد لله"

ورحب السيد بالصبي الذي مسح رأسه مدمدما بكلمات غير مفهومة ثم التفت إلى الفتاة قائلا:

" خلف الله عليك يا بنتي. إنشاء الله جلبت الخير معك. الحرمة تنتظرك"

إذ ذاك جاءت زوجة السيد خارجة من وراء حصير القصب الذي يقسم الخيمة إلى قسمين ورحبت بالحاضرين ثم عانقت الفتاة وأخذتها معها إلى هناك. صبَّ السيد، الذي لا يقل سنا عن الشيخ، ثلاثة فناجين قهوة. وقبل أن يتم ارتشافها، جاءت الفتاة بطاسة ماء وقدمتها للشيخ الذي ناولها بدوره للصبي قائلا:

" الماء أولا للصغير"

فتح الشيخ باب الحديث متسائلا عن سبب كون السيد يعيش في الخيمة وأنه يتذكر بأنه في آخر زيارة له وجده في بيت اعتيادي مريح، فلماذا استبدل البيت الثابت بالخيمة. طرح الشيخ تساؤله ذاك، رغم رؤيته لبيت السيد المتهدم القريب من الخيمة:

" إنه آخر زمان يا شيخ رمضان، إن ما فعله هؤلاء لم يفعله حتى قوم الفرمسون، لقد هدموا حتى بيتي أنا، حفيد الرسول وهددوني بالقتل إن لم أترك القرية. وحلفت بروح النبي بأنني والعجوز لن نخرج من هذه القرية، إلا ونحن ميتين، وكان أن جلب لنا أولاد عمي هذه الخيمة، لأنهم يعرفون بأنني لا أحلف هباء. الله ينتقم منهم وهو قادر على كل شئ"، وراح يصف بالتفصيل كيف أن الأوباش جاءوا تحت جنح الظلام وأخذوا الناس عنوة إلى حيث لا يعلم إلا الله وخربوا البيوت. وحكى له الشيخ نفس القصة التي جرت معهم وكيف أنقذه ضابط شاب من الموت المحقق وتخلص منهم هذا الصبي، الذي مازال يعاني الصدمة، عن طريق الصدفة. ويبدو أنهما كانا مشتاقين للكلام، وبعد استفاضة في الحديث، استنتجا أن هذه العملية، التي سموها بالإجرامية قد شملت كل المنطقة وليست قرى معينة. وأن العيش في هذه القرى غير مضمون، ولذلك عليهما التفكير بجد في مصير هذا الصبي والفتاة الشابة. وأما هم، الشيخ والسيد وعجوزاهما، فهم بين قاب قوسين أو أدنى من الموت. أبدى الشيخ استعداده لأخذ الفتاة كي تعيش معهم في قريته، حيث الخبز واللبن متوفران عندهم، والمكان هناك آمن، إذ لا يمر أحد بقريتهم، بخلاف مسكن السيد هنا، القريب من المدينة، والذي لا يخلو من الزيارات المفاجئة الكثيرة. استحسن السيد الفكرة، ولكنه وجد أنه من المستحسن

أن يأخذها بعد أسبوع، إلى أن تتحسن صحتها كليا. ومشكلتها أنها لا تثبت في مكان، بل تتنقل للبحث عن خطيبها المزعوم الذي ربما لن يعود إلى الأبد. وإنها كفتاة شابة وجميلة يخشى عليها فالعساكر الموجودون في الربايا القريبة، أشرس من الذئاب. وأكد السيد أن الهم الوحيد الذي يقلقه هو مصير هذه الفتاة. إنها تتجول في النهار وتنام عندهم في الخيمة. ولكن يا ترى، هل تقبل هي أن تذهب معه؟ أو معهما؟ إن وضعها قد تحسن كثيرا، ولكنها مازالت تعاني من الصدمة. ومن حسن الحظ إنها تنقاد بسرعة وتسمع كلام السيد.

وحين أرادا بحث موضوع الصبي، طلب الشيخ منه أن يخرج إلى خارج الخيمة، كي يتشاورا في غيابه، بيد أن السيد منعه من ذلك طالبا منه أن يبقى جالسا ويشاركهما الحديث، إذ أنه هو الضحية وليس غيره. وبعد أن استرسل الشيخ في حكاية الصبي، طلب السيد من هذا أن يحدثه عما سمع ورأى. قال الصبي أنه منذ اللحظة الأولى التي دفعته يد خفية إلى خارج دائرة الضوء وأخفى نفسه وراء حظيرة الدجاج، أحس بلطمة قوية على رأسه، دون أن يرى أحدا، وحولت اللطمة الليل إلى نهار ثم نام وحين فتح عينيه رأى الجد واقفا على رأسه. ولولا الشريط الذي أعطاه الجد للفه على يديه لما تمكن من القيام في مكانه. وبعد أن تحدث عن الكابوس، أقسم بالقرآن الكريم بأنه لم يكن نائما حين رأى أهله وأهل الجد وهم في فراشهم. قال السيد بلهجة واثقة وصرامة:

" لقد أخطأ الجن يا وليدي، إنه كان قد جاء لضرب الأوباش، ولكن ضربته جاءتك خطأً رغما عنه، ربما كانت الضربة خيرا لك، عسى أن تكرهوا شيئا فهو خير لكم. وماذا رأيت بعد يا وليدي، حدثني عن كل شيء؟"

قال الصبي كالحالم:

" رأيت النور يغمر كل شيء والنجوم تشتعل"

هزّ السيد رأسه كما لو أنه عالم بكل شيء وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وقال:

" إنه نور الله يا وليدي، لا يراه سوى الأبرياء الطاهرين، سيكون الله في عونك دائما. حسنا فعلت يا شيخ رمضان بجلبه إليّ بسرعة. إنه يحتاج إلى أسبوع واحد فقط للبقاء عندنا، وبعد ذلك سينتهي كل شيء، ولكن أنتبه يا وليدي وكن حذرا دائما. إذا وجدت،

خلال إقامتك عندنا، غريبا من بعيد، أركض بسرعة إلى الخيمة وأخف نفسك وراء هذا الحصير، إن العجوز ستساعدك في الإخفاء عن الأنظار، هل فهمت؟"

أجاب الصبي وهو يحرك رأسه بأدب: " نعم يا سيد"

أراد الشيخ أن يرجع في نفس اليوم، بيد أن السيد منعه من ذلك بسبب تأخر الوقت وجنوح الشمس إلى المغيب وقدوم الليل الذي يجلب معه مخاطر الإنس والجن. وبقي الشيخ على أن يرجع غدا بعد تناول طعام الفطور. وعندما آن أوان العشاء مع حلول الظلام، جلبت الفتاة صحنا يحتوي على حساء العصيدة مع الزبد. أعتذر السيد لعدم وجود طعام أحسن مما هو موجود وأن البحبوحة في العيش رحلت هي الأخرى مع أهالي القرية، ولكن إنشاء الله سيعود الكل بسلامة وتعود البحبوحة معهم أيضا والله قادر على كل شئ. وبعد أن استرسل في ذكر الفوائد الصحية للعصيدة، قال أنها يجب أن تقدم للصبي والفتاة بدون زبد، كي لا يعود إليهما الجن الذي لا يشبع من هذه المادة. وضعت الفتاة الصحن على قطعة النايلون المفروشة على الأرض مع عدة أقراص خبز الصاج ثم التفتت إلى الصبي وطلبت منه أن ترافقه إلى المطبخ وراء الحصير كي يتناولا معا طعام العشاء الذي أعد خصيصا لهما. وقفز الصبي من مكانه بفرح ظاهر، دون أن يتوقع مثل هذا الطلب الذي ارتاح إليه. وأعلمت الفتاة الصبي متباهية، بأن حصتهما قد طبخت في قدر خاص وأن العجوز تضيف إليه عادة ماءا مغليا مع ورقة عليها كتابة صفراء. ولاحظ الشيخ أنه منذ وجوده هنا قد حصل تغييرا ملحوظا عند الفتاة التي تخلصت من حركاتها المتصلبة وجمودها. وحين عبّر عن ذلك للسيد أجاب بـ"أحسنت" ثم علق قائلا أنها بحاجة إلى حرارة الأهل والعائلة. ولاشك أنها ستجد هذا الشيء في منزل الشيخ رمضان.

وبعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، اتخذت العجوز مكانها في مجلس الرجال وعاد الصبي إلى مكانه وأشعلت الفتاة اللمبة الزيتية ثم جلبت أدوات الشاي متخذة مكانها بالقرب من الشيخ. عندما وزع الصبي أقداح الشاي على الحاضرين، قال السيد متباهيا:

" هل رأيت يا شيخ رمضان؟ نحن عائلة واحدة. كل من يدخل هذا البيت، يكون واحدا منه"

وتمنى الشيخ كل البركة والخير للخيمة وساكنيها.

خرج الصبي لقضاء حاجة في الهواء الطلق، وقبل أن يعود إلى الخيمة أنتبه لشعاع ضوء بعيد يخترق حجب الظلام الدامس، فهرع بسرعة وأخبر السيد بالأمر.

علق السيد بتذمر:

" أولاد الكلب، لا يتركوننا نعيش براحة. إنهم شرطة، يزعمون بأنهم يبحثون عن المهربين"

أبدى الشيخ قلقه ومخاوفه على الصبي والفتاة واقترح أن يختفيا في أحد البيوت الخربة ريثما يرجعون إلى حيث أتوا. طمأنه السيد بكل ثقة بأن لا خطر عليهما طالما أنهما في خيمته. إن اختفاءهما في مكان آخر سيعرضهما للخطر، الحل بسيط جدا وهو عندما تقترب السيارة من الخيمة، تنتقل الفتاة والصبي إلى الجانب الآخر من الحصير. وأما بالنسبة إلى الشيخ، فأقترح السيد أن لا يفتح فمه، بل يظل متمددا في مكانه ينشغل بمسبحته دون أن يلتفت إليهم. استحسن الشيخ اقتراح السيد، قائلا:

" بارك الله فيك يا سيد، أعتقد أنها نفس سيارة الجيب التي مرت بقريتنا قبل يومين"

قال السيد بتذمر: " نعم، إنهم يأتون بسيارة جيب، تصور يا شيخ رمضان، إنهم يريدون أن أصبح عينا لهم، أخبرهم عما يجري في المنطقة، وكأن المنطقة مليئة بالبشر. أوباش كانوا قبل مجئ الجيش وتفريغ المنطقة من الناس، لا يتجرأون على الاقتراب من هنا، حتى أنهم كانوا لا يعبرون الطريق العام إلى الجانب الثاني، ولكن، الله كريم"

حين اقتربت السيارة من الخيمة، انتقلت الفتاة والصبي إلى الجانب الثاني من الحصير وتمدد الشيخ في مكانه حسب طلب السيد. وخرج السيد لاستقبالهم. كانوا خمسة رجال، مفوض شرطة وثلاثة أفراد شرطة وسائق. رحب بهم السيد وطلب منهم بلهجة روتينية أن يستريحوا، بيد أن مفوض الشرطة ظل واقفا أمام الخيمة، شاكرا إياه وقائلا بأنهم يقومون بجولة روتينية سريعة وسأله ما إذا رأى هذا اليوم رجلا أخفى نفسه بملابس نسائية، إنه شخص خطير يعمل جاسوسا للمتمردين. قال السيد بسخرية:

" ما ظل أحد بالمنطقة يا أولادي؟ واحد يتجسس عالجبال؟"

قال مفوض الشرطة بلهجة فيها خوف كامن:

" المتمردون مثل الذئاب يا سيد، لا تعرف من أين تظهر آذانها ومتى تهجم. على كل حال، إذا رأيت أي شخص في المنطقة ومهما كان، عليك أن تخبرنا. المسافة من هنا إلى المدينة ليست طويلة".

عندما نطق مفوض الشرطة الجملة الأخيرة، عثرت يد الصبي بيد الفتاة، فمسكها بصورة عفوية دون أن تسحبها هي، وأحس بها باردة، مرتجفة. وهمس في أذنها بأن لا تخاف وطمأنها بأنهم سيرجعون إلى حيث أتوا، دون أن يدخلوا الخيمة. ومخافة أن يسمع أحد همسه، وضعت يدها على فمه برقة ثم أطبقت شفتيها على أذنه وهمست بصوت يكاد لا يسمع:

" لا تتكلم"

أحس الصبي بأنفاسها الحارة المتقطعة تتسرب بخدر إلى أعصابه المتوترة وتحدث فيها قشعريرة تبعث السكون في كيانه المرتجف. وحين حاول أن يسحب يده، مسكتها هي بقوة، كما لو أنها تخشى أن تفلت منه. وتمنى هو في هذه اللحظة أن يطول مكوث الشرطة أمام الخيمة، بيد أنهم سرعان ما ودعوا السيد، مؤكدين عليه أن يبقى على اتصال دائم بهم ويخبرهم عند ظهور أي شخص في المنطقة. وأنتظر السيد هنيهة أمام الخيمة إلى أن ابتعدت السيارة مسافة غير قصيرة عن القرية ثم عاد إلى الخيمة وهو يلعن ويشتم الشرطة والحكومة وكل من يسايرهم. إذ ذاك فكت الفتاة يده، فشعر الصبي كما لو أنه استيقظ من حلم كان يتمنى أن لا ينتهي. وعادا إلى مكانيهما. كما وعاد الشيخ هو الآخر إلى وضعه السابق. قال الشيخ بصوت فيه ثقة مطلقة واطمئنان:

" عفارم عليك يا سيد، بارك الله فيك، أنقذتنا كلنا، يبدو أن هؤلاء لا يفرقون، لا بين الكبار والصغار، ولا بين النساء والرجال"

وظل السيد والشيخ يناقشان مسألة التردد المستمر لسيارة الشرطة المسلحة إلى المنطقة والخطورة المترتبة من ذلك بالنسبة للفتاة والصبي والشيخ، ولاشك أن المقصود بالشخص المزعوم الذي يرتدي ملابس النساء، هو الفتاة التي ربما قد رأوها من بعيد بنواظيرهم التي يعلقونها عادة على رقابهم. ولذلك ينبغي الاهتمام الخاص بإخفاء الفتاة والحيلولة دون أن تقع بأيديهم. وأما الشيخ فأكد كعادته بأنه لم تبق من حياته سوى

أيام معدودات، أنه سيموت ذات يوم مرفوع الرأس، ولذلك لا تهمه حياته بقدر اهتمامه بحياة الصبي والفتاة. وطمأنه السيد بأن الاثنين لا خوف عليهما عنده، وأما بالنسبة إلى المدى البعيد، فرأى أن الحل الأمثل هو إرسالهم إلى المدينة للسكن عند أحد الأقارب إن أمكن.

٧

عاد الشيخ في اليوم الثاني إلى قريته متخذا نفس الطريق السابق وعندما اقترب من النقطة القريبة من الربيّة العسكرية، راحت دقات قلبه تتسارع وأحس كما لو أن قلبه يريد أن يقفز من مكانه. وكان مبعث خوفه ليس على نفسه هو، بل لشعوره بأنه إذا حصل له سوء فأن الصبي والفتاة وزوجته سيبقون بلا معيل، أو أنهم لا يتمكنون من تمشية أمورهم بأنفسهم. ولكن في هذه المرة أيضا كالمرة السابقة، لم يناد عليه أحد فواصل سيره بأمان مقتنعا بأن الربيّة خالية من البشر وفكر أنهم إذا أخلوا القرى كلها من الناس فما الداعي للحراسة.

كانت ساعته تشير إلى الثانية ظهرا عندما أقترب من القرية وحين تبينت له معالم بيته، رأى زوجته واقفة أمام الباب بلا حراك كما لو أنها تنتظره، فاعتقد أنها رأته من بعيد، لذلك وقفت بانتظاره، ولكنه استغرب من ذلك، إذ أنها لم يسبق لها أن انتظرته بهذه الطريقة. وفكّر أنه لاشك حصل أمر ما. وقبل أن تبادر هي إلى الكلام، سألها عن سبب وقوفها هكذا أمام الباب. قالت أنها واقفة هنا كي تبلغه بأمر وجود خمسة شبان غرباء في البيت، ولكنهم طيبين:

" أحببت أن أخبرك كي لا تفاجأ بالأمر"

تساءل بدهشة ممزوجة بخوف:

" من هم وماذا يريدون؟"

قالت العجوز بلهجة مطمئنة:

" لا داعي للخوف يا رجل، إنهم طيبون"

" ومتى جاءوا؟"

" فجر هذا اليوم. هيا أمش وتحدث معهم بنفسك"

كان الخمسة، بعد أن رأوه من بعيد من فوق السطح، قد اقترحوا على العجوز أن تنتظر أمام الباب لتخبره بأمرهم كي لا تصدمه المفاجأة. حياهم الشيخ وهو يجيل

نظراته في وجوههم بفضول واستطلاع دون أن يعرف أحدا منهم معرفة تامة، رغم أن الوجوه بدت له غير غريبة. كانوا شباب بملابس مدنية لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين. ظلوا واقفين بأدب دون أن يجلسوا، إلى أن طلب منهم الشيخ أن يتخذوا أماكنهم. تضاربت الأفكار في رأسه حول هوية هؤلاء الشباب الذين لا يعرف من أين أتوا وكيف وماذا يريدون. أراد أن يسألهم عن سبب مجيئهم إليه، بيد أن عرف الضيافة حال دون ذلك، ولكنه قبل أن يبلور سؤالا، بادر أحدهم للكلام:

" نحن أولاد العوائل التي تركت قرى المنطقة قبل نزول الكارثة بها.."

وقبل أن يكمل الشاب كلامه، قاطعه الشيخ بصورة عفوية وتحد:

" وماذا تريدون؟ ثم من يقول أنكم لستم رجال خضر آغا؟"

قال الشاب بلهجة مؤدبة هادئة:

" خضر آغا إنسان مجرم يا عم رمضان، سينال عقابه ذات يوم"

قال الشيخ باستهزاء.

" من أنتم إذن؟ من منتسبي الأحزاب؟"

" كلا يا عم رمضان، لو كنا أعضاء في تلك الأحزاب، لكنا الآن في عداد الموتى"

علق الشيخ بهدوء وحيرة كما لو أنه يكلم نفسه:

" سبحان الله، لا مع هذا ولا مع ذاك. مع من إذن؟"

قال أحدهم:

" لك الحق كل الحق في أن تشك في أي إنسان غريب يا عم رمضان، ولكنني أنا مثلا أبن قريتك. أنا أبن الحاج مولود. ترك أهلي القرية قبل ستة أشهر. وكنت إذ ذاك في الخدمة العسكرية، وحين عدت لم أجدهم ولا أعرف عن مصيرهم حتى الآن أي شيء"

عادت الطمأنينة إلى نفس الشيخ، فقال بلهجة ودية:

" أنت أبن الحاج مولود؟ من أية زوجة أنت، الأولى أم الثانية؟"

" أنا من الزوجة الأولى"

ابتسم الشيخ بود وثقة أديا إلى إزالة الحرج من أعماق الضيوف الخمسة:

" أبوك رجل عاقل يا ولدي، لقد تمكن أن ينقذ عائلته في الوقت المناسب، إنه الآن في إيران. سمعنا أخباره وأخبار الآخرين عن أحد المهربين. وماذا تريد أن تفعل الآن. هل تريد أن تعيش معنا. إن بيتكم لم يخرب"

" هذا هو السبب الذي جئنا من أجله للتباحث معك يا عم رمضان"

أطبق عليهم صمت غير قصير، لف خلاله الشيخ لفافة وراح ينفث الدخان مفكرا في الوضع الجديد الذي ستدخله القرية في حالة إصرار هؤلاء الخمسة على البقاء فيها، وهذا يعني أن الحركة الجديدة في القرية ستجلب أنظار الدولة إليها، الأمر الذي سيؤدي بلا شك إلى إعادة إخلائها من جديد وبشكل أقسى هذه المرة. وإذا كان هو قد منح لنفسه وللصبي الحق في الإقامة فلأنهم إنما يعيشون هنا في حالة شبه اختفاء بلا ضجة ودون أن يحس بهم أحد. وأما إذا أراد هؤلاء البقاء في القرية، فإنه ليس من حقه أن يمنعهم أو يمنع أي شخص آخر من ذلك، لأنه لا يريد أن يلعب دور الآغا أو المختار. ولا يمكنه أن يلعب مثل هذا الدور وما عليه إذ ذاك سوى تحمل التبعات الناتجة عن ذلك.

كان الشباب الخمسة قد سُرِّحوا من الجيش خلال فترة ثلاثة أشهر الأخيرة في ضوء القوانين الصادرة بخصوص تطهير القوات المسلحة من العناصر المشبوهة وكانوا يعيشون في المدينة القريبة ويعملون في أحد المخابز، دون أن يترددوا على أهاليهم الساكنين في القرى الواقعة في المناطق المحررة وذلك خوفا من أن ينكشف أمرهم، بيد أن صاحب المخبز أبلغهم قبل أيام أنه وصلته أخبار مؤكدة بصدور أوامر بإلقاء القبض عليهم بغية ترحيلهم مع من رحلوا. وكان أن تمكنوا من ترك المدينة في جنح الظلام بهدف اللجوء إلى إيران. وخوفا من انكشاف أمرهم قرروا السير ليلا والاختفاء في أطلال وخرائب القرى الواقعة على طريقهم. ولما كانت قرية الشيخ أول قرية يمرون بها، لذا أراد الشاب الذي هو أبن الحاج مولود أن تكون فترة استراحتهم الأولى فيها. وخلال تجوالهم بين الخرائب رأوا العجوز التي استقبلتهم بترحاب.

قال الشيخ بحيرة من لا حول ولا قوة له:

" تريدون أن تتباحثوا معي. لنتباحث، ولكن حول أي شيء؟ حول بقائكم هنا؟"

أجاب أبن الحاج مولود:

" هذا مستحيل يا عم رمضان، إننا نفكر في أخذكما معنا باتجاه الحدود، لأن بقاءكما هنا خطر جدا"

تنفس الشيخ الصعداء ثم حكى لهم كيفية مداهمتهم للقرية وخلاصه هو وزوجته وضرورة بقائه هنا ليس بسبب الصبي الذي صدمته الكارثة فحسب، وإنما لأنهما غير قادرين على تحمل مصاعب الطريق. وأكد أكثر من مرة أنه يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصبي الذي روى لهم قصته بالتفصيل.

ولما شعر الشبان الخمسة أن الشيخ مصر على البقاء، راحوا يروون له الأخبار المرعبة المتناقلة بين الناس في المدينة والتي سمعوها خفية مثل إطلاق النار العشوائي على كل من يصادفونه في المنطقة وكيف أنهم ألقوا بعض الأشخاص من الهليكوبتر وهم أحياء وحدثوه عن الاعدامات الجماعية الجارية في السجون. كان الشيخ يهز رأسه كما لو أنه يعرف كل شيء، ويجيب أنه يصدقهم وبأن ما رآه هو لم يسبق لهم أن رأوه، ولكنه يؤسفه أن طاقته الجسدية وطاقة زوجته العجوز لا يمكنهما تحمل ما يتحملونه هم. وأن الطريق الذي سيسلكونه، يعرفه جيدا. وتمنى لهم كل التوفيق والنجاح في بلوغ هدفهم. ونصحهم أكثر من مرة بأن يمشوا في الليل فقط ويختفوا نهارا في خرائب القرى التي يمرون بها وفي الكهوف، ذلك أنهم مراقبون، ليس من الأرض فحسب، بل من السماء أيضا.

وتحسباً للطوارئ أعطى أبن الحاج مولود الشيخ أسماء وعناوين بعض الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم في المدينة. ونصحه أن يبعث إليهم الصبي على الأقل، إن كان هو والعجوز مصران على البقاء في القرية. تسلم الشيخ الأسماء والعناوين برحابة صدر وقال أنه سيتباحث ذلك مع الصبي نفسه، لأنه لا يستطيع أن يفرض عليه أي شيء بدون موافقته وهو والحمد لله عاقل بما فيه الكفاية، ولكن يجب مراعاة وضعه العصبي، إذ أنه لازال يعاني من صدمة الكارثة التي رآها بعينه.

وقبل أن يترك الشبان الخمسة القرية تحت جنح الظلام، أخذوا قسطا وافرا من النوم، بحيث يمكنهم من المشي المستمر طوال الليل.

٨

كان واجب المفرزة السيارة التي يقودها مفوض الشرطة يكمن في مراقبة منطقة وادي كفران بعد حملة إخلائها من السكان، إذ حسب الأوامر الشفوية الصادرة إليهم أصبحت هذه المنطقة من المناطق المحظورة التي يحرم التواجد البشري والحيواني فيها. ولما كانت المفرزة فيما مضى تابعة لمديرية انحصار التبغ، لذا فان أسلوب عملها كان يكمن في مكافحة التهريب ومتابعة المهربين وتتجنب الاصطدام بالمقاتلين الكورد. وقبل أن تبدأ الحكومة بإجراءاتها في التهجير وتخريب القرى، تم نقل طاقم المفرزة للخدمة في مجال المهمات الخاصة وذلك لمعرفتها التامة بشؤون المنطقة. ولما كان العمل في مجال المهمات الخاصة له شروطه ومواصفاته المتميزة، لذا تم إدخال منتسبي المفرزة في دورة خاصة يشرف عليها التنظيم الحزبي في كركوك. وفي أول درس تلقوه، أعلمهم الضابط المسؤول بضرورة الالتزام بالأمور التالية:

لا يجوز البوح عن مهماتهم الجديدة حتى أمام زوجاتهم.

يجب أن يتظاهروا بأنهم مازالوا ينتسبون إلى مديرية انحصار التبغ.

ينبغي عليهم إراقة الدم كما لو أنهم يشربون الماء.

عدم التردد حتى في قتل الأخ إذا اقتضى الأمر.

كل من لا ينفذ قرار الحزب، يكون مصيره الموت.

رفع التقارير الدورية عمن يتذمّر من سياسة الحزب، حتى إذا كان ذلك من أقرب المقربين.

وأختتم الضابط الدرس الأول قائلا أنهم يجب أن يربطوا النظرية بالتطبيق، فأخذ الصف في نفس اليوم إلى مدينة الموصل بسيارة عسكرية لمشاهدة عمليات الإعدام. كانت هذه الإجراءات التي تتابعت بسرعة، غريبة على مفوض الشرطة الشاب. وحين دخلت السيارة مبنى السجن أحس باضطراب في معدته وأنه يكاد يتقيأ. وحين طلب من الضابط المدرس أن يعفيه من دخول السجن بسبب وضعه الصحي، ضحك هذا باستهزاء قائلا: " يا جبان، أبهذا المزاج تريد مكافحة المتمردين المخربين؟ أنت لست

أول من يكاد يملأ بنطلونه خوفا من مشاهدة معاقبة المتمردين. إن واجبي هو أن أعلمك كيف تصمد أمام مشاهد الموت، هيا قم من مكانك وكن رجلا وإلا سحلتك إلى هناك كأي جثة"

وجرجر المفوض رجليه إلى غرفة الإعدام وهو يترنح كأي سكير. وقبل تنفيذ عملية الإعدام بأحدهم، لم يتمكن من ضبط نفسه، فتقيأ مفرغا كل ما في معدته. وبعد أن سجل عليه وضعه هذا كنقطة سوداء ضده، جرى معه تحقيقا مفصلا عن سبب انهياره وعدم تقبله المشهد. وكان عليه أن يجيب على هذه الأسئلة بكل صراحة، وإلا فإنه سيحكم بيده على نفسه بالإعدام:

– الجهة التي توسطت له بالدخول إلى مدرسة الشرطة.

– الجهة أو الشخص الذي زكاه للدخول في حزب البعث.

– ذكر أسماء إخوانه، أخواته، أزواجهم، أعمامه وأخواله وأولادهم ووظائفهم وأعمالهم..

– هل له أحد في خارج العراق؟

– سبب القيء. هل هو نفسي له علاقة روحية بالمحكومين أم حالة بيولوجية محضة لها علاقة بحركة السيارة ورائحة البنزين؟

– هل له أحد في المعارضة؟

– هل يعرف أحدا من المحكومين بالإعدام، أو هل له قريب بينهم؟

– أسم زوجته وأسماء إخوانها وأخواتها وأعمامها وخالاتها وأزواجهم ووظائفهم وأعمالهم.

بعد الإجابة التفصيلية على الأسئلة وإبداء أغلظ اليمين بأن سبب تقيئه هو حركة السيارة ورائحة البنزين، تم فتح ملف جديد له على أن يوضع تحت المراقبة من قبل العاملين معه مع التأكيد على ضرورة تصليبه وتخليصه من نعومته البورجوازية. وأنيط له واجب مراقبة منطقة وادي كفران ليلا ونهارا. وكان يزور مركز مدينة كركوك مرة في الأسبوع لزيارة أهله ولحضور الاجتماع الحزبي الخاص بالمهمات الخاصة.

بعد لقائه الأخير بالسيد أمام الخيمة قفل راجعا إلى كركوك. وفي الطريق جرى

نقاش حاد بينه وبين أحد أفراد مفرزته، حيث أتهمه هذا بالتقصير في أداء الواجب، إذ كان من المفروض عليهم القيام بجولة كاملة في المنطقة، في حين اكتفوا بزيارة قرية السيد فحسب، ودون أن يلقوا القبض عليه. هذا بالإضافة إلى أنهم رأوا من خلال الناظور رجلا بملابس امرأة، لاشك أنه جاسوس المتمردين، بيد أن المفوض رفض اتخاذ أي إجراء ضده بحجة وعورة الطريق وخطورته وهذه تعتبر مخالفة صريحة للأوامر الصادرة من قيادة مكتب تنظيم الشمال.

ولما كان المفوض أعلى رتبة من هذا الشرطي الدجال الذي يحاسب رئيسه بلا حياء، نهره بشدة مهددا إياه بأنه إذا فتح فمه فإنه سيكسر أسنانه. وحين أشتكى الشرطي أمام مسؤوله الحزبي، أجابه هذا بأنه تصرف بحماقة، مؤكدا له أنه لم يطالبه بمحاسبة رئيسه بهذه الطريقة، بل كلفه بكتابة التقارير حوله فحسب. وأما الموظف فذهب مباشرة إلى منزل مسؤوله الحزبي الذي أخبره بوصوله بعد الثامنة مساء وطلب منه أن يشرح له مضمون الأوامر الصادرة من قيادة مكتب تنظيم الشمال، والتي سمع بها من شرطي حاسبه بأسلوب غير أخلاقي.

كان المسؤول الحزبي مشغولا بإعداد تقرير سري مفصل عن الأوضاع الأمنية التي بدت له غير مريحة في مدينة كركوك وعليه إنجازه هذه الليلة لتقديمه في صباح اليوم التالي إلى مسؤوله الحزبي، ولذلك أعتذر من المفوض لعدم تمكنه من استقباله لضيق وقته. وبدلا من أن يشرح له المحتوى، أعطاه نسخة من التعليمات، مؤكدا له بأنها سرّية للغاية وأنه يسلمها إياه لثقته به، وعليه أن يعيدها إليه بعد ساعتين على أن لا يخبر بذلك حتى زوجته.

قرأ المفوض البيان بفضول، ولا يدري لماذا كان يرتجف أمام الكلمات التي بدت له متحركة، متوترة غير ثابتة:

(طبق الأصل)

قيادة مكتب تنظيم الشمال

التاريخ ٦/ / ١٩٨٧

مكتب السكرتارية العدد/

من/ قيادة مكتب تنظيم الشمال

إلى/ قيادة الفيلق الأول/ قيادة الفيلق الثاني/ قيادة الفيلق الخامس

الموضوع/ "التعامل مع القرى المحذورة أمنيا"

بالنظر لإنتهاء الفترة المعلنة رسميا لتجميع هذه القرى والتي سينتهي موعدها يوم ١ حزيران ١٩٨٧ قررنا العمل إبتداءا من يوم ٢٢ حزيران ١٩٨٧ بما يلي:

١- تعتبر جميع القرى محذورة أمنيا والتي لم تزل لحد الآن أماكن لتواجد المخربين عملاء إيران وسليلي الخيانة وأمثالهم من خونة العراق.

٢- يحرم التواجد البشري والحيواني فيها نهائيا وتعتبر منطقة عمليات محرمة ويكون الرمي فيها حرا " غير مقيدا" بأية تعليمات ما لم تصدر من مقرنا.

٣- يحرم السفر منها واليها أو الزراعة والاستثمار الزراعي أو الصناعي والحيواني وعلى جميع الأجهزة المختصة متابعة هذا الموضوع بجدية كل ضمن اختصاصه.

٤- تعد قيادات الفيالق ضربات خاصة بين فترة وأخرى بالمدفعية والسمتيات والطائرات لقتل أكبر عدد ممكن ممن يتواجد ضمن هذه المحرمات وخلال جميع الأوقات ليلا ونهارا وإعلامنا.

٥- يحجز جميع من يلقى القبض لتواجده ضمن قرى هذه المنطقة وتحقق معه الأجهزة الأمنية وينفذ حكم الإعدام بمن يتجاوز عمره (١٥) سنة داخل صعودا إلى عمر (٧٠) سنة داخل بعد الاستفادة من معلوماته وإعلامنا.

٦- تقوم الأجهزة المختصة بالتحقيق مع من يسلم نفسه إلى الأجهزة الحكومية أو الحزبية لمدة أقصاها ثلاثة أيام وإذا تطلب الأمر لحد عشرة أيام لابد من أعلامنا عن مثل هذه الحالات وإذا استوجب التحقيق أكثر

من هذه المدة عليهم أخذ موافقتنا هاتفيا أو برقيا وعن طريق الرفيق طاهر العاني.

٧- يعتبر كل ما يحصل عليه مستشارو أفواج الدفاع الوطني أو مقاتلوهم يؤول إليهم مجانا ما عدا الأسلحة الثقيلة والساندة والمتوسطة أما الأسلحة الخفيفة فتبقى لديهم ويتم إعلامنا بأعداد هذه الأسلحة فقط وعلى قيادة الجحافل أن تنشط لتبليغ جميع المستشارين وأمراء السرايا والمفارز وإعلامنا بالتفصيل عن نشاطاتهم ضمن أفواج الدفاع الوطني

مكرر رئاسة المجلس التشريعي – رئاسة المجلس التنفيذي – جهاز المخابرات – رئاسة أركان الجيش – محافظو (رؤساء اللجان الأمنية) نينوى، التأميم، ديالى، صلاح الدين، السليمانية، أربيل، دهوك – أمناء سر فروع المحافظات أعلاه – مديرية الاستخبارات العسكرية العامة – مديرية الأمن العامة – مديرية أمن منطقة الحكم الذاتي – منظومة استخبارات المنطقة الشمالية – منظومة استخبارات المنطقة الشرقية – مدراء أمن محافظات نينوى، التأميم، ديالى، صلاح الدين، السليمانية، أربيل، دهوك، يرجى الإطلاع والتنفيذ كل ضمن اختصاصه، انبؤونا.

(التوقيع)

الرفيق علي حسن المجيد

عضو القيادة القطرية __ أمين سر مكتب تنظيم الشمال

أعاد قراءة التعليمات ثلاث مرات وكان في كل إعادة يكتشف شيئا جديدا ولولا ضيق الوقت وضرورة إعادته إلى مسؤوله، لسجل بعض الجمل على الورقة لغرابتها، بيد أنه وجد أن الوقت الباقي هو نصف ساعة وعليه إعادة الورقة إليه. وحين عاد إلى سيارته بعد تسليم الأمانة لصاحبها، قادته السيارة بلا إرادة منه إلى نادي الضباط، حيث ظل يشرب إلى منتصف الليل ويفكر في مضمون التعليمات التي تسمح له بقتل أي إنسان يشاء في المنطقة الخاضعة لسلطته. كان عليه إذن أن يقتل السيد والمرأة الجميلة التي أعتقد مرافقوه إنها رجل بملابس امرأة. إن الشرطي الذي أتهمه بالتهاون في واجبه، محق إذن. والتعليمات التي قرأها بكل إمعان يمكن أن تنطبق عليه أيضا، إذ ذاك يلتف

الحبل حول عنقه أو تهمده طلقة على رأسه ويزول كأي ضرطة تطلق في الهواء.

وفي اليوم الثاني ذهب إلى مسؤوله مرة أخرى، ولكن هذه المرة في مقر الحزب وليس في بيته، كما اتفقا مساء أمس، وذلك كي يزوّده بآخر التعليمات. الشرطي الذي تطاول عليه أمام الآخرين تم نقله إلى مكان آخر عقابا له للبراليته وعدم احترامه لمسؤوله الأعلى. وبما أن المنطقة قد أخليت تماما من سكانها وحيواناتها، فلا داعي لإهدار الوقت والمال لتجول المفرزة في أنحائها، وبدلا من ذلك تقوم الطائرات بين فينة وأخرى بطلعاتها الروتينية وتقصف كل من يسول له نفسه بالتجول في تلك المناطق المحظورة. وتفاديا للالتباسات التي قد تؤدي إلى القتل العشوائي الذي لا مبرر له، يمنع قيام المستشارين من الدخول الى تلك المناطق بغية استعمال الزرع كمرعى لمواشيهم. ولا يجوز العودة حتى إلى قرى المستشارين المهدمة، وإلا فإنها ستتعرض إلى القصف جوا وأرضا. وتم إبلاغ ذلك للجميع.

٩

بعد إنقضاء أسبوع ودّع الشيخ زوجته على أن يرجع في اليوم الثاني بمصاحبة الصبي والفتاة. وفرحت العجوز لقدوم الفتاة ومكوثها عندهم ورأت أنها لاشك ستكون عونا لها في تمشية أمور البيت التي أحست بعبئها منذ فقدان أهلها. وكان ما تعانيه بالدرجة الأولى هو حلب العنزتين العنيدتين.

ترك الشيخ منزله بعد الفطور مباشرة. وحين وصل إلى تقاطع الطريقين وقف هنيهة يفكر في أيهما يتخذ، الطريق البعيد الأمين أم القصير المجازف؟ بعد أن توكل على الله قادته قدماه إلى الطريق الأقصر وهو يردد في نفسه أن ما كتبه الرحمن لا يغيّره الإنسان، وليكن ما يكون. وكان سعيدا في قرارة نفسه لإنضمام الفتاة إلى العائلة الجديدة والتي لا شك ستتحول إلى لولب متحرك في حياتهم.

ورغم أن الفتاة أبدت موافقتها للذهاب معه، إلا أنه ساورته المخاوف من أن تغيّر رأيها. ولا شك أن إجابتها الحاسمة ستتعلق بوضعها الصحي، فإن السيد إذا لم يعالجها علاجا تاما، ستتحول إذ ذاك إلى عالة عليهم، ولكن مع ذلك يجب أن لا يتركها تواجه مصيرها لوحدها. وفكر أنه حتى إذا ماتا، هو وزوجته، فإن الصبي لا يبقى لوحده. وعليهما أن يشقا طريقهما بنفسيهما. ولاشك أن الله هو الآخر سينظر إليهما بعين الرأفة مثلما أنقذهما من مخالب الأوباش الذين خطفوا أهلهم جميعا تحت جنح الظلام.

عندما اقترب من منطقة الربيّة الخطرة، راح يبسمل ويحوقل بلا إرادة منه. وبدأ قلبه يخفق بشدة، ولكنه سرعان ما تأكد من خلوها، إنهم قد أفرغوا المنطقة من السكان، فلماذا الحراسة؟ هل هناك ضرورة لحراسة الأطلال والخرائب؟ إن الحراس إذن سيرسلون إلى الجبهة كي يموتوا هناك بدلا من العيش في بحبوحة النوم في الربيّة والارتخاء للكسل.

دخل القرية من نفس الطريق الذي أتخذه قبل أسبوع ليتأكد ما إذا كانت الفتاة لا تزال تتخذ نفس المكان للانتظار المزعوم، فإذا كانت تجلس هناك مثل المرة السابقة،

فيعني أنها لم تشف بعد. وهذا أمر سيء جدا. وأما إذا كانت غائبة عن المكان، فهذا فأل حسن. تمنى من الله في نفسه أن لا يجدها هناك. وتنفس الصعداء حين وجد مكانها خاليا وراح قلبه يدق بفرح طفولي. كانت الشمس قد بلغت منتصف السماء حين أصبح أمام الخيمة. ووقف بلا إرادة منه يستعيد أنفاسه المتقطعة ويستجمع شتات تفكيره المضطرب، وظل واقفا كما لو أنه ينتظر أن يستقبله أحد.

عرف الشيخ من الدخان المتصاعد أن العجوز مشغولة بالطبخ وراء الحصير ومع ذلك ظلّ واقفا أمام الخيمة منشغلا بلف لفافة ومجيلا نظراته في جميع الجهات، متوقعا ظهور السيد مع مرافقيه الاثنين من بين خرائب القرية أو من وراء المرتفعات المطلة عليها. خرجت العجوز لسبب ما إلى خارج الخيمة واندهشت حين رأته منتصبا في مكانه يدخن بلا حراك:

" شيخ رمضان، هذا أنت؟ تفضل خذ راحتك، لماذا لا تدخل الخيمة؟"

سألها عن السيد والعيال قالت أنهم خرجوا قبل ساعة للبحث عن الكمأة وجمع الحطب. ولابد أنهم سيرجعون حالا. وقبل أن يتمما كلامهما، ظهر الثلاثة من وراء المرتفع المطل على الخيمة. الفتاة تحمل على ظهرها شدة حطب والصبي يحمل كيسا مملوءا بالكمأة والسيد يحمل بيمينه شدة صغيرة من الأعواد اليابسة. ألقى الثلاثة أحمالهم قرب الخيمة وراحوا يعانقون الشيخ بشوق ولهفة. وكان الفرح باديا بشكل ملحوظ على وجهي الصبي والفتاة. ولاحظ الشيخ وجود كمية غير قليلة من الخشب والأغصان بين الخرائب، فسأل السيد عن سبب عدم استعمالها كوقود بدلا من جلب الحطب من أماكن بعيدة في خارج القرية، أجاب السيد كما لو أنه سمع كفرا:

" استغفر الله يا شيخ رمضان، هذا حرام، هذا يعتبر نهب"

هزّ الشيخ رأسه موافقا وقال كأنه يصحح خطأً: " كلامك صحيح يا سيد، هذا يعتبر نهب"

وحين اتخذوا أماكنهم داخل الخيمة، أخرج الشيخ من عبه كيسين يحتويان على الشاي والسكر وطلب إلى الصبي أن يسلمهما للعجوز الرابضة وراء جدار الحصير. بعد أن شكر السيد الشيخ للهدية، راجيا من الله أن يبارك ويزيد من ماله، بشر بأن صحة الاثنين جيدة جدا وأن ضربة الجن والحمد لله قد زالت وأن الصبي والفتاة قد

انسجما منذ اليوم الأول مثل شقيقين من نفس الأبوين ثم وصى الشيخ أن يعاملهما مثلما كان يعامل أولاده ويكلفهما بالعمل، بحيث أنهما يجب أن لا يسترخيا للكسل لأن في الحركة بركة. وتشاورا في كيفية عودتهم إلى القرية، إذ أبدى السيد عن مخاوفه حول احتمال ظهور سيارة الجيب، لذلك اقترح على الشيخ أن يتركوا الخيمة فجرا تحت جنح الظلام، لأن سيارة الجيب التي هي أخطر من الطائرة، لا تظهر في مثل هذا الوقت. وفي حالة ظهور طائرة في السماء، فإنهم يمكنهم أن ينبطحوا على الأرض بلا حراك إلى أن تختفي وراء الأفق. ونصحهم السيد أن ينتبهوا على أنفسهم ولا يتركوا القرية، لأن المنطقة، كما أبلغه أولاد عمه الذين جلبوا له الخيمة، محظورة وأن أفراد القوات المسلحة لهم أوامر بإطلاق النار ليس على البشر فحسب، بل على كل أنواع الماشية والحيوانات البرية. وطمأنهم بأنه قد أعد لهم ثلاثتهم أدعية تقيهم شر الإنس والجن. وإذا صادف أن قابل أحدهم الجن أينما كان، فعليه أن يبسمل ويقول:"دخيلك يا سيد، يا حفيد النبي"، إذ ذاك سيتلاشى كل شيء.

في فجر اليوم الثاني وفي جنح الظلام تركوا الخيمة بعد أن ودعهم السيد وزوجته متمنيين لهم كل الخير والسلامة. كانت النجوم لا تزال تتلألأ في السماء الصافية وهي تستقبل الخيط الأبيض الذي بدأ يطل عليهم من جهة الشرق.

واصلوا سيرهم بخطوات غير بطيئة وبصمت كما لو أنهم لا يريدون أن يسمعهم أحد. كان النشاط والحيوية باديين عليهم، ذلك أنهم استسلموا يوم أمس في وقت مبكر إلى النوم. مع شروق الشمس بلغوا نقطة الربية. ورغم معرفة الشيخ والصبي بخلوها، فإن موجة من الخوف تسربت إلى أعماقهما، ولكن لم تبد أي حركة تدل على وجود الحياة هناك، الأمر الذي أغرى الصبي على أن يسأل الشيخ ما إذا يسمح له بالصعود على التل لإلقاء نظرة إلى داخل الربيه.

حذره الشيخ من مثل هذه المغامرة التي قد تؤدي إلى هلاكه وقال أن الجنود حين يتركون رباياهم لسبب ما يزرعونها بالألغام، فالإنسان حين يمد إصبعه إلى جحر الحية يلدغ. كانت الفتاة شاردة ساهمة يبدو عليها أنها غير منتبهة لكلامهما، فسألها السيد عن رأيها هي وما إذا كانت توافق على اقتراح الصبي لإلقاء نظرة إلى داخل الربيه. قالت الفتاة مبتسمة بأنها مع رأيه هو، ولكن كامه فضولي ويجب أن ينتبه له الإنسان،

وله صفة جيدة وهي أنه يسمع كلام من هو أكبر منه. عقب الشيخ: " أنكما من الآن فصاعدا يجب أن تنتبها وتساعدا بعضكما، وأنت يا بني، يا كامه يجب عليك أن تسمع كلام شيرين فهي بمثابة أختك الكبرى"

قال الصبي قافزا في مكانه: " ولكننا اتفقنا أن اعلمها القراءة والكتابة، أليس كذلك يا شيرين؟ سنستعمل المدرسة لهذا الغرض. هناك كمية كافية من الطباشير والدفاتر والأقلام"

وقبل أن تجيبه هذه، بارك الشيخ خطوتهما. كانت الفتاة تفكر طيلة الوقت في أجواء البيت الجديد المرتقب الذي سوف يحويها، ورغم أن الصبي حدّثها بالتفصيل عن كل شيء، إلا أن الصورة كانت لا تزال ناقصة في ذهنها، بيد أن الشيء الذي تعرفه هو وجود بيتين وعنزتين وتيس وعدد غير قليل من الدجاجات. ولم يتمكن الصبي أن يصور لها مزاج العجوز بالشكل الذي أرادته هي، قال عنها أنها طيبة ولا تتكلم كثيرا وأنها تحبه كما لو أنه حفيدها. ولكن يا ترى كيف يكون موقفها منها هي؟ امرأتان غريبتان عن بعضهما في بيت واحد وتحت سقف واحد، مسألة لا يمكن أن يفهمها الرجال. هناك صراع خفي للسيطرة على شؤون إدارة المنزل.

إن هذا الصراع كان موجودا بين أمها وجدتها، ولكنه كان خفيا لا يحس به أبوها أو إخوانها، وأما هي فلم تحس به حسب، بل كانت تعيشه معايشة حقيقية وتتحول في معظم الأحيان، سواء شاءت أن أبت إلى طرف في النزاع. كانت تقف معظم الأحيان إلى جانب الجدة وذلك لسببين، أولا لأن الجدة كانت تملك المال وتغدق عليها الهدايا وثانيا لأن الأب كان يلتزم جانب أمه، جدتها. ورغم كل المماحكات فإن الصراع بين الأم والجدة لم يكن عدائيا ولا سيما لأن الأخيرة كانت تتساوم وتتنازل بسرعة. والشيء الذي لم تفهمه الفتاة حتى الآن هو السبب الحقيقي لهذا التنازع.

كان الخلاف يدور مثلا حول عدد مرات إعداد الخبز في اليوم الواحد. الجدة مثلا كانت تصر على ثلاث مرات لكي تتمتع العائلة بالخبز الحار ثلاث مرات في اليوم الواحد وأما الأم فتصر على مرتين في اليوم الواحد أو أن الأم كانت تصر على ذبح ماعز في عيد الأضحى وأما العجوز، فتعتبر هذا الاقتراح كفرا، بل يجب أن تكون الفدية نعجة وهكذا. وآخر نزاع بين الاثنتين حصل عندما تقدم لخطبتها أحد أقارب

الجدة، وكانت هي معجبة به، بل وتحبه من بعيد وما كان من الأم إلا وحركت قريب أبنه للتقدم لخطبتها، ولم يدم الصراع طويلا، إذ أن أباها طلب منها أن تحسم الموضوع. واختارت هي قريب جدتها فسافرت مع أمها لشراء جهاز العرس. قضيتا ليلتين في بيت قريب لهن في المدينة وحين رجعتا إلى القرية لم تجدا سوى الخرائب. وظلت تبحث عن خطيبها حاملة صرتها في خرائب هذه القرية وتلك ولا تدري متى انفصلت عن أمها وإلى أين ذهبت ولا تعرف كيف وصلت إلى خيمة السيد.

قال الشيخ وهو يحاول إخراجها من شرودها العميق:

" شيرين، أين أنت؟"

أجابت بابتسامة وحسرة:

" أنا هنا يا جد، أفكر في أمور الدنيا"

عرف الشيخ أنها تفكر في شيء آخر، قال بلهجة أبوية:

" دعي الأمس وشأنه يا شيرين، أنا جدك وكامه أخوك وجدتك تنتظرك في البيت. فكري في مصير العائلة الجديدة"

" أنا سعيدة بالتعرف عليكم يا جد، أحس كما لو إنني عثرت على أهلي"

" نحن أيضا عثرنا على أهلنا فيك يا شيرين، أليس كذلك يا بني يا كامه؟"

قال الصبي جذلا:

" طبعا يا جد، لولاك لهلكت في أول يوم"

١٠

انتظرت العجوز وصول زوجها والصبي والفتاة على أحرّ من الجمر وبشوق غريب وظلت طوال الليل جالسة في فراشها دون أن تتمكن من الاستسلام للنوم. ولأول مرة في حياتها الطويلة تحس بالخوف في الظلام الدامس، ولذلك حين ذهبت إلى فراشها كالعادة في الموعد المحدد، لم تطفئ اللمبة الزيتية، بل تركتها مشتعلة دون أن تخفف ضوءها. وحين اندست في فراشها سمعت دقات خفيفة ورتيبة على الباب. قامت من مكانها مبسملة ومتوجهة صوبه. تصورت في بادئ الأمر أن الشبان الخمسة قد عادوا إليها من جديد، لذلك أرادت أن تفتح الباب دون أن تسأل من هو الطارق، بيد أنها تداركت الأمر وبادرت إلى السؤال عمن وراء الباب. ولما لم يأتها الجواب، ظنت أنها توهمت في سمع ما لا وجود له كشأنها دائما. وعادت كي تتكفئ في فراشها، بيد أنها سرعان ما أدركت أنها ليست بحاجة إلى النوم أو أنها أصيبت بالأرق بسبب الدقات المنتظمة الموهومة على الباب. وداهمها هاتف من أعماقها يخبرها بأنها قد نست أن تغلق الباب، فقامت من مكانها مرة أخرى كي تتأكد من ذلك. ورغم أن الباب كان موصدا كالعادة، إلا أنها اقتنعت بأن من يريد فتحه يمكنه أن يفعل ذلك بركلة قوية واحدة، تكفي أن توقف قلبها عن الحركة وتحولها إلى جثة هامدة ملقية إياها على أرض الغرفة. عند ذلك ستتخلص من آلامها التي تحرق كبدها وتفترسه كما تفترس الديدان أي جرح. وكم تمنت أنهم لو قتلوها هي بدل أن يأخذوا أفراد العائلة إلى حيث لا يعلم إلا الله. إنها منذ تلك اللحظة التي اقتحموا فيها البيت وسلطوا عليه الجحيم، تحس في أحشائها بكتلة ملتهبة من النار لا تنطفئ. إن الدواء الوحيد لذلك هو البكاء والنواح اللذين لا يمكنها القيام بهما بحضور زوجها، ولكنها منذ ساعة مغادرته البيت إلى السيد، أطلقت لنفسها العنان وراحت تبكي وتولول كما تشاء. وبعد صلاة العشاء كفت عن البكاء وتنفست الصعداء بعد أن أحست براحة داخلية غريبة بدت لها مقدسة امتدت إلى أحشائها الداخلية واقتلعت منها جذور الآلام. وتناولت عشاءها بشهية ثم شربت الشاي بلذة. وعلى غير عادتها بقيت جالسة في مكانها دون أن تشغل نفسها بالأعمال المنزلية التي تقضي بها وقتها عادة إلى أن يحن موعد الاستلقاء في فراش النوم

فالتسلل إلى عالم الأحلام الجميلة أو الكوابيس المرعبة. وأعلنت مع نفسها أن تكف عن القيام بالعمل اليومي الروتيني الذي تحس بثقله يوما بعد يوم، على أن تترك كل ذلك للفتاة التي ستصل يوم غد. وهي لا شك شابة قوية وغير كسولة. وأما إذا كانت كسولة فهي ستضر نفسها بنفسها، إذ أنها غير مستعدة أن تغسل ملابسها وتعد لها الخبز مرتين في اليوم بالإضافة إلى الطبخ والكنس وترقيع الملابس، ولكن لاشك أنها عاقلة وقوية وليس من المعقول أنها ستسمح لنفسها أن تخدمها عجوز مثلها.

وحين انتهت من أمر التفكير في الفتاة المجهولة التي أثارت فضولها طيلة الوقت، أحست بأحشائها تحترق من جديد، إذ عاد بها التفكير مرة أخرى إلى الليلة التي أنزل الله عليهم فيها غضبه. وصاحبها التفكير في أهلها إلى وقت متأخر من الليل ولازمها الأرق. وحين وضعت رأسها للمرة الثانية على الوسادة، سمعت طرقات منتظمة جديدة على الباب، طرقات بعثت فيها خوفا غريزيا هزّ كيانها وأصابها بالشلل، أو هكذا تصورت هي. أرادت أن تسأل ما إذا كان الطارق زوجها، ولكنها لم تتمكن من الكلام. قامت من مكانها بصعوبة، جارة قدميها صوب الباب. اعتقدت مرة أخرى بأن الشبان الخمسة هم الذين يقفون وراء الباب فسألت بصوت خافت عن سبب عودتهم إلى بيتها. وبدل أن يأتيها الصوت من شخص واحد، اختلطت عدة أجوبة تطالبها بفتح الباب، مؤكدة أنهم أصدقاء البيت وليسوا بغرباء. إنها أصوات غير غريبة عليها، أصوات أهلها الذين لاشك قد عادوا كما كانت تتوقع هي. وقبل أن تمد يدها إلى المزلاج، انفتح الباب من تلقاء نفسه ودخل ابنها وزوجته وأولاده الأربعة واحدا بعد آخر وتوجهوا إلى منتصف الغرفة ليتخذوا أماكنهم على اللباد المفروش جنب الموقد الفارغ. أرادت أن تتكلم معهم وتستفسر عن أحوالهم وتعانقهم، ولكنها لم تتمكن. فكرت في نفسها أنهم لاشك مازالوا تحت تأثير تلك الليلة المشؤومة. أرادت أن تسألهم عن رحلتهم وما إذا كانوا جائعين كي تعد لهم الطعام، ولكن لم يسعفها لسانها. كانوا أشبه بأشباح جامدة، ترسل عيونهم شعاعات مستقيمة تبعث النور في أنحاء الغرفة المظلمة. كانوا لا يلتفتون إليها ولا يعبأون بها؛ ترى هل هم غاضبون عليها؟ ولكن لماذا؟ ربما لأنها لم تذهب معهم. ولكن ما ذنبها هي إن لم يأخذوها مع الآخرين؟ أحست أن لسانها قد أصيب بالشلل. وحاولت أن تتوجه إلى ركنها المعتاد كي تعد لهم الشاي، ولكنها لم تتمكن من تحريك ساقيها. انهما أيضا مشلولتان. ودارت بها الغرفة ولم تتمكن أن

تتماسك فسقطت على الأرض. وتجمع حولها ابنها وزوجته وأحفادها وهم يحدقونها بعيونهم المشعة في وجوههم الصفراء الشبيهة بوجوه الموتى.

في وقت متأخر من الليل أحست أنها نائمة على الأرض على بعد خطوات من فراشها. وتذكرت أهلها، ولكن فرحتها زالت حين لم تجدهم فاقتنعت بأنها إنما حلمت بهم فحسب، ولكنها ظلت في داخلها تصر على أنها لم تحلم، بل رأتهم بأم عينيها وهي واقفة أمام الباب وليس من المعقول أنها أصيبت بمس من الجنون في مثل هذا العمر. إنهم هم، جاءوا بلحمهم ودمهم، ولكن أين هم الآن؟ وفكرت في الصبي الذي أكد هو الآخر بأنه رآهم فعلا وأنه يعرف بأنه كان لا يحلم. لقد رأى ليس أهلها وأهله فحسب، بل أهالي كل القرية.

قامت من مكانها بصعوبة، إذ أن أعضاء جسمها قد تخشبت وتسمرت. وبعد أن تناولت جرعة من الماء مدت يدها إلى علبة معدنية موضوعة في كوة بالحائط، وضعها الشيخ هناك كاحتياط، والتقطت منها لفافة جاهزة. وجلست في فراشها تدخن وتفكر وتجيل نظراتها في زوايا الغرفة المظلمة التي لا تصلها أشعة اللمبة الخافتة. وحين أخبرها هاتف من أعماقها بأنها لم تر سوى أشباح موهومة، استغرقت في بكاء عميق لا تتمكن أن تتمتع به بوجود زوجها الشيخ الذي يرغمها على السكوت دوما. ورغم ذلك الهاتف القادم من داخلها، ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها رأتهم فعلا أو على الأقل رأت أشباحهم التي جاءت كي تتسقط أخبارهم وتطلع على أحوال البيت. إنهم إذن أحياء يرزقون، ولاشك أنهم سيرجعون، إن عاجلا أو آجلا.

أحست بالإرهاق والتعب وبأنها بحاجة إلى النوم. وضعت رأسها على الوسادة للمرة الثالثة وبدا لها أنها كلما أرادت أن تستسلم للنوم، اقتحمها الأرق وشرود الذهن. أرادت أن تقوم من مكانها وتغادر الغرفة للقيام بجولة في أرجاء الفناء، ولكنها خافت على غير عادتها، ربما لأنها لوحدها في البيت. وتساءلت في نفسها: "لماذا أصبحت جبانة في آخر عمري؟". وشعرت بالوحشة وبأنها زائدة عن اللزوم كأي أداة مستهلكة متروكة لا يحتاجها الإنسان. وإذا كان زوجها والصبي احتاجاها حتى الآن من أجل الطبخ وإعداد الخبز لهما وغسل ملابسهما، فإنهما لاشك بعد وصول الفتاة لا يحتاجانها أبدا. ستكون هي اللولب الجديد في البيت. وستبقى هي كأي خرقه بالية

متروكة ومنسية في إحدى زوايا البيت، يقدم لها الطعام كأي كلب. وحتى الكلب أحسن منها، إذ أنه يقوم على الأقل بمهمة حراسة البيت. وحتى إذا بادرت لحلب العنزتين وخض اللبن لاستخلاص الزبد، فإن الفتاة، صاحبة البيت الجديد، لاشك ستمنعها من ذلك. ولكن من يقول أنها نشطة إلى هذه الدرجة؟ ربما هي كسولة ومدللة تأبى أن تترك مكانها وتطلب من الآخرين خدمتها ومداراتها، آنذاك سينقصم ظهرها من الشغل الذي لاشك سيتضاعف بوجودها.

وإذ هي تسترسل في تفكيرها هذا، سمعت طرقات منتظمة رتيبة على الباب بعثت الخوف في قلبها وأخرجتها من شرودها. وفكرت: "لاشك أنهم هم، قد عادوا من جديد بعد أن قاموا بجولة في أنحاء القرية. ولكنها هذه المرة سترغمهم على الكلام وتعانقهم واحدا واحدا ولا تسمح لهم بمغادرة البيت". وتركت مكانها بخفة غير معهودة صوب الباب. ولشد ما كانت دهشتها كبيرة عندما انفتح الباب من تلقاء نفسه ودخل الشبان الغرباء الخمسة واحدا وراء آخر وهم يتوجهون بصمت إلى أماكنهم التي كانوا قد اتخذوها في زيارتهم الأولى. وظلت متسمرة في مكانها تراقبهم بدهشة دون أن تتمكن من النطق. وحين استعادت هدوءها استفسرت عن كيفية فتحهم الباب الذي هي متأكدة أنه كان موصدا من الداخل.

أجاب أحدهم، الذي قال في الزيارة الأولى بأنه أبن الحاج مولود، بأنهم يتمكنون من دخول البيوت حتى من خلال الجدران. قالت العجوز وهي تواصل حديث زوجها الذي بدأه في زيارتهم الأولى:

" وماذا قررتم؟ هل ستبقون في القرية، أم تواصلون سفركم إلى مكان آخر؟"

قال أحدهم بصوت أشبه بصدى قادم من أعماق كهف سحيق:

" نحن يا ننه نبحث عن الذين أخذوهم إلى مكان مجهول. جئنا إلى هنا كي نطلع على أحوالكم ونأخذ قسطا من الراحة ثم نواصل مسيرتنا للبحث عن كل الذين أخذوهم"

قالت العجوز وهي تتوجه إلى ركنها:

" بارك الله فيكم يا أولادي، سأعد لكم الشاي، خذوا راحتكم. أنتم في بيتكم"

وبعد أن أشعلت الطباخ النفطي ووضعت إبريق الماء عليه، أخرجت من السفرة عدة

أقراص خبز وضعتها أمامهم مع صحن من اللبن الخاثر. ورغم إلحاحها عليهم بتناول الطعام، لم يمدوا أيديهم إلى الزاد، بل ظلوا جامدين في أماكنهم مثل أشباح لا روح فيها، فاعتقدت في قرارة نفسها أنهم لاشك ينتظرون الشاي. فعلقت كما لو أنها تحدِّث نفسها:

" الأكل مع الشاي أطيب، لا بأس. سيأتيكم الشاي قريبا. زوجي لا يأكل إلا مع الشاي. وعلى فكرة ذهب يوم أمس مع الصبي إلى السيد لعلاجه لأنه أصيب بضربة جن وسيرجعان غدا مع فتاة أصيبت هي الأخرى بضربة جن.الله يحفظهما ويحفظكم أجمعين".

وتذكرت أنها لم تقدم لهم الماء. جلبت لهم طاسة ماء وهي تعتذر لنسيانها وتنعت نفسها بالمخرفة. انتبهت أن أحدا لم يمد يده إلى الماء فوضعت الوعاء جنب أقراص الخبز. وبعد قليل جلبت أدوات الشاي وراحت توزع عليهم الأقداح. واعتقدت أنهم يخجلون من تناول الطعام أمامها ولذلك تركتهم لوحدهم طالبة منهم أن يتصرفوا كما لو أنهم في بيوتهم قائلة أنها يجب أن تتمدد وتركن إلى الراحة. واختفت وراء الجدار حيث فراشها. كانت متعبة جدا فما أن وضعت رأسها على الوسادة، إلا واستغرقت في نوم عميق.

١١

كانت العجوز تعرف أن زوجها والصبي والفتاة سيصلون قبل أن تبلغ الشمس منتصف النهار. وحين استيقظت، على غير عادتها، في وقت متأخر، أحست أنها تمتعت بنوم عميق، ورغم ذلك كانت متعبة وخاملة لا رغبة لها في ترك الفراش. وأرادت أن تستسلم للنوم من جديد وتعود إلى حلمها الجميل حيث أفراد العائلة يحيطون بها، بيد أنها فكرت بوصول زوجها القريب مع الصبي والفتاة وأنها يجب أن تعد لهم طعام الغداء، ليس لهم أربعتهم فحسب، بل للضيوف الخمسة الذين رأتهم جالسين مطأطئي الرؤوس وأمامهم أقراص الخبز وأقداح الشاي التي لم يمدوا أيديهم إليها، فقفزت في مكانها متوجهة بسرعة إلى حظيرة الدجاج وهي تفكر في أمر هؤلاء الخمسة الذين ظلوا جالسين دون أن يأكلوا أو يشربوا أو يناموا. ولكنها سرعان ما نستهم حين أصبحت أمام الحظيرة، حيث مسكت دجاجتين، ذبحتهما توا في فناء البيت. وتمنت لو كانت الفتاة المجهولة هنا الآن كي تساعدها في الطبخ على الأقل كي تتمكن هي من الانصراف لإعداد الخبز. وحين داهمتها موجة الآلام الصادرة من ظهرها ومفاصل ساعديها وساقيها، قالت في نفسها أنها ستركن إلى الراحة اعتبارا من يوم غد سواء شاءت الفتاة أم أبت وستلتصق بالفراش لعدة أيام وتدعي أنها مريضة لا تتمكن من القيام بأي حركة. عند ذلك ستتمكن أن تستغرق في النوم وتلتقي في أحلامها بأفراد العائلة. وضعت الدجاجتين في الماء المغلي ونتفت ريشهما بسرعة ثم قطعتهما وألقت بالقطع في القدر الموضوع على النار ثم انصرفت إلى إعداد خبز الصاج. وعندما بلغت الشمس منتصف السماء كانت قد انتهت من الطبخ وتحضير الخبز وخض اللبن وحلب المعزتين.

كانت بين فترة وأخرى تلقي نظرة إلى الشبان الخمسة وتسألهم ما إذا كانوا بحاجة إلى شيء وتطلب منهم أن لا يخجلوا ويتناولوا الخبز والشاي ثم تنصرف إلى أعمالها غير مبالية بهم. صعدت إلى السطح وألقت نظرة سريعة على الأفق، فوجدتهم وقد اقتربوا من القرية. كان فضولها لرؤية الفتاة أكبر من شوقها لزوجها. اجتازت السلم إلى الأسفل بخطوات حذرة وببطء وتوجهت إلى الباب الخارجي كي تخبر زوجها بوجود

الضيوف الخمسة. وظلت واقفة أمام الباب تنتظرهم بصبرها المعهود إلى أن أصبحوا بالقرب منها.

بعد أن عانقت الصبي توجهت إلى الفتاة معانقة إياها بحرارة وقائلة:

" ما شاء الله، ما شاء الله. أهلا بك أهلا بك. أنت الآن في بيتك يا بنتي"

احمرت وجنتا الفتاة قائلة وهي تقبل يدها:

" أنتم أهلي، وسأظل أخدمكم إلى الأبد"

التفتت العجوز إلى زوجها قائلة: " الأكل جاهز والشبان الخمسة ينتظرون"

ارتعشت الفتاة بصورة غريبة ظانة أن أحدهم خطيبها، وأما الشيخ فتساءل باستغراب عمن يكون هؤلاء، فأجابت العجوز وهي تطمئنه بأنهم أولئك الذين زاروهم قبل أكثر من أسبوع وهم منذ وصولهم لم يمدوا أيديهم لا إلى الشرب ولا إلى الطعام. قال الشيخ بهدوء وبلهجة واثقة وشاكا في أمر زوجته:

" مستحيل يا امرأة، الشبان الخمسة قد اجتازوا الحدود الآن"

دفع الفضول الشيخ إلى أن يسرع خطاه وهو يريد أن يتأكد من هوية هؤلاء الشبان وأما الصبي فراح يفكر في خضر أغا ورجاله، وتساءل ما إذا كانوا مسلحين، فأجابت العجوز بأنهم لا يحملون حتى العصي. وحين أصبحوا داخل الغرفة لم يجدوا أحدا، بل صينية تحتوي على أقراص الخبز وصحن فيه لبن خاثر وخمسة أقداح شاي. فهم الشيخ الأمر فسأل زوجته بتهكم ما إذا كان الضيوف الخمسة قد ابتلعتهم الأرض. أجابت العجوز بلهجة واثقة:

" كانوا هنا حتى قبل ساعة. ربما أنهم ملّوا من الانتظار وتركوا البيت دون أن أحس بهم"

هرع الصبي إلى الزريبة قائلا:

" أخشى أنهم سرقوا العنزات وهربوا"

قال الشيخ باستخفاف:

" لا يا بني، يا كامه لا تجشم نفسك عناء الركض، إن السفرة القادمة إلى السيد تكون هذه المرة مع العجوز"

وظلت العجوز تكرر وتؤكد وتحلف بالمقدسات بأنهم كانوا هنا وظلوا ينتظرون منذ منتصف الليل وأنها ليست مجنونة كي ترى الأشباح، ولكن دون جدوى، إذ أن الشيخ ظل مصرا على رأيه بأنها عانت من هلوسة تمنى أن تكون عابرة، ورغم ذلك هدأها بأنه يصدق كلامها وعليها أن تنسى الموضوع. وحين اختلى الشيخ بالفتاة والصبي، قال لهما مازحا إن هذه ليست المرة الأولى التي ترى فيها العجوز الأشباح، إنها مرهقة ومتعبة ولاشك أنها خافت بسبب وحشتها في الليل ثم أنها لازالت تعاني من وطأة الصدمة. قالت الفتاة أنها سوف لا تسمح لها من الآن فصاعدا أن تمد يدها إلى أي شغل، إنها يجب أن ترتاح. واستغربت كيف أنها أنجزت كل هذه الأعمال في فترة قصيرة لا تتجاوز فسحة ما قبل الظهر. عقب الشيخ قائلا أن العجوز لا تتمكن أن تركن إلى الراحة التامة، إنها يجب أن تنشغل بشيء ما وإلا فإنها ستموت كمدا.

بعد تناول طعام الغداء تمدّدوا في أماكنهم واستسلموا للنوم، عدا الفتاة التي ظلت جالسة في مكانها تحتسي الشاي بنشوة وتحس بالنشاط والحيوية وراحت تفكر في أمر هؤلاء الشبان الخمسة الذين تزعم العجوز أنهم جاءوا مع منتصف الليل ثم تركوا البيت بعد أن ملّوا دون أن تحس هي بذلك. وفكرت في خطيبها وهي تحاول إقناع نفسها بتصديق كلام العجوز التي لا يبدو عليها الجنون. إذا كانت مجنونة فعلا، فكيف تسنى لها أن تطبخ هذه الأكلة الشهية وتخبز وتحلب؟ خمسة شبان، لابد أن أحدهم خطيبها جاء يبحث عنها، ولكن لماذا لم يمدوا أيديهم إلى الأكل والشرب، لماذا لم يتكلموا معها ولماذا تركوا البيت دون أن يودعوها؟ إن الإنسان الذي يهلوس يمكن أن يرى الأشباح بصورة خاطفة وليس لفترة تمتد من منتصف الليل إلى ما بعد شروق الشمس. ترى إلى أين ذهبوا؟ وفكرت في كلام السيد الذي حذرها من التفكير في خطيبها وطلب منها أن تنساه لأن التفكير الطويل فيه سيفسح المجال أمام الجن للتسلل إلى أحشائها من جديد. تأكدت من استغراقهم في نومهم جميعا. قامت من مكانها بخفة متوجهة إلى الباب، ولكنها قبل أن تترك الغرفة، ألقت نظرة على مرآة صغيرة معلقة على الجدار ثم توجهت إلى الفناء للبحث عن هؤلاء الشبان الخمسة. ألقت نظرة إلى داخل البئر فلم تر سوى ظلها وفي الزريبة لم تجد سوى العنزات الثلاث. ضحكت بصوت مسموع قائلة: خمسة شبان أشباح وثلاث عنزات وثلاثة مجانين وشيخ عاقل. لاشك أن العجوز مخرفة وكما قال الشيخ فإنها رأت مجرد أشباح وربما هذه ليست

المرة الأولى التي ترى فيها الأشباح كما أكد الشيخ.

قضت حاجتها في أحد أركان الزريبة ثم تركتها متوجهة إلى غرفة جانبية فيها ركن، يبدو أنه حمام ورأت أنها بحاجة إلى الاستحمام بالماء الدافئ. وعليها أن تبدأ في هذا البيت الجديد بداية جديدة، كما قال السيد. وجدت في نفسها الرغبة للإطلاع على معالم القرية المهجورة، إذ في فترة الأسبوع التي قضتها في خيمة السيد، حدثها الصبي عن كل شيء. عن بيت الشيخ وزوجته العجوز، عن بيته هو والتراكتور، عن المدرسة والمسجد وعن البيوت المهدمة وغير المهدمة ثم حدثها عن تلك الليلة العصيبة التي أخذوا فيها أهله عنوة وعن أحلامه وكوابيسه وأما هي فحدثته عن كيفية سفرها مع والدتها إلى المدينة لشراء جهاز العرس وأنها في الليلة التي هدموا فيها القرى وأخذوا الناس، كانت في بيت قريب لهم ولم تعرف بالكارثة إلا في ظهيرة اليوم الثاني، حيث أحست بلطمة قوية على رأسها أفقدت توازنها وراحت ترى الأشياء بشكل آخر. إنها رغم كل شيء ورغم تحذيرات السيد بعدم التفكير في خطيبها، قررت أن تحتفظ بصرتها المحتوية على جهازها في مكان أمين، فلابد أن يعود خطيبها ذات يوم. وأما الآن فهي هنا، في هذا البيت الذي أرسلها الله إليه. وسوف لا تنسى فضل هذا الشيخ الذي اعتبرته منذ اللحظة الأولى بمثابة جدها. إنها أصبحت جزءا من هذا البيت الذي لا تجد نفسها غريبة فيه، بل أحست منذ الوهلة الأولى كما لو أنها تعيش فيه منذ الأزل. وهذا الصبي المرح الغامض الذي تعلق بها تعلق الشوك بأذيال الثوب، لا يمكنها الاستغناء عنه. والعجوز المخرفة التي ارتاحت لها منذ الوهلة الأولى مثل زوجها الشيخ، يكملان العائلة ويبعثان فيها الدفء والحرارة. إنها ستحل محلها وتأخذ أمور البيت بيدها، هذا البيت الذي لاحظت في جوانبه الإهمال والفوضى وغياب المرأة المدبرة. ولكن عليهم ممارسة نمط خاص من الحياة كما قال السيد، نمط الحذر واليقظة، إذ عليهم أن يدركوا بأنهم لا يعيشون في هذه القرية بصورة علنية، بل بصورة سرية، أي أنهم، سواء شاءوا أم أبوا، مختفون عن الأنظار. هذا هو الحديث الذي توقف عنده السيد والشيخ. إذا تراءى نذير الخطر، فعليهم أن يتواروا عن الأنظار. كما وعليهم أن يتوقعوا ظهور سيارة الجيب المسلحة في أية لحظة.

وراحت تفكر في بناء غرفة صغيرة فوق السطح بمثابة برج مراقبة يطل على كل

الجهات، كما هو عليه في بيتهم، حيث أن والدها كان يعمل بين حين وآخر في تهريب التبغ، لذلك كان يراقب سيارات مديرية انحصار التبغ التي تداهم القرية من خلال هذا البرج وكانت هي الأخرى تقوم بهذه المهمة بين حين وآخر. حين تأكدت من عدم وجود الشبان الخمسة شعرت بوخز في قلبها، إذ أن بصيص الأمل الواهي بلقاء خطيبها قد تلاشى وترك فراغا غريبا في داخلها ورغم ذلك لم يتغلب عليها اليأس، بل أصرت في نفسها على أنه سيأتي ذات يوم ومهما طال الزمن. وكان أن أحست بالفرح يتسرب إلى ذلك الفراغ كجريان الماء العذب في قاع مجرى جدول جاف. وقفزت بصورة لا إرادية بخفة غزال وهي تكاد تطير. وتمنت لو تحتضن الصبي أو الشيخ أو العجوز وتعانقهم واحدا بعد آخر وبقوة. عادت مرة أخرى إلى الزريبة كي تتحدث مع العنزات. كانت إحداها أليفة جدا، استسلمت ليديها دون مقاومة عكس الأخريين. طوقت عنقها بساعدها وراحت تهمس في أذنها:

" من الآن فصاعدا سأعتني بكم أنا، أنا وحدي"

ثم أطلقت العنزات للتمتع بأشعة الشمس في فناء الدار. وجلست على دكة طينية تستعمل عادة لحلب الأغنام، حيث يمتطيها رجل ضابطا خروفين من الجانبين بساعديه ليتسنى للمرأتين الجالستين على الجانبين من الحلب بدون عناء. وبهذه الطريقة يجرى حلب أكثر من ثلاث مائة خروف ومعزة. وظلت جالسة في مكانها تتمتع بدفء شمس آذار وتفكر فيما تعمله. وما لبثت أن قامت من مكانها متوجهة إلى البئر، أدلت الدلو وسحبته مليئا بالماء وراحت تشرب من الدلو مباشرة. كان لذيذا، باردا ومنعشا بخلاف ماء قريتهم المالح المشرب بطعم الكبريت. كانت فيما مضى تحلم بالماء الحلو وها أن حلمها قد تحقق، وفكرت أنها مع تحقق حلمها قد فقدت أهلها، والآن تحلم بأهلها. من يدري؟ ربما سيتحقق هذا الحلم أيضا ويعود أهلها مثلما يعود السنونو واللقالق. وإذا عادوا ولم يعثروا عليها، فماذا يقولون عنها؟ كيف يعرفون أنها هنا؟ أليس من الأفضل أن تعود إلى قريتها وتسكن في خربة أهلها؟ ولكن، أليست هذه فكرة جنونية؟ كيف تعيش فتاة لوحدها، هل هي حية كي تقتات على الديدان والفئران، ثم كيف تصل وحدها إلى هناك؟ ألم يقل السيد بأن التجول ممنوع في المنطقة وأنهم يطلقون النار بصورة عشوائية على الإنسان والحيوان؟ ابتسمت في قرارة نفسها من مشروعها

الخيالي وجزمت أنهم إذا عادوا فعلا، فإن الخبر سينتشر في المنطقة كسريان النار في الهشيم. تركت شرودها بفرح داخلي بعثتها زقزقة العصافير التي تجمعت حول مورد الماء المخصص للعنزات والدجاج. ولما كانت قد اعتادت على مراقبة الطريق من على فوق السطح عند أهلها، لذا اجتازت السلم إلى السطح. كانت تفعل ذلك منذ الصغر. وفي بعض الأحيان تمزح مع أبيها زاعمة بقدوم سيارة مسلحة باتجاه القرية، فيركض أبوها لإخفاء بندقيته أو كيس التبغ المهرب في مكان أمين، وما تلبث هي أن تضحك وتصحح كلامها بأن ما رأته ليست سيارة بل بغل أحد الفلاحين. ويلحقها أبوها بشتيمة: "أيا كلبة بنت الكلب".

وراحت تجيل نظراتها بين بيوت القرية المتهدمة والآفاق اللانهائية التي تطرزها سلسلة الجبال حيث الصمت المطلق والسماء الزرقاء وخضرة الربيع اللامعة تحت أشعة الشمس الزاهية. وافتقدت قطعان الأغنام والماشية التي كانت فيما مضى تنتشر على مدى البصر. أرادت أن تسترسل في أفكارها وتتساءل عن سبب كل ما جرى، بيد أن صوت العجوز الهزاز قطع عليها سلسلة تفكيرها وهي تنادي:

" شيرين، شيرين، أين أنت؟"

ورأتها من علوها كيف أنها تبحث عنها هنا وهناك، دون أن ترفع رأسها إلى فوق. أجابت مبتسمة وهي تؤشر بيديها:

" أنا هنا يا جدة، فوق السطح"

رفعت العجوز رأسها متنفسة الصعداء:

" الحمد لله يا بنتي، خفت أنك اختفيت مثل الشبان الخمسة، هل رأيت شيئا من بعيد؟"

قالت وهي تهبط السلم بسرعة:

" كلا يا جدة، لم أجد أي شيء.."

أرادت الفتاة أن تقول شيئا بخصوص برج المراقبة فوق السطح، ولكن العجوز قاطعتها مقربة فمها من أذنها وقائلة بصوت خافت واحتجاج:

" أن الشيخ يعتقد بأنني مخرفة وأرى الأشباح، ثقي بالله العظيم والشيخ عبد الكريم

أن هؤلاء الخمسة جاءوا إلى هنا وظلوا ينتظرون إلى أن ملّوا وذهبوا، ويبدو إنني كنت نائمة حين تركوا البيت، هل أبدو أنا مجنونة يا بنتي يا شيرين؟ أنا لن أذهب معه إلى السيد ولن أتحرك من مكاني"

وراحت الفتاة تهدئها وتطلب منها أن لا تأخذ كلام الشيخ بجد وأنه لا يقصد إهانتها، بل حريص عليها. وحدثتها كيف أنه بقي ليلة واحدة فقط عند السيد كي لا تبقى هي لوحدها في البيت وأنه كان طول الوقت يفكر فيها. وأكدت لها أن الشيخ لن يرغمها بالذهاب إلى السيد لأنها هي التي تقرر مثل هذا الشيء.

علقت العجوز وهي تهز رأسها وتشتكي حالها:

" أجل، أجل، إنهم عثروا علي تحت الماء"

لم تفهم الفتاة كلامها، ولكنها طمأنتها بأنها منذ الآن فصاعدا يجب أن ترتاح ولا تمد يدها إلى أي شيء وسوف تقوم هي بإنجاز كل الأعمال المنزلية لوحدها.

١٢

بعد أيام قليلة من ترك الشيخ والصبي والفتاة للسيد، أحس الأخير وزوجته بفراغ غريب لم يسبق لهما أن عاناه من قبل. وقالت العجوز من وراء الحصير أنها لا تطيق الحياة بدون الفتاة والصبي. وأكد السيد أن النهار بوجودهما كان ينقضي بسرعة، وأما الآن فإنه يتمدد ويتمدد دون أن ينتهي. ولأول مرة يتكلم السيد مع زوجته في مثل هذا الموضوع. ودخلا في نقاش طويل حول مصيرهما وما إذا ثمة فائدة ترجى من بقائهما في هذا المكان المهجور. وكانت العجوز تعرف أن السيد لا يريد أن يسمع اقتراحها بالعودة إلى ديرة العشيرة، وأنه مصر على البقاء في هذه القرية التي يعتقد أن ساكنيها المرحلون سيعودون ذات يوم، فيعم الخير والبركة إذ ذاك، وأنه إذا كان قد عاش معهم في أفراحهم فينبغي عليه أن يشاركهم في أتراحهم أيضا.

كان السيد يحتسي قهوة الصباح متمددا في مكانه بالخيمة، دون أن يتناول معها أي شيء و دون أن يدري أن الدقيق قد انتهى منذ مساء أمس. وأن القهوة التي جلبها أولاد أعمامه في زيارتهم الأخيرة ستنتهي بعد أيام قلائل. وكانت العجوز التي انتقلت من وراء الحصير كي تتخذ مكانها جنب زوجها، لم تكن لها الرغبة في مكاشفة زوجها بالحقيقة. كانا يتكلمان مع بعضهما عادة والحصير بينهما. وإذ جاءت لتربض بالقرب منه، فلابد أنها تريد أن تقول له شيئا مهما، وهو يعرف ذلك جيدا. اعتدل في جلسته ملتفتا إليها:

" خير إنشاء الله"

قالت العجوز بتردد:

" ما أريد أثقل عليك سيد"

قال السيد بفضول:

" هات كلامك يا حرمة"

قالت بلهجة يائسة:

" الطحين خلص سيد، ما عندنا شيء يؤكل"

قال بصورة لا إرادية متصنعا اللامبالاة:

" الله كريم يا حرمة"

وبعد صمت قصير أضاف كما لو أنه عثر على شيء:

" هسع عدنه حق ننبش بالقرية يا حرمة"

ذكرته العجوز بكلامه الذي كان يكرره دوما بأن أخذ أي شيء من القرية يعتبر نهبا، وعرف أنها بكلامها هذا إنما تريد أن تضغط عليه للعودة إلى ديار العشيرة، ولذلك أكد لها بأن كلامه ينطبق على أولئك الذين يملكون مالا. وأما هم فلا ينطبق عليهم ذلك، لأنهما لا يملكان قرصة خبز واحدة وأختتم كلامه قائلا:

" ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة".

قام السيد من مكانه بخفة، طالبا من العجوز أن تجلب معها كيسا وتتحرك معه باتجاه القرية. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخلها دون أن يرافقه أحد من أهلها. وراحت العجوز تجرجر قدميها وراءه دون أن تتمكن من اللحاق به. وإذ هما يمشيان بصعوبة بين الأنقاض، راح السيد يشتم ويلعن الظلم والظالمين. كانت ثمة بيوت غير خربة تركها أهلها قبل ليلة الترحيل المشؤومة. زمجرت العجوز وراحت تتبرم لاستمرار السيد في المشي دون أن يدخل بيتا من البيوت الكثيرة التي مرا بها وهي تسأله ما إذا كان يبحث عن بيت معين. أجاب السيد أن هذه البيوت التي مرا بها كانت فقيرة أصلا، لا تملك شيئا قبل النهب، فكيف يكون حالها بعد النهب ثم أخبرها أن وجهته هي بيت المختار، فإن وجدوا هناك شيئا فخيرا وإن لم يجدوا، فلن يجدوا شيئا في مكان آخر. عند ذلك يجب أن يفكرا في مصيرهما بجد. قال السيد بعد أن وقف أمام باب منزل لم تمتد إليه يد الخراب:

" هذا هو بيت المختار"

تساءلت العجوز عن سبب بقاء البيت سالما وقبل أن تنتظر الجواب أردفت:

" وكيف تفتح الباب؟"

لم ينتبه السيد إلى سؤالها، بل مد يده من خلال الكوة وسحب المزلاج الخشبي

وأنفتح الباب. وقبل أن يخطو خطوة إلى عتبة الباب، ظهر كلب هزيل، شبه مشلول، تكاد عظامه تخترق جلده وهو عبثا يحاول أن ينبح. ويبدو أنه عرف السيد، إذ أنه حين كلمه بغية كسب وده، هدأ وراح يحرك ذيله خضوعا. قال السيد باحتجاج:

" مسكين الكلب، ميت جوع"

فهم السيد من حركات الكلب أنه يريد أن يقوده إلى مكان معين، فتبعه لمعرفة ما يريده. وكانت العجوز تخاف أن تقترب من الكلب، ولذلك ظلت بعيدة عنه. وقف الكلب أمام برميل كبير وراح يتشمم الصنبور ويجيل عينيه بين السيد والوعاء الفارغ الموضوع تحت الصنبور. التفت السيد إلى العجوز قائلا باستغراب:

" سبحان الله، الكلب عطشان"

فتح السيد صنبور الماء الذي تدفق بقوة ليصب في الوعاء. وسرعان ما هجم الكلب على الوعاء دافنا بوزه في الماء وهو يشرب بلهفة غريبة. وحين ارتوى، راح يركض في أنحاء الفناء ويدور حول السيد ثم قاده إلى غرفة الذخيرة، دافعا الباب برأسه. كان ثمة كيس جنب الجدار، سبق أن أحدث فيه الكلب ثغرة يبدو من خلالها الطحين الذي أقتات منه. وسرعان ما مد خطمه إلى الثغرة ليلتهم الدقيق، وكأنه يريد أن يشرح للسيد كيف أنه تمكن العيش من وراء هذا الطحين. كانت العجوز لا تزال تتردد وتخاف الاقتراب من الكلب:

" لا تخافي يا حرمة هذا الكلب يعرفنا، هات الكيس. ألم أقل لك أن الله كريم؟"

وضع السيد في الكيس عدة حفنات على أن يرجعوا غدا بكيس أكبر. وحين تركا المنزل، تبعهما الكلب. حاولت العجوز أن تعيده إلى البيت، بيد أن السيد قال انه إذا يرغب العيش معهم فليأت وغدا سيجلبون له حصته من الدقيق أيضا.

وفي الطريق إلى البيت راحت العجوز تكرر مكلمة نفسها:

" جدك ما خذلنا سيد.. جدك ما خذلنا"

ويجيب السيد بفخر:

" والنعم يا حرمة والنعم، مو حيف يخذلنا.."

وحين اجتازا طرقات القرية المليئة بالأنقاض وبدت لهم الخيمة المنصوبة خارجها،

توقف السيد فجأة والتفت إلى العجوز كما لو أنه يريد أن يستنجد بها، قال بلهجة آمرة وهو يجيل نظراته بين العجوز والخيمة:

" شوفي يا حرمة، سيارة عسكرية واقفة جنب الخيمة. إذا سألوك لا تجيبين طاري العجي والبنية، فهمتِ علي؟ أنت تظلين صماء"

أجابت العجوز بلهجة صارمة:

" أنا مالي شغل ويا الرجال"

وحين أحس الكلب بوجود السيارة، راح ينبح بالكاد.

ظن السيد في بداية الأمر أن الأفراد هم نفس الذين سبق أن جاءوه قبل أكثر من أسبوع، بيد أنه سرعان ما أدرك أنهم غير أولئك وعرف فيهم شخصا واحدا فقط، سبق أن جاء مع المفرزة السابقة. اجتاح كيانه خوف غريزي غريب لم يعهد به من قبل. ومما زاد في خوفه تصرف مسؤول الفريق البدين الأسمر بشاربين نازلين إلى جانبي فمه الغليظ، حيث لم يرد على سلامه، بل مد يمينه ببطء إلى مسدسه ووجهه إلى الكلب الذي فتح عليه النار وأرداه قتيلا. فكر السيد في نفسه، أن هذا الرجل الذي أهانه بقتل كلبه لابد ينتمي إلى عشيرة معادية لعشيرته، إذ أن تصرفه بقتل الكلب لا ينم إلا عن عداء مسبق، وأنه يجب أن ينال عقابه ذات يوم لهذا التصرف الشائن. سأله السيد بغضب:

" أنت من يا عشيرة يا رجل؟"

يبدو أن الرجل كان يتوقع مثل هذا السؤال ودون أن يفتح فمه صفعه بقوة على الجانب الأيسر من وجهه. سقط السيد على أثرها على الأرض ووقع الكيس من يده وتناثر الدقيق واختلط بدماء الكلب ووقعت غطرته وعقاله على الأرض. وراحت العجوز تولول وتحاول الهجوم على الضابط، بيد أن مرافقيه الأربعة دفعوها جانبا وهي تصيح:

" الله ينتقم منكم يا أولاد الحرام"

أراد السيد أن يقول شيئا، ولكن لسانه لم يسعفه. وقام من مكانه دون أن يساعده أحد وهو يلتقط من الأرض غطرته الخضراء وعقاله ويعيدهما إلى رأسه. قال الضابط وهو يخنزر في عيني السيد المتعبتين:

" إذا كان هناك من يوجه الأسئلة، فهو أنا، هل فهمت؟"

عرف السيد أن أقل نأمة منه تعرضه إلى الضرب الذي رأى أنه من المستحسن أن

يتفاداه، وقال بلا إرادة منهُ: " الله غالب"

كان الضابط لا يزال ممسكا بمسدسه، قال ساخرا وهو يلوح بالمسدس:

" كم عمرك يا شايب؟"

أجاب السيد متجاوزا غصة البكاء في فمه: " فوق السبعين"

ابتسم الضابط بسخرية وهو يعيد مسدسه إلى مكانه:

" حظك عدل، والله لو كنت سنة تحت السبعين، لتمددت الآن جثة هامدة جنب الفطيسة"

التفت الضابط إلى أحد مرافقيه، وكان أن أخرج هذا قيدا شده على معصمي السيد، وهو يقول بكبرياء:

" يا شايب، هل أنت سيد أم عميل المتمردين؟ أنت دوخت المخابرات؟"

تساءل السيد بحذر: " إلى أين تأخذوني؟ والعجوز، أين تبقى؟"

قال الضابط بصوت هادئ وكأن شيئا لم يكن:

" هناك إلقاء قبض عليك يا سيد وتهمتك هي السكن في المنطقة المحظورة والتعاون مع المتمردين عملاء إيران. سنأخذك إلى الهيئة التحقيقية الخاصة وهناك يتحاسبون معك، فإما لك أو عليك. والعجوز تأتي معنا أيضا. ألا تعلم أن السكن هنا ممنوع؟"

عندما اتخذوا أماكنهم في السيارة، أمر الضابط بفك يديه، محذرا إياه من أنه عند أقل محاولة للهرب، سيجري رميه.

في دائرة الإنضباط العسكري المقابلة للقشلة في كركوك، جرى تحقيق أولي مع السيد تم خلاله تثبيت هويته الشخصية التي أيدها بعض الضباط الصغار من ديرته والعاملين هناك، إذ أنه لم يتمكن من إبراز أي ورقة تثبت ذلك، الأمر الذي أثار الشكوك حول شخصيته وحول الأسباب التي دعته أن يعيش بالذات في هذه القرية. والمشكلة التي توقفوا عندها كثيرا هو عمره، حيث لم يتمكنوا من تثبيته إلا من خلال تقرير طبي، خمن كونه بين الخامسة والسبعين والثمانين من عمره. ولم يجر إطلاق سراحه بكفالة مالية، إلا بعد تدخل ضابط كبير من عشيرته، أكد بأنه مخرف وفي حالة عقلية غير طبيعية.

١٣

مع شروق شمس اليوم الثاني من تواجد الجميع في قرية الأشباح، بدأ نهار جديد محمل بعبق العائلة ودفئها في حياة الأسرة الجديدة التي بدأت تحيك خيوط الانسجام فيما بينها دون إرادتها. جمعتهم سفرة طعام الفطور الذي أعدته شيرين، دون أن تسمح للعجوز أن تتحرك من مكانها قائلة لها بأنها الجدة العزيزة التي يجب أن تركن للراحة. وكإستجابة عفوية لهذا الرجاء قالت العجوز أنها تتمنى من الله أن لا ينفرط عقد هذه العائلة ويحفظها إلى أبد الآبدين ولا يحرمها من نعمته. وارتاح الشيخ لكلمات العجوز التي أقر في نفسه أنها قضت أكثر من خمسين عاما من حياتها في خدمة أسرته بصورة متواصلة دون أن تركن إلى الراحة. وحين عرض الشيخ فكرة زيارة السيد على العجوز، اعتذرت هذه بحجة عدم تمكنها من تحمل عناء السفر بسبب ضعف ساقيها. تدخلت شيرين قائلة بأن الجدة تحتاج حاليا إلى الراحة التامة وإذا أحست ذات يوم بأنها استعادت قوتها، إذ ذاك يمكنها أن تقرر هي فيما إذا كانت تريد زيارة السيد أم لا:

" إننا لا يمكننا أن نجبرها على أي شيء "

قالتها الفتاة باصرار. ارتاحت العجوز للكلام الذي أخرجها من وحشتها الداخلية. وابتسم الشيخ بارتياح لهذا الاقتراح الذي وجد نفسه عاجزا عن رده بعد أن خرج من بين الشفتين الورديتين اللتين تبعثان السحر والطمأنينة في الجو الذي بدا له من قبل موحشا رهيبا. وأما الصبي فكان يتأمل عينيها السوداوين اللتين أغرم بهما منذ الوهلة الأولى، دون أن يدري ما إذا كانت عاطفته تجاهها هي عاطفة الأخ الأصغر تجاه أخته الكبرى أم أنها شيء آخر، صعب عليه تصوره. ولكن الذي يعرفه كل المعرفة هو أنه يحس بالراحة التامة حين يكون قريبا منها، وأنه لا يعرف كيف تلاشى الأسبوع الذي قضياه معا في خيمة السيد. وأنه حين يكون في حضورها لا يريد أن يتكلم، بل يتمتع بالسحر الذي حرره من الصور المرعبة التي انطبعت في ذهنه في تلك الليلة المشؤومة، ذلك السحر الذي لا يعرف ما إذا كان مبعثه كرامة السيد أم يد هذه الفتاة الدافئة، أم

كلاهما؟ المهم أنه يعرف جيدا بأن وجوده بالقرب منها ينسيه كل شيء يثقل رأسه.

كانت زوجة السيد تعامله، في أيام الخيمة الجميلة، كأي طفل صغير وتطلب من الفتاة أن تعامله أيضا كذلك، بل عليها أن تعتبره شقيقها الصغير الذي يحتاج إلى الرعاية ودفء الأم وتقول أنها ليست شقيقته الكبرى فحسب، بل يجب أن تكون أما له أيضا. ولذلك كانت تفرش فراشهما جنب بعضهما في الركن المسمى بالمطبخ. وأما الصبي فكان يتأرجح بين شعورين متناقضين لا يعرف على أيهما يستقر، شعور اعتباره طفلا صغيرا، وهذا ما كان يغيظه جدا، ولكن يمنحه حق الاقتراب الأكثر من الفتاة. وشعور كونه رجلا بالغا له شخصيته وأمانيه، ولكن يحدد سلوكه تجاه الفتاة بالتحفظ وعدم الاقتراب غير المشروع منها. ومما كان يقلقه هو أن تعتبره الفتاة فعلا طفلا صغيرا، فتتصرف معه من هذا المنطلق. وظل يعيش طيلة الأسبوع في الخيمة بهذا التفكير. ولكنه رأى من المستحسن أن يتصرف كطفل صغير كي يتمتع بالامتيازات التي تمنحها الطفولة. كان في داخله يفكر بها أو يتمنى أن يقترن بها كزوجة، بيد أن هذا التفكير يبدو له بعيد المنال وربما يبدو لها هي المخطوبة كمجرد أضغاث أحلام لطفل لم يبلغ بعد سن الرشد، فتنظر إليه بعطف وسخرية.

كانت المسافة بين الفراشين لا تتجاوز القدمين، بحيث أن يده يمكن أن تمس يدها أو أي جزء من جسمها تحت جنح الظلام، ولكنه كان يرتجف بمجرد التفكير في ذلك، يخشى أن يفقدها أو تفهمه بشكل آخر، بشكل غير بريئ، فتنبذه بحيث لا يمكنه فيما بعد تصحيح خطئه، لذلك يكفيه أن يتنفس نفس الهواء الذي تتنفسه هي. يكفي أن يكون بجانبها وهو يتأمل النجوم المتلألئة في السماء اللانهائية. مضت الليلة الأولى بأحلام جميلة بلا كوابيس. وظل يرهقه سؤال واحد: كيف تفكر هي؟ هل تعتبره فعلا طفلا صغيرا بريئا لا يفهم من أمور الدنيا شيئا؟ وقرر أن ينتزع منها الجواب، في الليلة الثانية أو الثالثة، مهما كان الثمن. استيقظ في اليوم الثاني بنشاط لم يعهد به من قبل، كان يحس بنفسه كما لو أنه يحلق في السماء. وكانت هي قد استيقظت قبله. وأحس السيد بحيويتهما التي أرجعها إلى تعاويذه وكرامته، فكلفهما أن يذهبا بعد تناول الفطور لجمع الكمأة على أن لا يبتعدا كثيرا عن الخيمة وينتبها لدخول سيارة ما إلى المنطقة. في الطريق حدّثها عن أحلامه الجميلة التي أزالت الرعب من قلبه وكيف أنه

أدخل في حلمه الخوف بمسدسه في قلب رجلين جاءا لإلقاء القبض عليه. وهنا افتعل حركة فمسك يدها بقوة، منتبها إلى ما إذا ستنسحب يدها أم لا. تركت يدها مرتخية في يده دون أن تسحبها وهي تحدق في عينيه الخجولتين وتبتسم. سألته ما إذا أطلق النار عليهما، فأجاب أنهما أطلقا ساقيهما للريح لذلك لم يطلق عليهما النار، فأجابت بأن الحلم يعني أنه رجل قوي. إنه إذن رجل وليس طفلا. هل هذا التفسير من اختلاقها هي أم أنه تفسير حقيقي يعتمد على كتاب تفسير الأحلام. وسألها عن ذلك وهو لا يزال يتمتع بدفء يدها التي أحس بتسرب شيء منها أشبه بالسحر. ضغطت على يده برفق قائلة:

" هذا ليس من اختلاقي يا رجل، إنه رأي المفسرين"

شعر الصبي بالانتصار، بيد أنه مع ذلك بقي قلقا، ولكن مشوبا بالفرح. وظل ينتظر قدوم الليل على أحر من الجمر. إنه إذن في نظرها رجل وليس طفلا ويحق له أن يتزوج حين يبلغ السادسة عشر من العمر، السن المقبولة للزواج في الريف بالنسبة إلى الرجال كما يردد دائما شيوخ القرية.

" أنت شارد الذهن يا بني، يا كامه؟"

قال الشيخ قاطعا سلسلة أفكار الصبي وأجابه هذا ناسيا الموضوع الذي تطرق إليه الشيخ قبل قليل:

" كنت أفكر في السيد الذي عالجنا بقدرته الخارقة"

اعتقدت العجوز أن الصبي يريد إقناعها بكلامه هذا للذهاب إلى السيد، فقالت بلهجة قاطعة بأنها تعرف أنه حفيد الرسول، ولكنها غير مستعدة الآن للذهاب إليه، لأنها لا تملك الطاقة الكافية لذلك. قبل أن يهدئها الشيخ، تدخلت شيرين مؤكدة لها بأن أحدا لا يجبرها على ذلك. وأضاف الشيخ:

" هل سمعت يا امرأة؟ إن كلام ابنتنا شيرين هو القاطع، ولا يحق لأي واحد منا أن يعارضه"

علقت العجوز بارتياح:

" بارك الله فيك يا وردة بيتنا"

قال الصبي في نفسه وهو يواصل شروده: "حقا أنها وردة بيتنا". وإذ هو يتأمل عينيها السوداوين العميقتين، عاد به تفكيره إلى أجواء قرية السيد. وأعاده خياله إلى الموضع الذي تشابكت فيه يداهما. ثم سحبت هي يدها برفق لتنبش كمأة شقت الأرض. وراحا يبحثان عن الكمأة إلى أن انتصف النهار وعادا إلى الخيمة دون أن يتبادلا كلمة واحدة. اعتقد الصبي في بادئ الأمر أن سبب صمتها هو غضبها عليه لتجاوزه حدوده، وعندما اقتربا من القرية سألها ما إذا كانت هي غاضبة عليه. ابتسمت بدلال قائلة بأنه ليس ثمة سبب يستدعي غضبها عليه وسألها بحيرة:

" لماذا أنت صامتة إذن؟"

" أفكر في أهلي"

قال كمن يريد أن يحسم أمرا ما:

" هل أنت تفكرين في أهلك أم في خطيبك؟"

" أفكر في أهلي"

" لماذا لا تفكرين في خطيبك"

التفتت إليه بابتسامتها التي تريها أصغر بكثير من عمرها الحقيقي قائلة:

" لأنني لم أعش معه ولم ألمس حتى يده، ثم أن السيد أنقذني من مرض التعلق به"

نزل جوابها كالصاعقة على رأس الصبي. ولم يتمكن أن يستنتج شيئا من هذا الكلام الذي لم يتوقعه، بيد أن كلمة واحدة ظلّت ملتصقة بذهنه مثل التصاق أثر ختم معلم المدرسة على ورقة نتيجة امتحانه السنوي، وهي " لم ألمس حتى يده". ترى، هل اعتبرت ملامسته ليدها أمرا جديا؟ هل اعتبرته فعلا رجلا؟ أم تصرفت معه كطفل صغير؟ هل أحست هي بنفس المشاعر التي تسربت من يدها مثل موجة سحرية بعثت الخدر في أعصابه؟ هل من المعقول أنها لم تحس بذلك؟ وإلا لماذا صرحت له بأنها لم تلمس حتى يده؟. لماذا تقول أن السيد أنقذها من مرض التعلق به؟

أراد الصبي أن يقفز ويطير من الفرح، بيد أن باعثا خفيا في أعماقه، صده عن ذلك وهبت غمامة من الحزن على قلبه الذي تسارعت دقاته بشكل غريب. انتبهت هي إلى أمره، فلامست خده بيمناها برفق وعطف. وانكمش الصبي على نفسه أكثر، إذ أحس

أنها اعتبرته بتصرفها هذا طفلا صغيرا لا أكثر.

وإذ هم مازالوا يدردشون على سفرة فطورهم، انتقل خيال الصبي إلى أجواء خيمة السيد وبالضبط إلى الموضع الذي عادا فيه، هو والفتاة من جمع الكمأة، حيث كان السيد واقفا أمام مدخل الخيمة بانتظارهما وهو يقول بارك الله فيكم سنشبع كمأة هذا اليوم. وبعد أن سلّما ما جمعاه إلى العجوز اتخذت الفتاة مكانها إلى جانبها لتساعدها في الطبخ، بينما أتخذ هو مكانه جنب السيد الذي بدأ يستفسر عن وضعه ومزاجه وما إذا يحس بتحسن ما، أجاب الصبي أنه يحس بأنه تخلص من شيء كان يعصر قلبه ويطن في رأسه وأنه سعيد جدا بوجوده عنده. ونصحه السيد أن لا يفكر في أشياء تثير عنده الألم، بل عليه أن ينطلق مثل عصفور طليق لا يفكر سوى في منقاره. وظل ينتظر قدوم الليل وشعر لأول مرة أن الزمن يتحرك ببطء دون أن يتوقف. وانشغل بعد الظهر بجمع الحطب مع الفتاة والبحث عن البيض بين خرائب القرية. وعند غروب الشمس خفق قلبه بشدة، إذ أن الليل قد اقترب فعلا وعليه أن يفكر في كيفية تطبيق خطته. وما الذي يتوجب عليه القيام به إذا لم تتجاوب هي معه. ترى، كيف يواجهها في اليوم الثاني وكيف ينظر في عينيها. ربما تعتبره فعلا مثل أخيها الطفل. وراح يفكر ويفكر دون أن يتوصل إلى حل، لذلك توصل في قرارة نفسه إلى القول: "الظلام هو الذي سيقرر كل شيء".

وفكر أن الظلام يختلف فعلا عن ضوء النهار. وتحت جنح الظلام يجب أن ينتزع منها الجواب، سواء بنعم أم لا. ولاشك أن جوابها سيكون صامتا بلا كلام مسموع. قد تضربه على يده بقوة وتدفعه عنها. إذ ذاك سينهار كل شيء وتنقلب حياته إلى جحيم. ولكن هل عليه أن يعلن يأسه عند أول إخفاقه؟ أم يعيد محاولته بشكل جديد؟ من أين جاءت هذه الفتاة التي هيمنت على مصيره بحيث أوقفته بين خياري الفردوس والجحيم. من الذي أرسلها إليه؟ الله أم الشيطان؟

عندما حان موعد النوم طلبت العجوز من الفتاة أن تفرش فراشيهما بعد أن تدثرت بالغطاء في مكانها. وكان السيد ينام عادة في مكانه ويتغطى بفروه الذي يرتديه في النهار. فرشت اللبادين جنب بعضهما كما فعلت العجوز ليلة أمس وألقت على كل واحد منهما غطاءا. واندسا في الفراش. أراد الصبي أن يكلمها ويسألها ما إذا كانت تراقب

النجوم مثله، بيد أنه آثر الصمت. وفكر في خطته. ومما زاد في شجاعته الظلام الدامس، حيث لا تلتقي فيه العيون ورأى أن أحسن وسيلة هي أن ينتظر إلى أن تنام، آنذاك يمكنه أن يصطنع حركة عفوية، يقوم من خلالها بوضع ساعده على صدرها أو يمسك يدها. ولكنه راح يغالب النوم الذي داهمه بوطأته الشديدة. ودون أن يقوم بتطبيق جزء من خطته، أحس بنفسه في الفردوس الذي وصفه المعلم في درس الدين بإسهاب. كان يستنشق أنفاسها ويرقص على موجاتها الأثيرية التي تتسرب إلى أعصابه وتنشر فيها الخدر. كانا يسبحان بين النجوم وهما ممسكان ببعضهما، كما لو أنهما يحيلان دون أن يفلت الآخر، ولكن سرعان ما فلتت يده وسقط على الأرض، فاستيقظ مذعورا. كانت الشمس تبعث أشعتها الدافئة وتسقط على مكان فراش الفتاة الخالي.

جلس هنيهة في فراشه يجيل عينيه الناعستين حواليه كما لو أنه يريد أن يستطلع الأشياء التي يراها لأول مرة، وهو يلعن في داخله نفسه والشيطان الذي قاده إلى سلطان النوم الشبيه بالموت. ويقول في سره بأنه فعلا طفل صغير غير ناضج وإلا لما أخذته سنة النوم بهذه الطريقة المذلة. وإن لم يكن طفلا صغيرا حقا لما تحول إلى جثة بالمقربة من فتاة جميلة يدعي أنه يحبها. لو كنت تحبها لتغلب عليك الأرق وتقلبت في فراشك ولم تهدأ إلا بعد أن وضعت يدك في يدها. ربما هذه آخر فرصة وقعت بيدك ولن تتكرر.

كانت الخيمة فارغة والثلاثة جلسوا يتمتعون بدفء الشمس في الخارج. لو لم تكن طفلا لما أهملوك بهذا الشكل. حين أنشغل الصبي بغسل وجهه بالماء المحفوظ في الإبريق المعدني القريب من الموقد، سمعته الفتاة، فدخلت الخيمة كي تصب له الشاي وتقدم له خبز الفطور. داهمته موجة عارمة من الخجل ولم يدر ما إذا خجل من نفسه هو أم خجل من الفتاة. وتحاشى أن ينظر في عينيها. وبدا مثل من اقترف إثما. سألته ما إذا داهمته الكوابيس في نومه. قال بصورة لا إرادية كما لو أنه يريد أن يخرج من مأزق:

" كلا، رأيت حلما جميلا، ولكنني بعد ذلك سقطت من السماء واستيقظت"

تساءلت بفضول عن حلمه. إذ ذاك قرر بسرعة أن يعوض عما فاته في الليلة الماضية

وراح يتأمل عينيها وهو يبتسم قائلا بصوت خافت كما لو أنه لا يريد أن يسمعه غيرها:

" كنا، أنا وأنت نسبح في السماء متشابكي الأيدي ومتعانقين، ولكن سرعان ما فلتت يدي وسقطت على الأرض ثم استيقظت مذعورا وراح مني الحلم الجميل"

لاحظ تورد وجنتيها وبدت له مثل صبية صغيرة خجولة طرقت برأسها وانشغلت بصب الشاي. ومر النهار في ذلك اليوم ببطء أشد من سابقه. وحين طلب من الفتاة أن تذهب معه للتمشي بين خرائب القرية للبحث عن البيض، امتنعت بحجة مساعدة العجوز، إذ أنها منذ أن حدثها عن حلمه استنتجت بأنه ليس طفلا كما اعتقدوا. وحين فكّرت في تصرفاته، أدركت أنه مراهق، قد يكون شديد الخطورة إذا سمحت له بالاقتراب منها. وعرفت من نظراته أنه معجب أو مغرم بها. وإذا كان هو الصبي الصغير المراهق يتصرف بتهور، فعليها هي أن تنتبه وتتمالك نفسها وإلا فإن حياتها ستنقلب إلى جحيم ولا سيما إذا أحس السيد أو زوجته أو الشيخ رمضان أو زوجته بوجود علاقة مشبوهة بين الاثنين، إذ ذاك يعتبرونها هي المذنبة التي بادرت لإغراء هذا الصبي البريء في نظرهم، ومما يزيد في الطين بله أنها مخطوبة ويعرف الكل بذلك، ولذلك ينبغي عليها أن تحمل فضيحتها معها وتختفي عن الأنظار، ولكن إلى أين؟

حين جنحت الشمس إلى المغيب واختفت وراء سلسلة الجبال الغارقة في حزمة الألوان المتضاربة على امتداد الأفق الشرقي وأقترب الليل بستائر الظلام التي بدأت من خلالها أولى النجوم بالظهور، لم يفرح الصبي كعادته في اليومين السابقين، بل أخبره هاتف من أعماقه أن ثمة شيئا في غير محله، الأمر الذي أسدل على قلبه غمامة من الخوف والحزن أشبه بتلك الحالة التي أصيب بها في تلك الليلة المشؤومة، فركن إلى الصمت وانكمش على ذاته وهو يفكر في الكوابيس التي داهمته في الأيام الأخيرة. وحين جاء موعد طعام العشاء، لم يمد يده إلى الأكل. وعندما ألح عليه السيد بضرورة الأكل الذي طبخ مع تعويذة خاصة لا يمكن الاستغناء عنها، تناول عدة ملاعق مرغما، ولكنه سرعان ما ركض إلى خارج الخيمة ليتقيأ ما أكله. ولولا أن مسكت به الفتاة لسقط على الأرض. أحس بحمى غريبة ومفاجئة تقتحم كيانه. لف السيد على معصمه اليمنى شريطا أخضر وهو يقرأ بعض التعاويذ ثم نقلوه إلى فراشه. وطلب السيد من الفتاة أن تبقى إلى جانبه وتظل تمسك يديه الباردتين. همست الفتاة في أذنه بصوت

دافئ وهي تدلك يديه برقة كما لو أنها تريد أن تصفح عن ذنب اقترفته:

" كامه، يا عزيزي لا تتألم، سأظل إلى جانبك طيلة هذه الليلة، أنت رجل قوي، شدد من عزيمتك"

كان السيد يسأل من مكانه بين فينة وأخرى عن صحته وما إذا كانت يداه ما زالتا باردتين ويطلب من الفتاة أن تقوم بتدليك صدره ورقبته وجبينه ويقول أن العرق إذا ترشح من جسمه، تكون حالته قد تحسنت. وأما الصبي فكان يتهادى في السماء السابعة وهو لا يدري ما إذا كان يحلم أم أنه الواقع حقا؟

أحست الفتاة أن الصبي قد وقع في غرامها، الأمر الذي أيقظ عندها عطفا آخر تجاهه هو غير العطف الأخوي لأخت كبيرة تجاه شقيقها الطفل. وشعرت أنها هي الأخرى بحاجة إليه وانهما يتممان بعضهما، بحيث أن الفراغ الذي أحاط بقلبها منذ فقدان أهلها وخطيبها يكاد يزول وأنها تجد نفسها في البيت الجديد أكثر التصاقا بهذه العائلة الجديدة التي تراها كما لو أنها عائلتها هي، بل غالبا ما تجد نفسها هي المسؤولة عن شؤون البيت، بدليل أن هذا التأكيد يأتي من جميع أفراد الأسرة. وراحت تتلذذ بهذه العاطفة الجديدة التي اقتحمت كيانها من خلال عنايتها بالصبي في خيمة السيد. وبدت لها الخيمة آنذاك أشبه بفردوس حب أزلي. كانت ترتاح له وتحس بالخدر والنشوة يتسربان من يديه الدافئتين إلى كل جزء من كيانها مباشرة. وتريد أن تبقى إلى جانبه فقط.

أهذا هو الحب الذي كانت تتحدث عنه صديقاتها في قريتها؟ كن يسألنها ما إذا كانت تحب خطيبها فعلا؟ ولكن إذا كانت لم تذق طعم الحب ولم يهتز قلبها له، فبماذا تجاوبهن؟ إنها لم تلتق بخطيبها لا سرا ولا علنا. رأته مرة واحدة فقط وبصورة خاطفة. إن الحب كما تقول أمها وجدتها إنما يأتي بعد الزواج أو ربما لا يأتي. وماذا يغيّر الحب في الأمر؟ هذا ما يقوله من لم يعرف الحب. والزواج الحقيقي كما يقول البعض يجب أن لا يستند على الحب. هذا هو كل ما كانت تعرفه عن هذا الشيء الغامض والساحر الذي يخدر الإنسان ويبعده عن الوحشة الداخلية والفراغ الممل ويجعله أن يعيش ليس لنفسه حسب، بل لإنسان آخر يعطيه ما تحتاجه روحه. وخلال الأيام الأربعة الأخيرة من وجودها في خيمة السيد عرفت أنها بدأت تميل إلى الصبي، بل

تحبه. وأن هذا الحب قد منحها الجرأة والشجاعة والتصرف الصحيح في الموضع الحرج وربما كان هذا الحب هو الذي أنقذها من شرودها نتيجة الصدمة التي أصيبت بها جراء فقدان أهلها وخطيبها. وكانت تتصرف أمام السيد وزوجته كما لو أنها أم الصبي. ولا شك أن الصبي قد أدرك هذه الحقيقة أيضا، لذلك كان هو الآخر حذرا في تصرفه ويلعب دور الطفل فعلا. ورنت في أذنها كلمات السيد الآمرة التي سنحت لها فرصة دق أبواب الحب من خلال تدليك يدي الصبي وظهره وجبينه. كان دفء الحمى يتسرب من كيانه إلى أعصابها، فتحس برعشة غريبة ولذيذة تجري مثل جدول رقراق من خلال جسدها. ومما كان يزيد في نشوتها تلك التنهدات التي يحاول الصبي كبتها. وفي اليوم الثاني تحسنت صحة الصبي. وكان يمكنه أن يترك فراشه، بيد أنه ظل في مكانه متظاهرا بالمرض كي يتمتع بدفء الحب دون وجل أو حذر. وفي الليل، تحت جنح الظلام الدامس، تمكن أن يقترب منها أكثر، دون أن تمتنع هي، بحيث تلاصق جسداهما واختلط الحلم باليقظة. وعرف من تحركاتها أنها لم تعد تعتبره صبيا صغيرا، بل رجلا متكاملا له المقدرة التامة على تفهم ماهية الحب. ورغم أنهما أصبحا تحت غطاء واحد ورغم شخير كل من السيد وزوجته، فإنهما ظلا حذرين، امتنعا حتى عن الإتيان بهمسة واحدة. بيد أن مخاوفه ما زالت توحي له أنها تفعل كل ذلك تنفيذا لرجاء السيد الذي يعتبره طفلا صغيرا، الأمر الذي كان يدفعه لاختبارها أكثر فأكثر وتجاوز الحد المسموح له.

وحين طوقته بساعدها بقوة وأطبقت شفتيها على شفتيه، أقتنع بأن المسألة قد خرجت من كونها مجرد لعبة عناية بمريض. إنه إذن يتمكن أن يتحدث إليها عن حبه في اليوم الثاني عند أول خلوة بعيدة عن أعين السيد والعجوز.

وقبل يوم من عودتهما، حيث جاء الشيخ لأخذهما، كلفهما السيد بجمع الحطب. وعندما ابتعدا عن الخيمة سألها الصبي بارتباك ما إذا كانت تحبه، فأجابت وهي تنظر إليه بعطف بنعم. بعد صمت غير قصير أضافت: " وأنت؟"

أجاب الصبي بخجل وهو يتحاشى النظر في عينيها:

" أنا أحببتك منذ الوهلة الأولى"

" ولكنني أكبر منك بكثير"

قال الصبي بلهجة المنتصر:

" ثم ماذا؟ كانت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أكبر منه بكثير أيضا"

قالت وهي تضربه على خده برقة:

" أنت إبليس يا كامه، تعرف كثيرا"

تساءل الصبي مرة أخرى وهو يمسك يدها:

" وأنت؟ هل تحبينني؟"

" لو لم أحبك، لما سمحت لك أن تتسلل إلى فراشي"

لم يجد الصبي كلاما يقوله غير الصمت الذي تلفعت به هي الأخرى. ومن خلال الصمت كانا يملكان الكون كله.

١٤

ذات يوم من أيام بداية نيسان كانت الشمس قد بلغت منتصف السماء حين صعدت الفتاة على السطح كعادتها لمراقبة الطريق، فوجدت من بعيد نقطتين تخلفان من ورائهما سحابة من الغبار. وحين دققت أكثر علمت أنهما باص وشاحنة. صاحت وهي تهبط السلم بسرعة:

" سيارتان، سيارتان، باص وشاحنة"

كان الشيخ جالسا في الهواء الطلق، يتمتع بدفء أشعة الشمس، منشغلا بلفافته حين سمع صوتها. نهض من مكانه بسرعة متوجها إلى السطح ليتأكد بنفسه من الأمر. كانت السيارتان ما زالتا بعيدتين. وبعد أن دقق النظر فيهما، قال هازا رأسه ومكلما نفسه:

" أولاد الحرام، إنهم رجال خضر آغا، جاءوا أخيرا للتنقيب عن الحبوب. إنهم لصوص النهار"

ولما رأى الفتاة وهي مذعورة ومرتبكة، مسك يدها مهدئا إياها ومواصلا بأن هؤلاء لم يأتوا من أجل البحث عنهم وتعقيبهم، بل جاءوا ليأخذوا الحبوب المخزونة في قرى المنطقة فقط، لذلك لا داعي للخوف. وقرروا أن تختفي الفتاة والصبي في المخبأ أما هو والعجوز فسيظلان رابضين في حوش الدار بانتظار الضيوف الثقلاء. ونصح الصبي الشيخ بأن يكون هادئا معهم، لأنهم لا مانع لديهم من الاعتداء عليه إذا تطاول عليهم. وطمأنه الشيخ بأنه سيكتم غضبه ويحاول أن يحصل منهم على بعض المعلومات وسوف لا يلومهم حتى إذا صادروا العنزات الثلاث وأمرهم لله الواحد القهار.

عندما اقتربت السيارتان من القرية، طلب الشيخ من الفتاة والصبي أن يلتجئا إلى المخبأ ولن يخرجا إلا بعد أن يعطيهما هو الإشارة. كانت الفتاة خائفة، انتابتها حالة هستيرية من التوتر والفزع الفجائيين، ولكنها سرعان ما هدأت حين اتخذت مكانها في المخبأ الذي سبق للصبي أن فرشه بلباد ووسادة. وكانت ثمة كوة وحيدة في أعلى الجدار ينبعث منها النور. حدثها الصبي، وهو يمسك يديها الباردتين، بأن هذه ليست

المرة الأولى التي يلتجئ فيها إلى هذا المخبأ. وحين هدأت حدثته هي الأخرى عن مخبأ أبيها الذي بناه خصيصا لإخفاء التبغ المهرب وأكدت عليه مرة أخرى ضرورة الإسراع ببناء برج للمراقبة فوق السطح. ولما كان الصبي لم يقرر بعد في أي البيتين سيستقر، لذا بقيت الفكرة بالنسبة إليه معلقة. وكان قد سبق له أن كلم الفتاة ذات مرة بهذا الموضوع وعن رغبته في الانتقال إلى بيت أهله المهجور، بيد أن الفتاة استهزأت من اقتراحه واعتبرته صبيانيا، ثم أن هذا يتناقض مع ما يدعيه بعدم الاستغناء عن قربها، وفي هذه الحالة لا يمكنها زيارته في بيته المزعوم الذي يستحيل عليه العيش فيه بمفرده. قالت له معاتبة وهي تسحب يديها من بين يديه:

" إذا انتقلت إلى بيتك، فلن أتكلم معك أبدا، هل فهمت؟"

" لن أنتقل إلى بيتي إلا معك"

وعاد فمسك يديها من جديد. وأما هي فراحت تداعب باطنيهما بأناملها الرقيقة.

عرفت العجوز أن فضول الشيخ لن يتركه يهدأ، إلا بعد أن يصعد على السطح ليراقب السيارتين عن كثب، منعته ماسكة إياه من ذراعه بقوة، قائلة وهي تريه بوابة الحوش: " يمكنك مراقبتهم من هناك"

وحين تمكن أن يحرر نفسه من سطوتها، اجتاز عتبة البوابة الخارجية، فأصبح وجها لوجه أمام أربعة رجال، ترجلوا توا من السيارتين، وتوجهوا إليه. وراح هو يتفرس في وجوههم باستطلاع واحدا واحدا، وهو يحاول أن ينقب في ذاكرته عن بعضها. وحين سلموا عليه بأدب، أجاب بفضول وهدوء: " من أنتم وماذا تريدون؟"

استغرب حين كلمه أحدهم مناديا إياه باسمه، دون أن تسعفه ذاكرته بمعرفته. ولم يعاتب نفسه لذلك في قرارة نفسه، بل عاتب الشيخوخة التي قادته إلى أرذل العمر:

" يا عمي رمضان، نحن لسنا جحوش ولا بيشمةرگة. نحن عمال نعمل بالأجرة لحساب خضر آغا. جئنا بأمر منه لنأخذ الحبوب المخزونة في بيوت المهجرين. ولا شأن لنا بك"

بعد أن زال خوفه وتأكد بأنهم لم يأتوا من أجل الصبي أو الفتاة، دعاهم إلى أخذ قسط من الراحة وشرب الشاي، آملا أن يحصل منهم على بعض المعلومات عن مصير

أهل القرية والقرى المجاورة. حين لبوا الدعوة وشربوا الشاي، قال الرجل المتكلم باسمهم، وبدا أنه هو المسؤول عن الفريق، أن خضر آغا يجب أن لا يعرف بأنهم شربوا عنده الشاي، وإلا فإنه سيعاملهم بقسوة ويكسر ظهورهم بالعصي. قال الشيخ وهو يتنفس الصعداء:

" من أين لي أن أرى هذا المجرم يا أولادي، أنا أعرف أنه لص يسرق حتى من شركائه"

وأطبق عليهم الصمت. وعرف الشيخ بفراسته التي لا تخونه بأن هؤلاء الرجال صادقون، فسمح لنفسه أن يطرح سؤاله الذي كان يشغله منذ الوهلة الأولى:

" أولادي، أريد أن أعرف منكم شيئا واحدا فقط، ألا وهو ماذا فعلوا بأهلنا وإلى أين أخذوهم وهل هم الآن أحياء أم موتى؟"

أطبق عليهم الصمت لفترة غير قصيرة وبدا الأمر كما لو أن أحدا لا يريد أن يتورط في الجواب. وظل الشيخ يجيل نظراته في وجوههم باستطلاع إلى أن خرق سائق الشاحنة الصمت قائلا:

" لولا معرفتي التامة بأن الكلام سيبقى بيننا لما فتحت فمي. عمي، تريد الحقيقة، أخذوا قسما منهم إلى مجمع الصمود وبني صلاوة وجمجمال والقسم الآخر تم نقله إلى الجنوب، إلى الصحراء وسمعت من بعض سواق الشاحنات أنهم رأوا بأعينهم، كيف قتلوا أعدادا هائلة منهم ودفنوهم في أماكن مجهولة. وإذا شاء أن حالف أهلكم الحظ وأخذوهم إلى تلك المجمعات، فستصلكم أخبارهم في كل الأحوال، ولكن طالما بقيت هذه الحكومة، فلن يعود أحد ممن نجا من الموت، لذلك لا داعي للانتظار يا عمي"

قال الشيخ وهو يمسح دموعه:

" هذا ما كنت أفكر فيه طيلة الوقت"

قال مسؤول الفريق وهو يشكر الشيخ لضيافته:

" إننا يجب أن نبدأ بالعمل، ويؤسفني أن نبدأ من هنا، ذلك أن فريقا آخر سيأتي بعد أيام ليتأكد من أننا لم نستثن أي بيت، وإلا ستكون عاقبتنا وخيمة"

وأضاف آخر محذرا الشيخ:

" إن ما نقوم به الآن لا تعرف به حتى الحكومة، لذا يجب أن نمسك لساننا"

قال الشيخ مطمئنا إياه: " أنا أسكن هنا يا بني بدون معرفة الحكومة أيضا ولا أحد أكلمه سوى الجن"

سأل مسؤول الفريق الشيخ بأدب ما إذا كان يعرف مكان مخزن الحبوب ويريد أن يدلهم عليه أم يقوموا هم بالبحث عنه؟ وجد الشيخ نفسه مجبرا على قول كذبة اضطرارية، دعا الله في نفسه أن يستغفره لفعله:

" أنا لست صاحب البيت، ابحثوا عنه بأنفسكم"

كان أحدهم يحمل كيسا يحتوي على بعض الأدوات. مد الرجل يده إلى داخل الكيس وأخرج مطرقة خشبية كبيرة وراح يخطو خطوات كبيرة، يطرق خلالها الأرض بالمطرقة. وعندما اقترب من الجدار الجنوبي للحوش، وقف في مكانه، راسما حوله دائرة وقائلا:"هنا". وسرعان ما بدأ الآخرون يستعملون معاولهم. وفي الوقت الذي أزالوا فيه القشرة الترابية بعناية وانشغلوا بإزاحة الطبقة التبنية وتعبئة الأكياس بالقمح ونقلها بسرعة إلى الشاحنة، كان يقف رئيس الفريق مع الشيخ ويحدثه بهدوء بأنه غير راض عن هذا العمل، ولكنه مضطر للقيام به لأن وراءه عائلة كبيرة يجب أن يوفر لها الخبز، وإنه إذا لم يقم بهذا العمل فإن غيره سيقوم به والأمور كلها في كل الأحوال بيد الله.

كان الشيخ يكاد لا يصدق عينيه وأذنيه، إذ أن عبارة "لا داعي للانتظار يا عمي" قد حولت جسده إلى قطعة خشب خالية من العواطف. وكان خفقان قلبه المرهق يزيد في تخشبه وجموده. وقبل أن تأتي لفافته في فمه إلى نهايتها، بدأ بلف أخرى بأصابع مرتجفة. حين أحس الرجل الواقف بجانبه بذلك، قدم له سيكارة أجنبية، بيد أن الشيخ أبى أن يأخذها بحجة أنه اعتاد على نوعية تبغه، وإلا فإنه سيصاب بالسعال.

صاح أحدهم من داخل الحفرة التي بلغ عمقها طول إنسان اعتيادي:

" اجلب الدرج يا رجل، إن هذه ليست حفرة قمح، بل بئر ماء"

وجلب أحدهم درجا خشبيا طويلا من الشاحنة وأنزلها في الحفرة. إذ ذاك أشعل رئيس الفريق سيكارته الأجنبية وقال قاطعا الصمت المطبق على الشيخ:

" إنهم حمالون متمرسون وعمال مهرة"

ثم اقترب من الشيخ وقرب فمه من أذنه قائلا له بصوت خافت:

" على فكرة، إن العيش في القرية ممنوع، هناك أمر برمي كل من يتواجد في هذه المنطقة التي تعتبر محظورة. ألا يوجد لديك قريب في المدينة يؤويك؟"

تذكر الشيخ كلمات السيد وسيارة الجيب التي جاءت مرتين إلى المنطقة وقال بصوت أجش يكتنفه اليأس:

" هل تعتقد إنني سأعيش ألف سنة يا بني؟ بيني وبين القبر خطوة واحدة فقط، سأكون شاكرا لو ركلني القدر وأوقعني فيه، إذ ذاك سأرتاح إلى الأبد"

عندما انتهوا من إفرا غ الحفرة، سأل الشيخ رئيس الفريق ما إذا كان بإمكانهم مسح كل البيوت هذا اليوم. أجابه الرجل بنعم، ذلك أن عماله يعملون بسرعة ومهارة، ثم أنهم لا يأخذون سوى النوع الجيد غير القديم. المهم أنهم يجب أن يفتحوا كل العنابر.

ودع الرجال الأربعة الشيخ بأدب وكأن شيئا لم يكن. اتخذوا أماكنهم في السيارتين متوجهين إلى بيت آخر لفلاح غني غير بعيد عن مسكن الشيخ. وأدرك الشيخ بفطرته أن هؤلاء يعرفون القرية بشكل جيد، إذ ليس كل فلاح يملك مثل هذا المخزن. ومشى بخطوات وئيدة باتجاه المخبأ الواقع بين الزريبتين ونادى على الفتاة والصبي أن يخرجا إلى النور ويأتيا لتناول طعام الغداء.

حاول الشيخ أن يتغلب على حزنه وتشاؤمه. وكانت العجوز تعتقد أن هؤلاء هم أولئك الرجال الخمسة الذين زاروها ليلا ثم اختفوا دون أن يودعوها. وراحت تصر على صحة رأيها وبأنها لم تر أشباحا بل رجالا حقيقيين، أجابها الشيخ كاتما غضبه:

" يا امرأة، يا عديمة العقل، إلى متى تظلين راكبة رأسك؟ إن الأشباح التي رأيتها كانت خمسة رجال طيبين وأما هؤلاء، فهم لصوص خضر آغا وعددهم أربعة وليس خمسة، هل فهمت؟"

قال الصبي محاولا إضفاء المرح على الجو المتوتر:

" كلام الجدة صحيح يا جد، كانوا خمسة، جاءوا كي يساعدوا اللصوص في حمل أكياس القمح وتسهيل مهمة السرقة"

قالت العجوز بقناعة:

" أنت تفهمني يا بني، يا كامه. يكفيني هذا"

ثم تشعب الحديث والاستفسارات ومدى خطورة هؤلاء على حياتهم وما ينبغي عليهم القيام به لعدم اكتشاف أمرهم. لم يبلغهم الشيخ بما سمعه حول مصير أهاليهم وتمكن أن يغلب تفاؤله على تشاؤمه مؤكدا بأن هؤلاء مجرد لصوص ليست لهم مهمات أخرى وهم أنفسهم خائفون من السلطة. والشيء المهم الذي ينبغي الإيمان به هو أن الأقدار بيد الله. ولم ينس أن يؤكد على الصبي والفتاة بالحذر الشديد ومراقبة الطريق باستمرار، ذلك أن فريقا آخر قد يأتي بعد أيام لتقييم عمل هؤلاء، هذه هي طريقة اللصوص الذين يسرقون من بعضهم البعض.

بعد انقضاء أكثر من ساعتين، دفع الفضول الشيخ للذهاب إلى الجماعة لمعرفة ما إذا تمكنوا فعلا من فتح عنابر كل البيوت. وقبل مغادرة البيت، نصح الصبي والفتاة بالحذر وعدم صعود السطح. وحين بلغهم سأل مسؤول الفريق ما إذا كانوا يحتاجون شيئا كالماء مثلا. شكره الرجل قائلا أنهم لا يحتاجون شيئا، ولكنه لا يعتقد أنهم يتمكنون هذا اليوم من إنجاز خطتهم، إذ أنه لم يتوقع وجود مثل هذه الكميات الكبيرة من القمح. علق الشيخ بأن المحصول في العام الماضي كان جيدا جدا، ذلك أن المطر قد سقط بما فيه الكفاية. وقال الرجل أن المشكلة هي أن الشاحنة قد امتلأت، لذلك سيسافرون اليوم على أن يعودوا غدا.

وإذا كان يحتاج شيئا فيمكنه جلبه معه. تنفس الشيخ الصعداء وقال أن السكر والشاي يكادان أن ينتهيا وأنه سيذهب الآن إلى البيت لجلب النقود. أبتسم الرجل مؤكدا أنه يمكنه أن يتسلم منه المبلغ يوم غد. واتفقا على أن يجلب له كميات من الشاي والسكر والتمر والرز والفاصوليا ومعجون الطماطة وغيرها من الحاجات الضرورية، وقال الرجل أنه سيسأل بعض أصدقائه ممن يعتمد عليهم من الطيبين ما إذا بإمكانهم إيجاد مكان له ولزوجته في إحدى التكايا، ذلك أن حياتهما هنا في خطر. شكره الشيخ لرأيه وأكد له بأنه يستحسن العيش هنا خاصة وأن زوجته لا يمكنها ترك القرية وأنه لا مشكلة له مع الحكومة ولا الحكومة لها مشكلة معه.

عندما عادت السيارتان إلى حيث أتتا، رجع الشيخ إلى منزله مشحونا بمختلف المشاعر. ورغم أنه فرح لتعهد الرجل بجلب المواد الغذائية الضرورية لحياتهم، إلا أنه لم

يتمكن من التغلب على بكائه حين وجد البيوت الخالية المهدمة تنهب من جديد. لقد بكى وحيدا وبصمت. وحين بلغ البيت ألقى نظرة على داخل الحفرة التي كانت تحتوي على كمية لا بأس بها من القمح. إذ ذاك عدل عن فكرته التي وضعها الشيطان في رأسه، ألا وهي سرقة ما يمكن سرقته من المسروقات التي لم يتمكنوا من أخذها بسبب امتلاء الشاحنة. وطرح عليه الصبي نفس الفكرة، بيد أنه نهاه عن ذلك بحجة تركهم كمية لا بأس بها من القمح في العنبر، مؤكدا له بأن السرقة لا يجوز إلا في الحالات الاضطرارية القصوى. وأن الله سوف لا يقتلهم من الجوع. ولما كانت الفتاة تقف على مقربة منهما وسمعت كلامهما، تدخلت بدورها مؤيدة كلام الصبي في جلب كمية من القمح الذي لم يتمكن رجال خضر آغا من نقله بسبب امتلاء الشاحنة، قائلة بأن الاحتياطي المتبقي عندهم من القمح قليل جدا. وكان اعتمادها هي على المخزون الذي أخذوه، لذلك فانهم إذا لم يحسبوا حسابهم، فسيتعرضون بالتأكيد إلى المجاعة. عندها سكت الشيخ ثم قال أن شيرين هي مدبرة شؤون البيت وقرارها هو الساري. وحين بلغوا البيت الذي لم يتمكن لصوص خضر آغا من نقل قمحه، علق الشيخ متهكما:

" لصوص يسرقون من لصوص، هذا هو مصيرنا"

قالت الفتاة وهي تأخذ حفنة من القمح:

" إننا أيضا يجب أن نعيش، والله وحده يعلم كم يطول بنا المقام بهذا الوضع"

" الله كريم يا ابنتي، الله كريم"

وانشغلوا بنقل القمح إلى مغيب الشمس.

في اليوم الثاني جاءت السيارتان في حوالي العاشرة صباحا لإتمام المهمة، ووقفتا أمام البيت الذي تركتاه يوم أمس. حمل الشيخ كمية من النقود وتوجه إلى البيت المعني. خشي أن يحسوا بعملية السرقة، ولكن لم ينتبه لذلك أحد. وأنشغل الرجال بعملية نقل القمح. وأما رئيس الفريق فذهب مع الشيخ إلى الباص ليسلمه المشتريات. وحين استلم منه المبلغ المستحق، قال الرجل بإعجاب:

" هل تدري يا شيخ رمضان أنك رجل مبارك؟ إن بركتك هي التي أنقذت حياتنا من القصف. كنت لا أعرف أن خضر آغا قد غامر يوم أمس بإرسالنا إلى المنطقة المحظورة بدون موافقة القيادة العسكرية. صباح هذا اليوم تمت الصفقة بالمناصفة بين الطرفين.

وبعد شهر تقريبا يبدؤون بالحصاد. إلى ذلك الحين لا خوف من القصف وبعد ذلك الله يعلم. ويجب عليك أن تفكر من الآن في إنقاذ جلدك، لأن بقاءك أنت وزوجتك بين هذه الخرائب مستحيل"

عاد الشيخ إلى البيت خائر القوى وهو ينوء تحت وأد الكلام الذي سمعه من الرجل. يا إلهي، ألا يكفينا العذاب الذي سلط علينا؟ ما هو ذنبنا؟ أخذوا أهلنا بدون وجه حق، بدون رحمة وأخذوا كل ما نملكه، وهاهم يأخذون المخزون من الزاد أمام أعيننا وغدا سيأتون كي يحصدوا ما زرعناه، لماذا يا رب؟ لماذا؟ وفوق كل ذلك لا يتركوننا أن نعيش بسلام. لنذهب أنا وزوجتي إلى بئس المصير، فإننا قد عشنا حياتينا، ولكن ما ذنب هذه الفتاة البريئة وهذا الصبي البريء؟ رحمتك يا إلهي، رحمتك، ولك الأمر والنهي.

عندما وصل بوابة البيت وضع الكيس المحتوي على المشتريات على الأرض وراح يدلك وجهه براحتيه، محاولا بذلك محو آثار الحزن والألم ثم توجه إلى الحوش وهو ينادي عليهم بأسمائهم واحدا واحدا كي يستلموا منه المواد مفتعلا الفرحة والسعادة. وراحت الفتاة تخرج المواد المحفوظة في أكياس النايلون الداكنة وتضعها جنب بعضها البعض بعناية. قالت وهي لا تصدق عينيها:

" أنظر يا كامه، معجون طماطة وفاصوليا يابسة، غدا سأطبخهما مع الرز، سنجعله عيدا"

وراح الصبي هو الآخر يبحث بين الأكياس:

" انظري شيرين، حامض حلو"

وأخرج من الكيس عدة كرات راح يوزعها عليهم. قالت العجوز وهي تتلذذ بمص الملبس:

" ربي لا تقطع منا نعمتك"

١٥

لم يتمكن الشيخ من إخفاء هواجسه ومخاوفه عن الفتاة والصبي. وبعد مرور يومين على حادث السرقة العلنية، التي اعتبرها الشيخ وقحة جدا، من قبل رجال خضر آغا وبعد الانتهاء من تناول طعام الفطور تحت أشعة شمس منتصف نيسان، قرر أن يبلغهما ما يجيش في صدره. انتظر أن تترك العجوز المجلس كي تتم المناقشة بهدوء دون أسئلتها وتعليقاتها الغبية. وحين قامت العجوز من مكانها، أرادت الفتاة أن تقوم هي الأخرى معها أيضا، بيد أن الشيخ أشار إليها بالجلوس. قال وهو يحاول أن يجعل لهجته طبيعية غير منفعلة:

" إن ما أعرفه وأحس به لا أريد أن أحتفظ به لنفسي، ويجب عليكما أن تعرفا كل ما أعرفه أنا، ذلك أن مصيرنا واحد. هذا الرجل الذي جلب لنا المواد من المدينة يعرف الكثير، ويبدو أنه إنسان طيب، علمت منه ومن أحد رجاله أن رجال الحكومة سيجلبون بعد شهر الحاصدات والدراسات لجمع محصول الحبوب وحذرني بأن العيش هنا يستحيل بعد ذلك، إذ أن المنطقة تعتبر محظورة يمنع على الإنسان العيش فيها"

وقبل أن يواصل كلامه علق الصبي كما لو أن الأمر ليس بجديد عليه:

" هذا ما نعرفه منذ أن زارنا الشبان الخمسة يا جد، هل نسيت بأننا قررنا البقاء هنا لأنه لا خيار آخر لنا؟"

شعر الشيخ بنوع من الإحراج لنسيانه ما سبق أن اتفق عليه،ولكنه أراد أن يبرر موقفه قائلا:

" لم أنس ذلك يا بني، يا كامه. ولكن هل كنت تعرف أنهم سيأتون إلى هنا بمعداتهم لجمع المحصول؟ من يدري؟ ربما سيأتون بالكرينات أيضا لتحويل القرية إلى أرض منبسطة. وهل تعرف ما سيفعلونه فيما بعد"

أطبق عليهم الصمت. وكل واحد منهم حائر بالإجابة على سؤال لا جواب له. قالت الفتاة بحيرة:

" ألم يقل الرجل شيئا عما سيفعلونه فيما بعد؟"

" كلا، كل ما قاله هو أن العيش بعد الحصاد سيكون مستحيلا، وأما ماذا يقصد بذلك فالعلم عند الله"

علق الصبي بلامبالاة:

" ليس من المعقول أنهم سيشغلون أنفسهم بهدم ما سبق أن هدموه، ثم إننا سبق أن ناقشنا مسألة المشي باتجاه الحدود وقررتما أنت والجدة بالبقاء هنا لعدم تمكنكما من ذلك وقررت أنا بدوري البقاء معكما، فما الذي تغيّر الآن؟"

ابتسم الشيخ وقال كمن تذكر شيئا منسيا:

" صحيح يا كامه، يا بني، نحن قررنا ذلك ومازلت مصرا عليه، ولكننا لا نستطيع أن نفرض ذلك على شيرين، إننا لم نسمع رأيها هي حتى الآن، ربما لها رأي آخر"

نظر الصبي إلى الفتاة منتظرا منها أن تفتح شفتيها الورديتين وعارفا بما يدور في رأسها.

قالت بلهجة صارمة أن حياتها ليست أثمن من حياة أهلها الذين لا تعرف عن مصيرهم شيئا، وأنها لن تترك هذا البيت وليست مستعدة للعيش عند الأقارب في المدينة، إنها ستظل هنا تنتظر ما كتبه القدر. قال الصبي بلهجة انتصار موجها كلامه إلى الشيخ:

" هل ارتحت الآن يا جد؟"

سحب الشيخ بنشوة كمية من الدخان من لفافته، وقال:

" ارتحت الآن يا بني، يا كامه، رغم أنني كنت أعرف جوابها. سنعيش ما كتبه الله على جباهنا، ويجب أن لا نخاف غيره"

واستغلت الفتاة فرصة المشاورة هذه كي تستعرض مقترحاتها بشأن تحسين وضمان حياتهم المشتركة وأخذ الاحتياطات للطوارئ غير المتوقعة: بناء برج صغير فوق السطح لمراقبة الطريق الذي تأتي منه السيارات، إعادة بناء المخبأ وجعله صالحا للسكن لفترة أطول، إعادة بناء الجدار المتهدم، جمع القمح المتبقي في قاع المخازن، القيام بجولة في البيوت والبحث عما يمكن الاستفادة منه من الأدوات الضرورية. قاطعها الشيخ مبديا ارتياحه لكلامها:

" أنت ربة بيت حقيقية يا بنتي، يا شيرين. تصرفي كما تشائين وما علينا سوى تنفيذ أوامرك، هل سمعت يا بني، يا كامه؟"

قالت الفتاة بحماس:

"لا يا جد، أنت والجدة لا تمدان أياديكما لأي شيء. أنتما سترتاحان. الشغل سنقوم به أنا وكامه فقط"

فكر الشيخ هنيهة ما إذا يبلغهما عما قاله سائق الشاحنة بخصوص مصائر أهالي القرية والمنطقة، ورأى أنه من المستحسن أن يعرفا به رغم أن وقعه سيكون شديدا عليهما، وأنه ليس من الإنصاف حجب ما يعرفه عنهما. وأدرك الصبي أنه يفكر في قول شيء ما، وقال كمن يعتذر ويحثه على الكلام:

" أنا قطعت عليك الكلام يا جد، اخبرنا عما يدور في ذهنك"

قرر الشيخ أن يقول الآن نصف الحقيقة، مؤجلا النصف الآخر إلى إشعار آخر:

" الخبر ليس مؤكدا، إنه مجرد ظن على ما أعتقد. قال سائق الشاحنة بأن هناك احتمال بأخذهم لأهالي منطقتنا إلى مجمع الصمود وبني صلاوة وجمجمال، هذا مجرد ظن. وإذا كان أهلنا فعلا هناك، فيمكن أن يتصلوا بنا، إذ أنهم يعرفون بوجودنا هنا"

انطبعت الأسماء الثلاثة في ذهن الصبي وانتابته قشعريرة غريبة هي مزيج من الفرح والحزن، الأمل واليأس والخوف والجرأة. وقالت الفتاة إن هذه الأسماء غير غريبة عليها، إذ أنها حين سافرت إلى المدينة لشراء جهاز العرس، سمعت بها من أقاربها الذين قضت عندهم الليل مع أمها. وكانوا حين يتطرقون إلى هذه الأسماء يتهامسون فيما بينهم خوفا من أن يسمعهم أحد من وراء الجدار. وكانت زوجة أبن عمها تقول إن الناس في المدينة يخافون أن يرفعوا أصواتهم، ذلك أن للجدران آذانا. قال الصبي بشرود:

" إنهم لا يتمكنون من الاتصال بنا، يجب أن نبحث عنهم نحن"

عرف الشيخ أنه ألقى حجرا في البحيرة الهادئة وأنه استعجل في نقل الخبر إليهما. كان عليه أن ينتظر أكثر، ولكنه اقنع نفسه بأنه لا يحق له الاحتفاظ بالمعلومات التي تهم الجميع لنفسه فقط، إنه بين قاب قوسين أو أدنى من الموت، من يدري، ربما سيتوقف

قلبه عن الحركة وينتهي كل شيء في أي لحظة ويدفن معه السر. ورغم ذلك قرر أن لا يفاتحهما بخصوص خبر نقل العوائل إلى الجنوب، ذلك لأنه بذلك سيحول حياتهم إلى جحيم لا يطاق.

مرّت عليهم فترة صمت غير قصيرة، احتاجت خلالها الفتاة إلى الانشغال بعمل ما. وفهم الصبي ذلك فقام هو الآخر معها. وعرف الشيخ أنهما في طريقهما للقيام بجولة في أنحاء القرية، فنبههما أن يكونا حذرين ولا ينسيا مراقبة الطريق. وكانت الفتاة والصبي قد اعتادا على القيام بذلك مع الشيخ، ولما كان هذا بطيئا في المشي ويعاني الصعوبة في الانتقال بين الأنقاض، لذا تركهما منذ أيام يقومان بجولتهما لوحدهما، ولا سيما لأن الفتاة يجب أن تكون في البيت قبل الظهر لإعداد الخبز والطبخ. ومنذ عدم خروج الشيخ معهما، بدءا يتمتعان بحريتهما، حيث يتمكنان أن يشبكا أيديهما ويعانقان بعضهما حتى أن الصبي تجرأ ذات يوم وقبلها من خدها. وكانت هي تقول دائما:

" حذار أن يرانا الجد، وإلا فإن كل شيء سينهار"

كان الصبي منبهرا بخصرها ونهديها ووركيها وكم كان يتمنى أن يراها عارية، بيد أن ذلك كان بالنسبة إليه بمثابة حلم بعيد المنال. ورغم أن الفتاة كانت لا تمنعه من ملامساته التي يوحي الصبي لها بأنها عفوية وبريئة، إلا أنه كان حذرا دوما، يخشى أن ترده بعنف أو تمنعه. كان فيما مضى، عندما كان فراشه بالقرب من فراشها، في خيمة السيد يتستر بالظلام، يمد يديه إلى كل جزء من جسمها دون حرج أو خجل ويظل ملتصقا بها إلى أن تهزه لذة مخدرة، تحس به هي أيضا، فترتعش هي الأخرى معه. والآن منذ أن جاءوا إلى هنا، خرجا من جنة الخيمة. هي فراشها جنب فراش العجوز وهو جنب فراش الشيخ وبينهما نصف جدار. لقد تم تقسيم البيت إلى قسمين، رجالي ونسائي. وحتى خلال النهار لا يتمكنان من ملامسة أيديهما. الفرصة الوحيدة المتوفرة أمامهما كي يتمتعا بشيء من العاطفة، هي جولتهما بين خرائب القرية. كانت أنوثتها الصارخة هي الأخرى بحاجة إلى أنامل دافئة ورقيقة تمر على يديها وأجزاء من جسمها، الأمر الذي يخرجها من كآبتها ووحشتها. كانت تعرف أن الصبي رغم وقاحته أحيانا، إلا أنه تعوزه جرأة وخبرة الشاب الذي بلغ سن الرشد. إنه ينبغي أن يكون

أكثر رقة معها. وأدركت أنها هي التي يجب أن تعلمه على ذلك.

كانا في كل جولة يقومان بها، يمران ببيت أهل الصبي للتأكد من وجود التراكتور في مكانه، ثم يعرجان إلى المدرسة التي بقيت بنايتها دون أن يمسها الخراب. ثلاث غرف كل واحدة منها تحتوي على صفين وغرفة للإدارة، وبعد أن يمضيان وقتا في غرفة الإدارة، يريها الكرة الأرضية ويحاول أن يشرح لها كيف أن كرتنا الأرضية تحتوي القارات الخمس وتدور حول الشمس وتريها اللوحات التي تعرض جسم الإنسان في حالاته المختلفة: الهيكل العظمي والعضلات والأعصاب، يأخذ قطعة طباشير ويتوجهان إلى الغرفة الثالثة التي كانت تضم الصفين الخامس والسادس. وتأخذ هي مكانها على رحلته بينا يكتب هو أسميهما على السبورة ويطلب منها، وهو يقلد دور المعلم، أن تقوم من مكانها وتعيد كتابة الاسمين. ولما كانت هي أمية لم تذهب إلى المدرسة، لذا كانت تعاني الصعوبة في مسك الطباشير. ويأخذ يدها بقبضته واضعا قطعة الطباشير بين سبابتها وإبهامها ومارا إياها على السبورة وهو يحاول أن يحتك بصدرها ووركها. كانا يعيدان العملية بشوق ورغبة في كل يوم.

قررت في نفسها هذا اليوم، الذي وجدته أنحس يوم منذ مجيئها إلى هنا، أن تغير الروتين، وإلا فإنها ستجن من جديد وتتيه في البراري. كان ثمة حوض في فناء المدرسة جنب البئر الذي يحتوي على رافعة يدوية تسرع من نقل الماء بالدلو. قالت له أنها لا تتحمل بعد، يجب أن تغتسل، فمنذ أن عادت من أقاربها في المدينة لم يمس الماء جسدها وقالت له أنها يجب أن تزيل آثار العادة الشهرية التي توقفت يوم أمس. ارتبك الصبي لكلامها، دون أن يفهم ما تقصده بالعادة الشهرية. وعلمت أنه لم يتعلم مثل هذا الشيء في المدرسة، فراحت تضيف إلى معلوماته أشياء جديدة وهي تقول بأنها هي المعلمة هذه المرة وهو التلميذ. وأراد الصبي الذي بهرته هذه الصراحة التي لم يتوقعها أن يحذرها من احتمال مجئ الشيخ المفاجئ، بيد أنه عرف أنه الآن يتمدد على لباده ومشغول بلفافته. وبدأت تسحب الماء من البئر بسرعة وتصبه في الحوض. ورغم معرفته بأن المعلمين كانوا يغتسلون في الحوض، إلا أنه لم يتمكن أن يتصورها عارية تغتسل أمامه. أراد أن يفعل شيئا كي يتغلب على توتره وانفعاله. طلب منها أن تترك له الدلو كي يساعدها في سحب الماء. أحست بانفعاله. طلبت منه أن يتركها وشأنها و رجته أن

يجلب لها قطعة الصابون الموجودة قرب المغسل في غرفة الإدارة. عندما جلب لها قطعة صابون بولوليف، تنفست الفتاة الصعداء، إذ أنها حين رأتها قبل أيام عند مجيئها لأول مرة مع الشيخ إلى المدرسة، تمنت أن تستحم وتغسل نفسها بها. قال الصبي وهو يريد الانصراف:

" خذي أنت حريتك. سأنتظر أنا في غرفة الإدارة"

قالت دون أن تلتفت إليه وهي مشغولة بسحب الدلو من البئر:

" هل تريد أن تتحول إلى طفل خجول؟ أم تريد أن تحتفظ بالأوساخ المتعلقة بجسمك؟ كلا، أنت تبقى هنا. أحتاجك كي تغسل ظهري، وأنا بدوري سأغسل ظهرك"

جمد الصبي في مكانه وهو لا يصدق ما يسمعه. تلعثم وأطلق بعض الكلمات غير المفهومة وبدا كما لو أنه أصيب بضربة جن. وضعت الدلو جانبا وتقدمت منه محيطة وجهه براحتيها، قائلة بهدوء:

" أنظر في عيني يا عزيزي وكن جريئا في وضح النهار أيضا. إننا فقدنا كل شيء وليس لنا أحد، وإذا كنا نملك اليوم الشيخ والعجوز، فغدا يودعاننا إلى القبر، ولكننا شئنا أم أبينا، نملك بعضنا البعض، هل فهمت"

لم يتمكن الصبي من فتح فمه، ولكنه طوقها بساعديه واحتوى صدرها النافر المكتنز. كان الماء قد وصل إلى منتصف الحوض الذي يتسع لثلاثة أشخاص. انبهر الصبي حين وجدها وهي تتعرى أمامه، نازعة ملابسها قطعة بعد أخرى وملقية بها جانبا على الأرض. ورغم الصمت المطبق وخلو المكان، كانت تتراءى له عيون الطلبة والمعلمين وهي معلقة في الفضاء بدون الأجساد التي توارت عن الأنظار إلى حيث لا يعلم إلا الله.

شعر هنيهة أنه يحلم أو أنه أصيب بتلك الحالة الغريبة التي تحولت فيها القرية إلى نور أزلي، توارى على أثره ظلام الليل؛ حيث أبناء القرية قد عادوا إلى مساكنهم. ولكن كلا، إنه لا يحلم ولم يصب بالجنون الذي أخذه الشيخ بسببه إلى السيد العربي. إنه الواقع بعينه، الشمس ترسل أشعتها الدافئة، وهاهي شيرين أمامه، عارية بلونها القمحي وقد أدارت ظهرها إليه وهو يمرر عليه قطعة الصابون بكل رقة. وهو إذ يصب عليها الماء بالدلو، لا يكتفي بغسل ظهرها الأملس فحسب، بل ينحدر إلى خصرها ووركيها متنقلا إلى بطنها، وهو تسيره ليست إرادته هو، بل قوة سحرية لا يعرف

مصدرها. وحين تحس هي بأنه يكاد ينتهي من غسل قسمها الخلفي اعتبارا من عنقها نزولا إلى كعبيها، تستدير بجسدها إليه ببطء، مطوقة رأسه بساعديها، بحيث يصبح فمه بين نهديها النافرين، تخدره رائحتها التي تختلط بأريج الزيتون . في تلك اللحظة التي أحس فيها أنه في فردوس حقيقي، داهمته فكرة كدرت مزاجه للحظة، وهي شعوره بأنها تعامله كطفل، وليس كرجل. أراد أن يقول لها شيئا، ولكنه تحسبا لعدم تكدير الجو، فضل السكوت. وحين أطبق شفتيه على حلمتها اليمنى، زال الكدر من مزاجه ولم يعد يحس بنفسه طفلا صغيرا. وأحس بأنها هي الأخرى لا تعتبره طفلا، بل رجلا له سلاحه الذي يمكنه أن يطعن به الهدف المطلوب، إذ أنها أحست به صلبا قويا يصطدم بساقيها ويكاد يخرقهما. لقد لمست ذلك بكل كيانها حين كانا يقفان وجها لوجه، ولكنها سرعان ما غيّرت من وضعها منتقلة إلى وراء ظهره كي تبدأ بتدليكه.

حين انتهيا من الاستحمام وارتداء ملابسهما، قالت الفتاة بشيء من الألم، بعد أن أحست بعقدته:

" أنت رجل بالغ يا كامه، ولكنك لن تتمكن من الزواج إلا بعد سنتين"

قال الصبي وكأنه كان يتوقع كلامها:

" أعرف ذلك، يجب أن ابلغ السادسة عشر، ولكن لا تنسي أن هذا عرف القبيلة في الأوضاع الطبيعية وليس في وضعنا الحالي"

نظرت إليه الفتاة بغنج وفرح وهي تتخذ مكانها على حافة الحوض:

" ماذا تقصد بذلك أيها التلميذ الشيطان؟"

قال وهو يحاول التغلب على خجله:

" أقصد، أقصد إنني أستطيع الآن أن أتزوج"

سألته بتحد: " ممن؟"

قال بعد أن أحس بتغلب شجاعته على تردده:

" منك أنت"

اتخذ مكانه إلى جنبها.

" ولكنني أكبر منك بكثير، إنني مثل أمك"

" كان النبي أصغر من زوجته بكثير. الحب لا يعترف بالسن. هناك أمثلة كثيرة في قريتنا"

" أعرف ذلك، في قريتنا أيضا. هل تحبني؟"

" سؤال غريب، ألم تحسي بذلك؟"

" طبعا، ولكنني أخشى أن تتزوج ثانية حين أكبر أنا؟"

" لن أبدلك بأي شيء"

وضعت رأسها على كتفه قائلة بحسرة:

" أعتقد إننا نهذي يا كامه، ولكن الهذيان أحسن من عدمه"

تنهد بعمق:

" كلا يا شيرين، إننا لا نهذي. كان معلمنا يقول دوما، لا يمكن تحقيق هدف بدون هذيان"

قاطعته وهي تقوم من مكانها بتكاسل:

" سنترك أمورنا بيد الله ولنر ما يجلبه لنا الغد. كل شيء بالقسمة والنصيب. والآن يجب أن نواصل جولتنا. نحن بحاجة إلى مجرشة يدوية، لأن البرغل المتبقي لا يكفي إلا لوجبتين"

طمأنها بأنه يعرف بيتين يملكان مثل هذا الشيء، ولكنه، قبل أن يدلها على البيت، قال لها أنه يريد أن يرجع إلى كلامه الذي لم يكمله بعد.

قالت كما لو أنها تعاتبه:

" وهل منعتك من الكلام؟ قل ما شئت"

" أقول، إننا تكلمنا حول الزواج، والزواج كما تعلمين يحتاج إلى عقد قران يقوم به ملا وشاهدان، وهذا الشيء غير متوفر إلا في المدينة. يعني إننا يجب أن نذهب إلى المدينة سرا. هل فكرت في هذا الموضوع؟"

قالت الفتاة هازة رأسها بسخرية:

" كەرەكە مەمرە بەهارە . لا تمت يا حمار جاءك الربيع"

وبعد هنيهة صمت، أحست أن الصبي قد استاء من كلامها، فأضافت محاولة ترضيته:

" كل شيء في وقته يا عزيزي، لا يمكننا أن نستبق الأحداث"

وواصلا سيرهما بين الأزقة الملتوية والأنقاض إلى أن بلغا بيتا لم يدركه الخراب. بدا لها أنه يعرف البيت. قال لها أن البيت يعود إلى أحد أقارب أمه، وأنهم رحلوا قبل الليلة المشؤومة بفترة غير قصيرة ويعتقد أنهم سافروا إلى إيران. كانت ثمة حديقة مسيجه في منتصف الفناء، حولتها الدجاجات إلى مزبلة. هجمت الدجاجات عليهما مستجدية العلف. وراحت الفتاة تكلم الدجاجات وتوعدها بالحصول على العلف حتى ولو كان في باطن الأرض. وفي الوقت الذي كان يدحرج فيه الصبي عجلتي المجرشه، عثرت هي على سلم خشبي معلق على الجدار. وطلبت منه أن يترك العجلتين ويساعدها في إنزال السلم إلى الحفرة التي أفرغها لصوص خضر آغا من محتواها. وسبق للصبي عند البحث عن المجرشه أن عثر على كيس من الشعير الردئ الذي يستعمل عادة كعلف، فأخرج كمية منها ونثرها للدجاجات الجائعة، وهو يطلب من الفتاة أن تترك الكمية الموجودة في قعر الحفرة لغذائهم، على أن يرجعوا إليها في يوم آخر. واكتفيا هذا اليوم بنقل المجرشة فقط إلى البيت، حيث راح كل منهما يدحرج أحد القرصين الحجريين. ورأت الفتاة أنه من المستحسن أن يجلبا الدجاجات كلها إلى منزلهم كي يتسنى لهم تقديم العلف لها بانتظام. حين بلغا البيت، تبين للفتاة أنهم لا يملكون القدر المطلوب لطبخ القمح بغية إعداد البرغل، فاقترح على الصبي أن يرافقه للبحث عنه. ولكي لا يجشما نفسيهما عناء البحث الطويل، أخبرهما الشيخ بأن البيت الوحيد في القرية الذي يملك مثل هذا القدر هو بيت الحاج خليل الذي لم يتعرض للهدم، بسبب تركهم القرية قبل الليلة المشؤومة. والبيت يقع وراء بناية المدرسة مباشرة.

فتحا باب البيت بسهولة وأول ما لاحظته الفتاة هو عدم وجود عنبر لخزن الحبوب، فاعتقدت أنهم نسوا دخول هذا البيت أو أجلوا نقل القمح إلى وقت آخر، بيد أن الصبي أخبرها بعدم وجود مثل هذه الحفرة في هذا البيت، ذلك أن الحاج خليل كان تاجر حبوب وأغنام. وأنه أحيانا كان يبيع قمحه كله في ساحة البيدر دون أن يجلبه إلى البيت وأن أباه أيضا كان يستعمل نفس الطريقة في العامين الأخيرين . وقال أن الرجل

كان ثريا يملك سيارة بيكاَب وتراكتور وقبل أن يهرب مع عائلته إلى جهة مجهولة باع كل شيء. قالت الفتاة وهي تدير عينيها في الحاجيات الكثيرة المتناثرة في أنحاء الفناء مثل عربات النقل والأدوات الزراعية:

" ولكن يبدو أنه كان يفكر بالعودة إلى بيته ذات يوم"

علق الصبي بصورة تلقائية:

" كلهم فكروا هكذا"

تساءلت الفتاة متحسرة:

" هل تعتقد أننا نرى أهلنا ذات يوم؟"

أجاب الصبي وهو يقود الفتاة إلى المطبخ:

" الأمر كله بيد الله"

سألته الفتاة ما إذا كان قد سبق له أن جاء إلى هذا البيت. أجاب الصبي أنه سبق له أن جاء إلى هذا البيت مرتين، مرة مع أمه عندما كان صغيرا ومرة مع الشيخ قبل أن يزورا قرية السيد العربي ويتعرفا بها، حيث قاما بجولة في كل أنحاء القرية ودخلا كل بيت لضبط محتوياته. ولم ينس أن يقول لها بأنه لا يزال لا يعرف سبب وضع علامة (X) على أبواب البيوت غير المهدمة. عندما أصبحا في منتصف المطبخ، تذكرت الفتاة أهلها وتصورت نفسها كما لو أنها في بيت أهلها، ووجدت الشبه كبيرا بين المطبخين. لم تتمكن من التغلب على دموعها. بدت لها الحياة كاملة في هذا البيت ومطبخه، سوى أن أصحاب البيت غائبون أو هم في رحلة لا تدوم طويلا. أنتبه الصبي إلى أنها تبكي بصمت. أحاط ساعديه بخصرها وهو يتأمل عينيها الدامعتين السوداوين:

" شيرين، أنت تثيرين حزني"

قالت وهي تمسح رأسه براحتيها:

" لولاك يا كامه، لتهت في البراري"

أدرك الصبي بغريزته أنها لا شك تذكرت أهلها وبيتها وأنها ربما تحن على الأقل إلى جدران البيت، وتمنى هو بدوره أن يرى منزلها وقريتها التي ترعرعت فيها. قال لها بلهجة الرجل الواثق من نفسه:

" شيرين، إذا كنت تحنين إلى بيتك وقريتك، فيمكننا أن نذهب ذات يوم إلى هناك، أنا أحب أيضا أن أرى البيت الذي نشأت فيه"

هزته مبتسمة بفرح: " هل أنت جاد في كلامك؟"

" وهل تعتقدين إنني أمزح معك؟ كل ما في الأمر أن نمشي ساعة في الليل ونعبر النهر. وأما العثور على البيت فواجبك أنت. هل أنت موافقة"

" أنا موافقة، ولكنني أخشى أن يمنعنا الجد من ذلك"

" هذا الموضوع سنبحثه في حينه، والآن اختاري القدر المطلوب"

كانت ثمة ثلاثة قدور كبيرة بمختلف الأحجام مسنودة على الجدار. وفكرت الفتاة أنها طالما تبدأ غدا بإعداد البرغل، فلتعده مرة واحدة في قدرين كبيرين، بحيث يكفي لسنة كاملة. وحمل كل واحد منهما قدرا وتوجها إلى البيت. وعندما أوصد الصبي الباب الخارجي، انتبهت الفتاة إلى إشارة الضرب المرسومة على الباب. سألها الصبي ما إذا كانت الإشارة تعني لها شيئا ما. قالت هازة رأسها:

" إنهم لا يتركوننا وشأننا. إننا يجب أن نبقى على حذرنا وحيطتنا وينبغي أن ننتهي من بناء البرج في أسرع وقت ممكن"

عندما بلغا البيت استقبلهما الشيخ الذي سبق أن أتم إعداد الموقد في الهواء الطلق وحشاه بالحطب ولما رأى القدرين قال أنه سيعد موقدا ثانيا، ذلك أنه اعتقد بأنهما سيجلبان قدرا واحدا فقط. وجدت الفتاة، طالما أن الموقدين جاهزان، فيمكنها البدء بالعمل فورا. منعها الشيخ بلهجة العارف بكل الأمور:

" كلا يا بنتي، يا شيرين. إشعال النار في النهار ممنوع. الدخان يعني وجود الحياة، فإذا مرت طائرة استطلاعية ستقصفنا فورا وتحولنا إلى لحوم مشوية أو فحم. ضعي القمح الآن في الماء لينقع وأما النار فسنشعلها تحت جنح الظلام"

عند ذاك عرفت الفتاة لماذا كانت العجوز تصر دائما على الطبخ في داخل الغرفة وفي الركن المسماة بالمطبخ. جلبت الكمية المطلوبة من القمح، وقبل أن تضيفها للماء، تقدم الشيخ وأخذ عينة راح يتفحصها بعناية قائلا:

" كلا يا بنتي، يا شيرين، هذا القمح من النوع (القندهاري)، إنه يصلح للخبز فقط.

اجلبي الكيس الآخر، فهو يحتوي على نوع (ره ش كول) الصالح للبرغل. على فكرة أن مذاق خبز (ره ش كول) طيب جدا، ولكن يجب استهلاكه حارا وفورا وإلا فإنه سيتحول إلى خشب"

قالت الفتاة للشيخ أنه لولاه لظلوا يأكلون طيلة العام برغلا سيئا.

كانت العجوز منذ اليوم الذي منعتها الفتاة من العمل، ترقد في مكانها لا تقوم إلا لقضاء الحاجة أو الصلاة وتتذمر من كونها تحس بالآلام في جميع أنحاء جسمها، وكان أن عاتب الشيخ الفتاة كونها علمتها على الكسل الذي هو سبب كل الأمراض وأكد لها أنها إذا ماتت إنما بسبب كسلها لا غير. وكان أن ردت الفتاة بأن لا خوف عليها، إذ أنها لاشك ستحس بالملل ذات يوم وتقوم من تلقاء نفسها للبحث عن عمل تشغل به نفسها.

وأما الصبي، فلكي يثبت أنه جاد في أخذ مقترح الفتاة لبناء برج المراقبة فوق السطح وإعادة بناء الجدار المتهدم، شد أذيال ثوبه على حزامه وراح يعزل بحماس بقايا اللبن المجفف في الشمس من بين مواد البناء المهدمة ويكومها فوق بعضها البعض ثم ينقلها إلى مقربة السلم الطيني، بغية نقلها فيما بعد إلى السطح. وحين انتهى الشيخ من إعطاء تعليماته للفتاة بخصوص إعداد البرغل، توجه نحو الصبي. وبعد أن اختار مكانا لإعداد الطين، بدأ بتنظيفه من بقايا مواد البناء المتكسرة. وحاول الصبي عبثا منعه من العمل، حيث قال بعناد:

" إن كنت تريد قتلي، فامنعني من العمل"

١٦

" إن جاءوا وخرّبوا قريتنا المهدمة من جديد فلا حول لنا ولا قوة وذلك هو قدرنا ومصيرنا اللذين يجب أن نتحملهما رغم أنوفنا. وإن لم يأتوا فإننا نكون قد ربحنا بتحويل قريتنا ليس إلى سابق عهدها فحسب، بل إلى نعيم يشكرنا عليه القادمون الذين لابد أن يأتوا ذات يوم، إذ أن هذه ليست المرة الأولى التي تتحول فيها قريتنا إلى خراب. إذا لم تخنّي الذاكرة فهي المرة الرابعة منذ الزمن العثماني"

قال ذلك الشيخ بحماس مستغربا للسرعة التي أنجز فيها الصبي والفتاة بناء برج المراقبة على السطح وتشييد الجدار وترميم سياج الحيارة المخصصة لزراعة البصل والمخضرات الأخرى وإزاحة أنقاض البناء من الحوش وإعداد الطين لتعمير المخبأ. كل هذا إلى جانب إعداد البرغل لما يكفي لفترة غير قصيرة وجمع بقايا القمح من قيعان العنابر التي سطا عليها رجال خضر آغا في واضحة النهار، ونقلوها إلى عنابره. كانوا قد اتخذوا أماكنهم في الهواء الطلق في ظل غرفة السكن، يتمتعون بشرب شاي العصر ويرسمون الخطط لتنظيف طرقات القرية من الأنقاض وإلقائها جانبا، على الأقل كي يتمكنوا من التحرك في أنحائها بسهولة. أضاف الشيخ مواصلا كلامه:

" إن هذه القرية لا تسترنا فحسب، بل هي أمانة في أعناقنا، يجب أن نعتبر كل بيت فيها هو بيتنا، نصونه ونعمره من جديد، بحيث أن أهل البيت إذا رجعوا، يجدوه جاهزا للسكن. ويجب أن نضع في بالنا أنهم لابد سيرجعون"

قالت العجوز كعادتها بتذمر:

" ما هذا الكلام يا رجل، دع الأولاد وشأنهم كي يرتاحوا، هل تريد أن تنصب نفسك مختارا على القرية؟"

وقبل أن يتكلم الشيخ، قالت الفتاة بأنهما، هي والصبي يجب أن ينشغلا بعمل ما، وأنهما لا يمكنهما الجلوس طيلة النهار بلا عمل، وإلا سيقتلهما الملل ووجهت كلامها للعجوز مضيفة:

" أنت نفسك بعد أسبوع من الراحة تذمرت من الفراغ وعدت إلى الطبخ وإعداد

الخبز، فماذا نفعل نحن؟ هل تريدين أن ننام ليلا ونهارا؟"

أبتسم الشيخ بارتياح:

" نعم، هي تشتغل ونحن ننام"

قال الصبي:

" يا جدة، لا تخافي علينا. إننا إذا فقدنا المتعة في الشغل، فسنتركه فورا. لا يجبرنا على ذلك أحد. إن النهار طويل، لا ينقضي إلا بالشغل"

قالت الفتاة بلهجة ودية واضعة يدها برفق على ساق العجوز:

" انظري يا جدة، إننا لولا البيوت الأخرى لما تمكنا من إنجاز أي شيء، القدور والمساحي والعربات كلها استعرناها منها، فهل يضير شيئا إذا خدمنا القرية كلها؟ إنها حاليا ملكنا شئنا أم أبينا"

قالت العجوز، وهي تريد أن تبرئ نفسها:

" افعلوا يا بنتي ما تشاءون، المهم لا تحمِّلوا طاقتكم أكثر مما تتحمل"

في خضم النقاش الطويل الذي دار حول خطط العمل وما ينبغي عمله وضرورة أسبقية البدء بدار هذا أو ذاك من أقرب المقربين، والذي احتدم بحرارة بين الشيخ والفتاة، ولاسيما بعد أن سكتت العجوز، كان الصبي ساكتا شاردا يراقب بعناية حركات الفتاة ونفور نهديها وعينيها السوداوين اللتين تلتفتان إليه بين حين وآخر عن عمد وغير عمد. في شروده هذا كان متواجدا بينهم بجسده فحسب، بيد أنه مع ذلك كان يعيش في نعيم قربها، ولكن في شروده الذي نقله إلى ما وراء آفاق بعيدة، إلى ثلاث جهات مجهولة تمنى أن يغامر بلقائها؛ الأولى، الأماكن التي تحمل أسماء بني صلاوة، جمجمال والصمود. والثانية، قرية حبيبته التي تضم بيتها. والثالثة، خضر آغا، كيف يعيش وأين؟.. فكر في تلك الأمور الثلاثة كثيرا، سواء في تجواله مع الفتاة في القرية أو عند انشغالهما بالبناء طيلة الأسبوع الفائت. ورغم انتباه الفتاة لشروده واستفساراها عما تفكر به، إلا أنه لم يقر لها عن أي واحدة منها.

كان الشيخ هو الآخر يرتاح للتحدث إلى الفتاة ساعات، دون أن يناقض رأيا لها مهما كان. كانت هي المحقة في نظره أبدا. ومنذ أن دخلت الفتاة هذا البيت، شعر

الشيخ أنه امتلأ حرارة وروحا حية، وأنه لم يعد ذلك البيت المقفر المهجور. إن عاطفة جديدة ملأت كيانه وروحه ومنحتهما قوة غريبة ونشاطا لم يعهد به من قبل. لاشك أنه الحب الأبوي أو العذري الذي لا يعرفه بالضبط، ولكنه شيء من هذا القبيل. لقد شعرت العجوز بانجذاب زوجها إلى الفتاة، ولكنها لم تجد في نفسها شيئا من الغيرة التي تغزو إحساس كل النساء بغض النظر عن أعمارهن، إذ أنهما، في كل الأحوال، يتعاملان مع بعضهما كأخوين لا أكثر. وهي تعرف أيضا بأن شجرة الصفصاف لن تثمر أبدا، فلم التحسر على شيء ميت، فات أوانه؟ والفتاة هي الأخرى، أحست بغريزتها بأن الشيخ ينجذب إليها. ومهما يكن نوع هذا الانجذاب، فإنه يمدها بقوة خفية للسيطرة على شؤون المنزل، الأمر الذي يشبع غريزة المرأة بهذا الخصوص. وهي إذن ليست مجرد ضيف أو دخيلة أو متسكعة أجبرتها الظروف للإلتجاء إلى هذا البيت، بل ربة بيت ومسؤولة رئيسية عنه.

بعد أن اتفق الشيخ والفتاة على أن يكون منزل أهل الصبي هدفا للترميم القادم، التفتت هي إلى الصبي، تستفسر عن رأيه بذلك. أجاب الصبي بصورة عفوية:

" عن ماذا؟"

سأل الشيخ: " أين كنت هذه المرة يا بني، يا كامه؟"

أجاب الصبي بشيء من التحدي:

" كنت أبحث عن أهلي وأفكر كيف يعيش خضر آغا وأين؟"

لم يرد الشيخ أن يثير هموم الصبي التي يعرفها، بل قال بمودة أنهما تباحثا أمر تعمير البيت القادم الذي هو منزل أهله. قال الصبي أنه مستعد أن يعمل معهما ليل نهار، ولكن ينبغي على الجد أن لا يبالغ في الشغل، لأن صحته أهم بكثير من أي شيء آخر. قامت الفتاة من مكانها قائلة أنها تريد أن تلقي نظرة من البرج إلى الأفق وتبعها الصبي كالعادة. وكانت العجوز قد تركت مكانها إلى الغرفة، وبقي الشيخ مستلقيا في مكانه. تعمدت الفتاة في الذهاب إلى البرج، إذ أنها أرادت أن تختلي بالصبي وتسأله عن تفكيره الجديد الذي أثار اهتمامها. جلست على الدكة الطينية دون أن تلتفت إليه، متصنعة إهماله وغضبها عليه. أحس هو بذلك. وضع يده على كتفها برفق وتساءل عن سبب غضبها عليه وما إذا كان قد أجرم بحقها لعدم انتباهه إلى كلامهما وما إذا كان

ممنوعا عليه أن يتمتع لدقائق بأحلام اليقظة. التفتت إليه بوجه جاد صارم لم يسبق له أن عهده فيها من قبل وقالت:

" من حقك أن تتصرف كما تريد، ولكن ليس من حقك أن تخفي عليّ ما يهمني أنا أيضا. إن ما قلته بحضور الجد، تفكر به منذ أيام. لماذا أخفيته علي؟"

أجاب مبتسما بود كمن كان يتوقع شيئا آخر، غير هذا الكلام:

" أكل هذا هو سبب غضبك علي؟ كنت أنتظر الفرصة السانحة كي أطرح عليك ما يدور في ذهني، ولكنني كنت أخشى أن تعتبري أفكاري صبيانية، ساذجة لا تستحق الاهتمام"

وضعت يده بين يديها وراحت تحدق في عينيه كما لو أنها تراقب طفلا صغيرا، قالت بصوت صارم:

" أنت رجل يا كامه، لاحظتك طيلة الأسبوع كيف تشتغل بدأب الرجال. حدثني عما يدور في ذهنك"

أجال عينيه من الأفق البعيد إلى عينيها القلقتين السوداوين:

" منذ أيام أفكر في أهلي.. وأهلك وأهالي كل المنطقة. أريد أن أعرف ما إذا كانوا فعلا في الأماكن الثلاثة التي ذكرها الجد؟ وأفكر في خضر آغا الذي شارك في تشريد أهلنا، إنه يجب أن يقتل وأمنيتي الثالثة هي أن أرى منزل أهلك"

كانت الفتاة تحلم بدورها عن هذه الأشياء ضمن حلم متشتت غير واضحة المعالم. كانت مجرد رغبة ضبابية تقف وراءها قوة مجهولة، مستترة ومكبوتة، يستحيل عليها الانطلاق من مكمنها والوقوف على أرض الواقع، رغبة، هي أشبه برجاء غريق يتشبث بقشة أو بطيف عابر أسرع من لمح البصر يعيده للحياة. وها أن هذا الصبي الصغير العاشق يضع كل تلك الأشياء في طبق، يقدمه لها على حين غرة. ماذا يمكنها أن تفعل كي يتحول الحلم إلى واقع؟ كيف تمنحه الطاقة التي يمكنه أن يستمد منها حركته؟ كيف يغذي حيويته كي تبقى ملتهبة دوما؟

رأت أن الأشياء التي يفكر بها الصبي أكبر من طاقته بكثير. وأنها يجب عليها قبل كل شيء أن توقف اندفاعها هي، وإلا سينطح الصبي، بكل ما أوتي من قوة، جدارا

صلدا يهشم جمجمته. أحاطت وجهه براحتيها قائلة بارتياح، وهي تدرك ما أخفاه وراء أفكاره:

" أفهمك يا كامه، ولكن من المستحسن أن نتحدث عن ذلك في وقت آخر. أنا أحلم مثلك أيضا. يجب أن أفكر في الموضوع بشكل أحسن"

قال كالمنتصر: " ولكنني أخشى أن يعرقل الجد عملنا"

" قلت لك إننا سنتحدث عن ذلك في وقت آخر"

تساءل الصبي بفضول:

" ولكن، هل أنت مع رأيي؟"

" قلت لك إننا سنتحدث في الموضوع في وقت آخر، وأنا مستعدة أن أذهب معك حتى إلى الجحيم"

كان البرج أشبه بشرفة مطلة على الفضاء من الجهة التي تأتي منها السيارات القادمة من المدينة. وفيما مضى، قبل أن تتحول المنطقة إلى جيب محظور، كان ثمة باص خشبي قديم يملكه عريف متقاعد، يتنقل بين القرى وينقل المسافرين الذين يشترون حاجياتهم الضرورية في المدينة ويعودون في نفس اليوم. وكان الفلاحون، ما أن يروا النقطة السوداء في الأفق البعيد، إلا ويعرفون ما إذا كانت السيارة هي باصهم القديم أم إحدى سيارات الشرطة أو مديرية انحصار التبغ، إذ ذاك يتصرف كل فرد بالشكل الذي تقتضيه مصلحته في إخفاء التبغ والسلاح والمال المهرب من وراء الحدود أو حتى إخفاء الصبيان الذين بلغوا سن الرشد تفاديا لأخذهم إلى التجنيد الإجباري.

كانت الشمس الجانحة إلى المغيب ترسل أشعتها الذهبية الواهنة على حقول القمح الصفراء التي تنتظر من يحصدها. قالت الفتاة وهي تتأمل الحقول المترامية على امتداد البصر:

" أهلنا زرعوا ويأتي الغرباء كي يحصدوا أتعاب غيرهم، هل الله يقبل مثل هذا العمل؟ لماذا يا إلهي؟ لماذا؟"

كان الصبي ينظر إلى جهة الغرب حيث جبل الإمام علي ويحلم بزيارة المدينة الواقعة وراءه ويفكر بطرق مضمونة تؤدي به إلى هناك، قال وكأنه يكلم نفسه:

" يا ليتني كنت أملك طاقية الخناس وأتنقل من مكان إلى آخر وأتحرك بين الناس، دون أن يراني أحد"

علقت الفتاة التي كانت تتأمل الجهة المعاكسة:

" أنت تستطيع القيام بكل ذلك دون أن تحتاج إلى طاقية الخناس السحرية. هل نسيت كلام السيد؟ إن قانون المنطقة المحظورة لا يشملك"

سأل الصبي بفضول:

" من يشمل إذن؟"

" ينفذ حكم الإعدام بمن تجاوز الخامسة عشر إلى سن السبعين. إنه لا يشمل الجد أيضا"

قال بتباه:

" بيني وبين الإعدام إذن سنة واحدة فقط، علي أن أنفذ خططي بسرعة قبل فوات الأوان"

لم تدر الفتاة ما إذا كان الصبي جادا أم هازلا في كلامه. وكانت تنتابها مشاعر متناقضة هي مزيج من الفرح والخوف والتوتر. ومما كان يرعبها هو خوفها عليه، خوفها من أن تفقده إلى الأبد وتبقى هي وحيدة لا شريك لها. ومن جانب آخر كانت تتمنى أن ترافقه بأي شكل من الأشكال إلى المدينة للاستفسار عن مصير أهلها. وأما أن تتركه يغامر لوحده، فمسألة غير صحيحة بالنسبة إليها. على الأقل يمكن أن يرافقه الجد إلى المدينة. على أي حال أنها لا تريد التفكير الآن في هذا الموضوع. ولذلك فضّلت تأجيل الكلام حوله إلى وقت آخر.

ورأت أن عدم استشارة الجد في مثل هذا الموضوع الخطير أمر غير وارد. هذا بالإضافة إلى أن الشيخ سيصاب بخيبة أمل قد تطيح بحياته. وقفت وجها لوجه قبالته، واضعة يديها على كتفيه وقالت:

" أنا عندي ثقة مطلقة بك يا كامه، ولكن لكل شيء وقته. كما قلت لك سنبحث هذا الموضوع في وقت آخر وبمشاركة الجد وبدون الجدة طبعا"

" ولكن لا تنسى أن الوقت أمامنا ضيق جدا"

أجابت وهي تسحبه من يده بإتجاه السلم:

" كلا، لن أنسى ذلك"

كان الشيخ لا يزال متكئا على وسادته، يدخن ويحدق في الفراغ وهو مستغرق في تفكير عميق. وحين هبطا السلم واتجها نحوه، استيقظ من شروده، سائلا كعادته ما إذا رأيا شيئا يلفت النظر. قالت الفتاة بسرعة:

" أجل يا جد، لقد آن أوان الحصاد"

" هذا ما كنت أفكر فيه يا بنتي، يا شيرين"

" ألا نحصد ولو جزءا قليلا من حصتنا"

جلس الشيخ في مكانه واضعا الوسادة في حضنه وأجاب:

" كلا يا بنتي، إني أتوقع مجيئهم في أي لحظة. إننا إذا حصدنا حتى كمية بقدر موطئ قدم، فسيشكون في أمركما وتبدأ التحريات. لا سامح الله أن يلقى عليكما القبض. لا أمان عند هؤلاء"

قال الصبي بتهكم محاولا إثارة الشيخ لمعرفة رأيه بخصوص أفكاره التي طرحها للفتاة، وهو لا يزال واقفا، في حين اتخذت الفتاة مكانها جنبه:

" هل نسيت كلام السيد العربي يا جد؟ ألم يقل بأننا أنا وأنت لا يشملنا قانون الرمي؟ أم أنك لم تتجاوز السبعين؟"

أجاب الشيخ بأنه تجاوز الثمانين ومع ذلك كاد العريف أن يقتله لولا تدخل ضابط شاب منعه من ذلك، وأضاف:

" إن هؤلاء يمسحون مؤخرتهم حتى بالقانون الذي كتبوه بأنفسهم يا بني، يا كامه"

قال الصبي الذي بدا فاقد الصبر:

" وإلى متى سنظل نحبس أنفسنا دون أن نتصل بأحد؟"

نظرت الفتاة إلى الصبي بعتاب، إذ أنها أدركت أنه لا يتمكن من تأجيل الموضوع إلى وقت آخر. ولم ينتبه الصبي إليها. وعرف الشيخ أن الصبي قد ضاق ذرعا من وضعهم وأنه يحن إلى أهله. وخاف أن تعود إليه حالته العصبية المرضية، لذلك فكّر في أيجاد

كلمات لا تثير هيجانه. وأطبق عليهم الصمت الذي لم يتمكن الشيخ خلاله من إيجاد الكلمات المناسبة، فوجه كلامه إلى الفتاة، يحثها على أن تبدي هي رأيها حول كلامه. ورأت الفتاة أن العجلة قد استبدت بالصبي وأنها لا تتمكن من تأجيل مناقشة الموضوع الذي يدور في رأسه، لذلك دخلت الموضوع مباشرة وفاتحت الشيخ بما يفكر فيه الصبي، وبذلك وضعتهما وجها لوجه. قال الشيخ بعد أن أطرق برأسه ناظرا في الأرض:

" إنك يا بني، يا كامه لك الحق كل الحق في البحث عن أهلك، دون الجلوس هنا مكتوف اليدين. وشيرين لها نفس الحق وأنا أيضا لي الحق لمعرفة ما حصل لأهلي. إن القدر لم يجرفنا معهم، بل حولنا إلى سجناء لهذه القرية الخربة المهجورة. هل يمكنك أن تقول لي يا بني، يا كامه ماذا نفعل؟"

أجاب الصبي باندفاع:

" سأذهب إلى المدينة ليلا وأتصل بأقاربنا هناك ثم أسافر إلى مجمعات الصمود وبني صلاوة وجمجمال. سأحمل هويتي المدرسية في جيبي وأتحرك هناك كما أشاء"

علق الشيخ باستغراب:

" بالليل وحدك؟"

قال الصبي بتحد:

" نعم بالليل وحدي"

" والطريق؟ ألا تتيه؟"

" الطريق أعرفه جيدا، لقد رافقت والدي عدة مرات. سأهتدي بالنجوم"

قال الشيخ بلهجة قاطعة:

" كلا يا بني، يا كامه. لن ادعك تترك القرية لوحدك. سأرافقك في رحلتك"

قالت الفتاة بصوت صارم:

" كلا، أنت ستبقى هنا يا جد. أنا سأرافقه"

خرجت العجوز من الغرفة وهي تحمل صينية العشاء منادية عليهم بالتوجه إلى المكان

المعتاد. قال الشيخ وهو يقطع النقاش:

" العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن، سنبحث موضوعنا في وقت آخر"

أضافت الفتاة وهي تقوم من مكانها:

" هذا ما اقترحته منذ البداية"

كان الشيخ منذ ليلة المصيبة الكبرى التي حلت بهم لا يفكر سوى في أشياء صغيرة لا تتجاوز دائرة محيط القرية؛ مثل البقاء فيها مع زوجته ومواصلة الحياة بانتظار الأهل الذين قد يعودون ذات يوم، والحفاظ على حياة الصبي والفتاة اللذين وضعهما القدر بين يديه. وأعتبر كل ما حصل شيئا مكتوبا في اللوح المحفوظ لا يمكن للإنسان أن يغيّره. كان ينتظر شيئا ما أو معجزة ما يرسلها الله من باب نعمته التي لن يسدها في وجوه البائسين. وكان أن ظهرت الفتاة من العدم وانتمت إلى العائلة، كي تنفخ فيها روحا جديدة، ولكن يبدو أن الأمور لن تسير كما صورها أو اشتهاها هو. وها هو الصبي، ربما بتحريك من الفتاة، يفكر في أمور أخرى لم تخطر بباله هو. إنه لا شك يفكر في قتل خضر آغا، دون أن يعرف من هو هذا الشخص ودون أن يعرف بأن بندقيته ستقتله هو قبل أن يشهرها في وجه هذا الإنسان المركب من الحيوانين الذئب والثعلب، ثم يريد أن يبحث عن أهله، دون أن يدرك خطورة العمل الذي يريد أن يقدم عليه ودون أن يعرف بأن من يسأل عن مصير المهجرين يكون مصيره الموت. وفوق كل ذلك يريد أن يركب رأسه لوحده أو يأخذ معه هذه الفتاة اليافعة كي تكون فريسة سهلة للذئاب البشرية. وفكر في نفسه، أجل؛ هكذا يجب أن يكون المراهق المغامر، وإلاّ فلا.

ظلوا يأكلون تشريب الدجاج بلذة وصمت، وحين انتهوا من ذلك بدءوا بشرب الشاي. ورغم أنهم سبق أن أجلّوا مناقشة الموضوع إلى وقت آخر، إلا أنه عاد وفرض نفسه عليهم بعد فترة انتظار لم تستمر أكثر من نصف ساعة. وجاءت فكرة العودة إلى الموضوع من جانب الشيخ نفسه، إذ أنه خاف أن تتغلب روحية المراهقة المندفعة على الصبي ويغامر بالسفر خفية ودون معرفتهم. ولما كانت المسألة مصيرية وتهم الجميع، لذا طلب من العجوز أن تأخذ مكانها جنبهم أيضا وتتنصت جيدا للكلام الذي يجب أن يناقش بشكل تفصيلي من قبل الجميع، قال وهو يجيل نظراته بين عيونهم:

" فكرت في الموضوع جيدا يا بني، يا كامه. أنت على حق، إننا يجب أن نفعل شيئا،

ولكن هذا الشيء الذي نريد أن نقوم به إنما هو مغامرة قد تؤدي بنا إلى الهلاك، هذا ما يجب أن نضعه نصب أعيننا"

سألت العجوز بلهجة احتجاج: " عن أي شيء تتحدثون"

نقلت لها الفتاة باختصار ما يريد الصبي عمله. علقت العجوز مشجعة:

" إنه أبن أبيه، إنه لا يقتحم.."

قاطعها الصبي، وهو يحاول أن يبدو أمام الفتاة رجلا متكاملا مقداما:

" أنا حياتي زائدة في كل الأحوال، خرجت من بين شدقي الموت، فماذا يهم إن مت في سبيل أهلي؟"

أبدت الفتاة إعجابها لكلام الصبي واستعدادها للذهاب معه وأنها مستعدة أن تموت معه. أحس الصبي بنشوة غريبة رفعته إلى السماء وذكرته بمشاعره في تلك اللحظات التي كانت تدلك الفتاة ظهره وهما عاريان تحت أشعة الشمس في فناء المدرسة. هزّ الشيخ رأسه بإعجاب وقال:

" لدينا مثل يقول – قسه هه زاره يه كيكى به كاره– الكلام ألف، بيد أن واحدا منه يفيد. سنذهب إلى المدينة، أنا وكامه كما ذهبنا إلى السيد، ولكن تحت جنح الظلام. لنا معارف وأقارب في المدينة. وهناك سأدبر موعدا للّقاء بخضر آغا، إذ أنه في كل الأحوال رئيس العشيرة. وبعد ذلك سنقرر ما إذا سنسافر إلى الأماكن الثلاثة أم لا؟"

تساءل الصبي بصورة عفوية:

" ستدبر لقاءا مع خضر آغا؟ هل فهمتك بصورة صحيحة؟"

هزّ الشيخ رأسه مبتسما:

" نعم يا بني، يا كامه، إنك فهمتني بصورة صحيحة. وبعد أن تتعرف عليه، يمكنك أن تقرر ما تفعله معه فيما بعد"

كانت الفتاة تعرف بأن المنطقة كلها تتألف من عشيرة واحدة، وأن هذا الرجل الأسطوري المدعو بخضر آغا هو رئيسها. وكانت لا تعرف بأن الصبي يجهل ذلك، لذلك قالت له باعتداد:

" إنه رئيس العشيرة فعلا يا كامه، إنه حاميها وحراميها"

ضحك الشيخ بصوت عال وعلق:

" أحسنت يا شيرين. خلال وجودنا في المدينة ستتعلم الكثير يا بني، يا كامه"

بعد صمت قصير سأل الصبي الشيخ عن موعد سفرهما. أجاب أنهما هذه الليلة سيبقيان في كل الأحوال في البيت ويمكن أن يحددا الموعد اعتبارا من يوم غد.

١٧

في فجر اليوم التالي وقبل أن يستيقظ الشيخ لأداء صلاة الفجر، سمع صوت دقات منتظمة على الجدار. واطمأن على أن الشخص الذي يلتجئ إلى هذه الطريقة من الطرق على الجدار، إنما هو صديق أو قريب يعرف أهل البيت وسبق له أن جاء إلى هنا، إذ أن اللص أو العدو لا يلتجئ إلى مثل هذه الوسيلة للإعلان عن نفسه. ورغم ذلك أحس بمسحة من الخوف تداهم قلبه. قام من فراشه في الظلام ووقف هنيهة يفكر فيما يفعله. كان الطرق على الجدار مستمرا. استيقظت الفتاة على أثر ذلك أيضا، وجلست في فراشها منادية:

" جدو، جدو، هناك من يطرق على الجدار، هل سمعت؟"

وقبل أن تنتظر جوابه أسرعت إلى الفانوس تشعله. أجاب الشيخ من خلال الظلام الدامس:

" لا تخافي يا بنتي، يا شيرين، لا شك أنه صديق لا ينوي شرا. أذهبا أنت وكامه إلى المخبأ وأنا سأتولى الأمر"

استيقظ الصبي هو الآخر وهرع إلى البندقية المعلقة على الجدار. حمل الشيخ الفانوس وخرجوا إلى الفناء الغارق في الظلام الدامس. أبى الصبي إلا أن يبقى وراء الشيخ شاهرا بندقيته في حالة استعداد. وعندما توجهوا إلى ما وراء الجدار، صاح الشيخ بصوت عال:

" من هناك؟ وماذا تريد؟"

أجاب صوت غير غريب عليه:

" نحن الخمسة أصدقاءك، جئنا لزيارة خاطفة فقط"

قال الشيخ بترحاب: " أهلا بكم، تفضلوا، تفضلوا.."

وبعد أن تعانقوا وتبادلوا التحيات، تذكر الشيخ كلام العجوز التي أصرت على أنهم سبق وزاروها في غيابه عندما كان هو عند السيد مع الصبي، ولكنه لم يصدقها، بل

أتهمها برؤية الأشباح. وحين اتخذوا أماكنهم في الغرفة رآهم في ضوء الفانوس وهم يرتدون ملابس شبه عسكرية وكل واحد منهم يحمل بندقية كلاشنيكوف ومسدس. وخرجت العجوز من بين الظلام وهي ترحب بهم بحرارة وتقول موجهة كلامها إلى الشيخ:

" أنت لم تصدقني حين قلت لك أنهم كانوا هنا في غيابك، هيا اسألهم هم بنفسك"

وحين راح الخمسة ينظرون إلى بعضهم البعض بتساؤل وحيرة، فهم الشيخ القصة وعرف أنه كان على حق، لذلك قال لهم بإشارة من رأسه وبصوت خافت لا تسمعه العجوز:

" دعوها وشأنها، إنها ترى الأشباح أحيانا"

قال أحدهم بلهجة جادة:

" إنها ليست الوحيدة التي رأت أشباحنا، هناك آخرون، رأونا نزورهم في بيوتهم دون أن نعرف بذلك. إن أشباحنا في كل مكان"

قال الشيخ بمزاح:

" ولكنكم الآن لستم أشباحا على ما أعتقد"

وضحك الجميع. ورغم أن الشيخ بدا مرحا سعيدا، إلا أنه كان يتغلب بالكاد على مخاوفه، ليس خشية على نفسه، بل عليهم جميعا؛ الفتاة والصبي والشبان الخمسة الذين لاشك أمامهم مهمة خطيرة لها علاقة بخراب المنطقة. وفكر، إن هؤلاء الملاعين أقوياء العيون، لا تخيفهم الأهوال ويتحدون حتى الثعابين في جحورها. وأحس في نفسه بأنه واحد منهم، بدليل أنه هو الآخر سوف يغامر مثلهم ويذهب إلى المدينة بمصاحبة الصبي، متحديا نقاط الحراسة المبثوثة حول المدينة. وسوف يواجه خضر آغا بجرأة ويحاسبه كرئيس عشيرة لم يتمكن من نصرة بني جلدته الذين أخذوهم في جنح الظلام. قال الشيخ محاولا استدراجهم إلى الكلام، بغية الحصول على بعض المعلومات التي قد تشبع نهمه، رغم معرفته أنهم عادة لا يثرثرون:

" أنا تصورت أنكم قد عبرتم الحدود، ولكن يبدو أنكم تريدون شيئا آخر"

قال أحدهم:

" تمكنا من إيصال عوائل كثيرة إلى ما وراء الحدود، المهم هو إنقاذ الأطفال والنساء والشيوخ، لأننا خسرنا بما فيه الكفاية منهم، وأما نحن الشباب، فلا نريد أن نكون من الضعفاء"

علق أبن الحاج مولود:

" إننا يا عم رمضان نريد أن نموت على أرضنا"

قال الشيخ بحماس:

" بارك الله فيكم يا أولادي، سوف يوفقكم الله. أهلكونا وجعلوها يوم قيامة علينا"

قال أحدهم بلهجة واثقة:

" هذه ليست أول قيامة يا عمي، سنخرج من هذه أيضا بإذن الله"

كان فضول الشيخ يحركه كي يلقي عليهم مجموعة من الأسئلة الكثيرة المتضاربة في رأسه، ولكنه تعلم من خبرته السابقة مع هؤلاء أن يكون حذرا، فتوجيه الأسئلة الكثيرة والدقيقة، تدفع بالمقابل إلى أن يشك فيه، هذا بالإضافة إلى أنه لا يريد أن يحرجهم كضيوف. ولذلك فضل الصمت، بيد أن الشيء الذي اقتنع به كل القناعة هو أنهم ضد الحكومة. وبعد تناول طعام الفطور، رأى أبن الحاج مولود، الذي بدا أنه هو المسؤول عن الجماعة، أن يبدي فكرة عن سبب وجودهم هنا:

" نحن لا نريد أن نخفي عنكم بأننا جزء من المقاومة السرية التي تمتد خيوطها إلى داخل المدن. لقد جئنا من (قره داغ) إلى هنا ونحن نمشي في الليل فقط ونقضي النهار في الكهوف أو بين خرائب عشرات القرى المهدمة والمحروقة. مهمتنا الحالية ليست القتال، لأنهم سيبيدوننا بالأسلحة الكيمياوية الفتاكة، بل أن نبلغ الناس البائسين بأننا أحياء وسنبقى على أرضنا رغم انفهم وعليهم أن لا ييئسوا. على فكرة إن إصراركم للبقاء هنا هو موقف شريف وجريئ، ولكن حاولوا أن لا يعرف أحد بوجودكم هنا. إننا نحتاجكم هنا، وإذا وافقتم سننام النهار عندكم ونترككم بعد مغيب الشمس أو سنلتجئ إلى أحد البيوت الخربة"

كان الصبي يتابع الكلام باهتمام وحماس، قال بلا إرادة منه:

" إنني أريد أن أعمل معكم، بندقيتي جاهزة وأعرف استعمالها"

سأله أبن الحاج مولود عن عمره، فأجابه بأنه سيبلغ قريبا الخامسة عشر. أبتسم محدثه قائلا إنهم سيحتاجونه بعد ثلاثة سنوات. أضاف الشيخ متهكما ومبتسما:

" إذ ذاك ستستحق يا بني، يا كامه، ليس حمل السلاح فحسب، بل نيل امرأة أيضا"

لم يكن الشيخ ضد فكرة بقائهم في بيته، بيد أنه فكر بإحتمال مجيء رجال خضر آغا للتأكد ما إذا كان الفريق السابق قد أدى واجبه على أكمل وجه، كما وأن هناك احتمال وصول رجال الدولة للحصاد كما بلغه سائق الشاحنة. ولاشك أن هؤلاء الخمسة سيستعملون أسلحتهم ويستميتون في الدفاع عن أنفسهم عند حدوث أي احتكاك، عند ذلك تبدأ المجزرة الحقيقية التي لا ينجو منها أي واحد منهم. أبدى لهم عن فرحته وموافقته لبقائهم عنده، ولكنه حذرهم في نفس الوقت شارحا لهم بالتفصيل مخاوفه وأسبابها واقترح عليهم قضاء النهار في المخبأ. شكره أبن الحاج مولود لملاحظاته ومعلوماته وقال أنهم كمسلحين لا يستطيعون الاختباء بهذه الطريقة التي تعتبر مشينة لشرفهم العسكري ولا يريد أن يتحول بيت الشيخ إلى ساحة لمصادمات محتملة لا جدوى منها، ولذلك سيلتجئون إلى بيت أهله نصف الخرب في الطرف الآخر من القرية. وتم الاتفاق على أن يقضوا نهارهم هناك، ويأتوا مساءً لتناول طعام العشاء عند الشيخ ومن ثم شد الرحال إلى الجهة التي يريدونها.

سألهم الصبي ما إذا كانوا يريدون الذهاب إلى المدينة، وما إذا كان بإمكانه مرافقتهم إلى هناك؟ أجاب أبن الحاج خليل بأن وجهتهم لا يعرف بها إلا الله وأعتذر عن عدم تمكنهم من أخذه معهم، ذلك أنه، كما قال سابقا، لا يمكنه القيام بمثل هذه الأعمال إلا بعد أن يبلغ الثامنة عشر من العمر، وأضاف:

" حاول أن تواصل القراءة والكتابة بدون معلم، نحن سنحتاجك فيما بعد"

وجد الشيخ الفرصة سانحة للتطرق إلى الموضوع الذي ظل يفكر فيه طيلة الوقت، وشرح لهم السبب الذي يدعو الصبي للتفكير بالسفر إلى المدينة وكيف أنه قرر مرافقته في ذلك وهدفهم هو الاستفسار ما إذا كان أهلهم متواجدين في المجمعات القسرية. وقبل أن ينهي الشيخ استطراده قال أبن الحاج مولود بأنه سبق أن أعطاهم في المرة السابقة بعض العناوين التي يمكن البقاء عند أصحابها والاستعانة بهم. وأنهما كشيخ وصبي في المدينة لا يلتفت إليهما أحد من منتسبي المخابرات أو الأمن، لكن المشكلة

هي كيفية الدخول إلى المجمعات، لأنها تقع تحت حراسة متشددة. نحن أيضا نحتاج إلى المعلومات عن مصير العوائل كلها وليست عن عوائلنا فقط. وإذا حصلتم على تلك المعلومات مهما كان وزنها، فيرجى إيصالها إلى أصحاب العناوين المذكورة. ثم نصحهما أن لا يدخلا المدينة ليلا، وإلا فإن حراس السيطرة سيرمونهما فورا بدون استفسار، بل عليهما الاحتماء بالجبل إلى أن ترتفع الشمس إلى كبد السماء، إذ ذاك يمكنهما المرور من أمام السيطرة بكل هدوء وبدون أي خوف.. أما كيفية العودة، فيجب أن يستعينا بصاحب البيت الذي يبيتان عنده.

ظلوا يتبادلون أطراف الحديث المتشعب ويشربون الشاي ويدخنون في جو عائلي فريد افتقده كل فرد منهم منذ فترة غير قصيرة. ورغم أنه لا وجود للتقويم في الريف وأن الساعات والأيام والأسابيع والأشهر، بل الأعوام تتداخل كلها في بعضها البعض ضمن زمن لا بداية له ولا نهاية، إلا أن الزمن يفرض نفسه بالتالي معلنا عن نهايته أو بدايته. الفجر، الشروق، الظهيرة، الغروب، المساء، الليل. الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء. كل تلك الأشياء غير المكتوبة، تشكل تقويما هائلا يخلط الشمس بالقمر ويربط الأرض بالسماء والنجوم بالأنهار والنهاية بالبداية. وإذ يتحرك الزمن في مكان آخر، في المدينة مثلا، يبقى هنا واقفا كالجبل الشامخ. الشيخ لا يحس بشيخوخته، ذلك أنه يظل صبيا ومراهقا إلى الأبد. والصبي لا يحس بصباه، ذلك أنه يظل كهلا يتبجح بكهولته أو شيخا يعتد بشيخوخته.

هكذا كانوا يفكرون في الجو العائلي الفريد. كان كل واحد منهم يهيم في لا نهائية التقويم غير المكتوب ويذوب في جمال الفتاة التي ظلت هادئة، تقدم لهم الشاي، دون أن تفتح فمها. حتى العجوز، المرأة المتخشبة التي علاها صدأ الخرف، تراها أشبه بفانوس أزلي يزيل ليس ظلام الغرفة فحسب، بل دياجير نفسها المكتئبة منذ ليلة الكارثة. والشيخ يراها مثل شمس تذيب جليد شتائه الأزلي.

والشبان الخمسة الذين حرموا من نعمة رؤية وجه نسائي، يتمنون مجرد التفاته منها تروي ظمأهم إلى نبع الماء الرقراق. والصبي، هو الوحيد الذي يملك الكون كله ويمتطي تقويمه المجنح. وعرفت الفتاة بأنها النبع الذي يمكن أن يروي ظمأ العالم كله، ولكنها يجب أن تحافظ على هذا النبع المهدد بالجفاف. كان يمكنها أن تتكلم وتساهم في

الحديث كأي واحد منهم، بيد أنها قررت أن لا تتكلم، ليس استهانة أو غرورا، بل تحشما وخجلا.

نسوا أن ستائر الظلام قد توارت في السماء الزرقاء الداكنة وأن الشمس قد أشرقت من وراء الجبال البنفسجية الغارقة في ضباب الشفق الوردي وملأت الدنيا ضياء. نسوا كل شيء، ذلك أنهم بلا إرادة منهم، ظلوا مشدودين بخيط متين إلى هذه الشمس الرابضة في منتصف الغرفة، وكل واحد منهم يتمنى أن يظل يتمتع بدفئها ويفنى من أجلها. ودون أن تفتح فمها الوردي، كانت تشير بعينيها الجميلتين إلى الصبي أن يقوم من مكانه ويقفز إلى السطح ليراقب الأفق من خلال البرج. وينساب الصبي مثل الريح إلى البرج. ويظل هنيهة واقفا وهو يحس بالفراغ وبأنه يفتقدها كما لو أنه لم يرها منذ ألف عام. أو أنها إذا بقيت لوحدها، ستفترسها الذئاب.

والغريب في الأمر أن الشبان الخمسة الذين التصقوا بأماكنهم، قد فقدوا حذرهم. ولم يهمهم ما إذا دهمت القرية من قبل رجال خضر آغا أو من قبل رجال الحكومة. أحسوا أن الفتاة قد تحولت إلى ينبوع يمدهم بشجاعة وإقدام غريبين، بل طائشين، يمكنهم بواسطتهما ركوب كل أهوال العالم. وأنسجم معهم الشيخ هو الآخر، دون أن ينتبه لمرور الوقت. لقد أسكرهم جمال الفتاة إلى حد الثمالة. ظلوا على وضعهم إلى أن بلغت الساعة العاشرة صباحا. كانت الفتاة ترتاح هي الأخرى لهم ولا تشعر بالملل إلى جانبهم. وأحس الصبي بذلك، ولأول مرة يشعر بشيء اسمه الغيرة. ودون أن يدرك كنه هذا الوخز، يشعر بنفسه ضئيلا قميئا أمام هؤلاء الرجال الأقوياء المسلحين المتميزين بالجمال ومفتولي العضلات. عليه أن ينتظر ثلاث سنوات أخرى كي يتحول إلى رجل حقيقي. إنه الآن في ربيع العام ١٩٨٨ ، عام النحس والكارثة وفقدان الأهل وخراب البيت، وعليه أن ينتظر حلول ربيع العام ١٩٩١ كي يبلغ الثامنة عشر، إذ ذاك يحق له أن يرتدي الملابس شبه العسكرية، ملابس البيشمه ركه ويحمل السلاح الذي يعجبه، بندقية، كلاشنكوف، آر بي جي أو مدفع هاون. وأنه، كما قال الشيخ، يحق له أن يمتلك زوجة أيضا. قال في نفسه مقلدا الفتاة:

" كه ره كه مه مره به هاره – لا تمت يا حمار جاءك الربيع"

ثلاث سنوات، بساعاتها وأيامها وشهورها وفصولها. آه، لو تمكن أن يقفز فوقها كلها

ويقطعها بقفزة واحدة فيتنكب البندقية ويمتلك شيرين إلى الأبد. ولكن يا ترى، هل تنتظره شيرين ثلاث سنوات. ولماذا تنتظره هو بالذات؟ من يدري؟ ربما أنها تعتبره طفلا؟ إنها لو اعتبرته رجلا لما تعرت أمامه ولما طلبت منه أن يغسل ظهرها أو تغسل هي ظهره. إنه ينبغي أن يفعل شيئا كي يثبت لها بأنه ليس صبيا قميئا، بل رجلا متكاملا يمكنه أن يفعل ما يفعله هؤلاء الشبان الخمسة.

ظل الصبي واقفا في البرج يسترسل في تأملاته ويراقب الأفق كما لو أنه يتوقع قدوم أحد، ولا سيما لأن الشيخ قد حذر الجميع من احتمال مجيء فريق الحصاد. بعد أن أمعن طويلا في الأفق، رأى حوالي خمس أو ست نقاط بعيدة تتحرك ببطء وتثير الغبار حولها. ظل هنيهة شادا عينيه إلى النقاط ليتأكد من سرعة حركتها باتجاههم أو ما إذا كانت واقفة. ألقى نظرة سريعة إلى فناء الدار. كانت الفتاة واقفة في أسفل الدرج، تنظر إليه مستفسرة ما إذا رأى شيئا.

أشّر لها بحركة من يده أن تصعد بسرعة، وعندما أصبحت الفتاة بالقرب منه، التصق بها قائلا:

" انظري، هل هم واقفون أم يتحركون نحونا؟"

قالت الفتاة مظللة عينيها بيمناها كما لو أنها تنظر من خلال ناظور:

" أرى ثلاث مكائن حصاد وشاحنتين وسيارة صغيرة. إنهم مشغولون بالحصاد ويعملون بسرعة كما لو أن أحدا يطاردهم"

حين ابلغهم الصبي بالخبر، صعد الجميع على السطح وراحوا يمعنون النظر في النقاط البعيدة التي كانت تتحرك في مكانها دون أن تتقدم باتجاههم. قال أبن الحاج مولود:

" إنهم جاءوا للسرقة وليس لشيء آخر، لا داعي للخوف"

وحين هبطوا السلم، علق الشيخ:

" إنهم سيحتاجون إلى عدة أيام كي ينتهوا من سرقتهم، الله ينتقم منهم"

وعاد الرجال إلى مجلسهم وكأن شيئا لم يكن. ولما أحس الشيخ بتعبهم، طلب منهم أن يتمددوا في أماكنهم ويناموا لأن أمامهم لاشك سفرة غير مريحة وأن الصبي

سيتخذ على عاتقه مهمة الحراسة. قال أحدهم:

" الحراسة هي للاطمئنان فقط، وإلا فإن الحكومة لا تفكر بوجود أحد بين هذه الخرائب. إنهم يعتقدون بأنهم أخلوا المنطقة كليا، ورغم ذلك فإن طائراتهم لا تكف عن القيام بالطلعات الجوية بين حين وآخر"

علق أبن الحاج مولود بتهكم:

" ذلك أن أشباحنا موجودة في كل مكان"

تمدد الشبان الخمسة في أماكنهم بعد أن استبد بهم التعب، وما لبثوا أن استسلموا للنوم العميق. وبعد أن ترك الشيخ الغرفة، طلب من الفتاة أن تعد لهم زادا يليق بهم، ولكن بصمت ودون إحداث ضجة. وقرر أن لا ينبههم إلى أن يستيقظوا بأنفسهم. سألت الفتاة الشيخ ما إذا كان بإمكانها الطبخ في فناء الدار، ذلك لعدم وجود خطر من قبل فريق الحصاد كما أكد الشبان. منعها منعا باتا مذكرا إياها بالخطر القادم من الطائرات الاستطلاعية:

" إنهم يقصفون كل شي متحرك يا بنتي، يا شيرين، يقصفون الدخان والحيوان والبشر، هل نسيت إننا نعيش في منطقة محظورة؟"

مع حلول العصر توقف فريق الحصاد عن العمل. وكانوا قد اقتربوا بعض الشيء من القرية، بحيث كان بإمكان الإنسان تمييز الرجال ونوعية المكائن وكانوا قد نصبوا خيمة سوداء. ويبدو أن الشاحنتين قد امتلأتا بالقمح، فتركتا المكان باتجاه المدينة تتقدمهما سيارة الباص الصغيرة على أن يعودوا في اليوم الثاني، إذ أن مكائن الحصاد الثلاث قد توقفت عن الحركة مرابطة بالقرب من الخيمة. وفي نفس الوقت كان الشبان الخمسة قد استيقظوا من نومهم العميق وراحوا يراقبون من فوق السطح عملية الحصاد مع كل من الشيخ والصبي. قال أبن الحاج مولود بألم وهم يهبطون السلم إلى الفناء:

" سوف يكون حسابهم عسيرا"

تناولوا طعام العشاء، الذي هو في نفس الوقت غداءهم، بصمت. ومع جنوح الشمس للمغيب تواروا إلى جهة مجهولة.

١٨

كان الصبي يُذكر الشيخ دوما بالسفر ويلح عليه بتنفيذ ما اتفقا عليه في أسرع وقت ممكن، بيد أن الشيخ قرر أن لا يترك القرية إلا بعد أن تنتهي عملية الحصاد وتخلو المنطقة من هؤلاء اللصوص ويطمئنه بأنه لن يغيِّر رأيه فيما اتفقا عليه، ذلك أن الصبي كان يخشى أن تطول تسويفات الشيخ ولا تؤدي إلى نتيجة إيجابية. وذات يوم، حيث انتهت حركة الحصاد واختفى اللصوص مع مكائنهم وسياراتهم، أبلغ الشيخ العجوز وشيرين بأنه هو والصبي سيغادران غدا القرية بإذن الله إلى المدينة لقضاء بعض الأشغال الضرورية. وكان الصبي يعتقد طيلة الوقت بأن السفر سيكون ليلا، بيد أن الشيخ أعلمه في آخر لحظة بأنه فكر مليا في الموضوع ووجد أن السفر في النهار أضمن وأسرع، ذلك أنه فكر في اتباع طريق قصير جبلي يتبعه المهربون، لا تبلغه السيارات. وأما إذا ظهرت طائرة في السماء، فما عليهما سوى الانبطاح على الأرض وعدم التحرك. وعندما يبلغان الجانب الآخر من الجبل، يكونان قد انتقلا من المنطقة المحررة التي تسمى حاليا بالمنطقة المحظورة، إلى المنطقة الحكومية. وفي أسوأ الأحوال، في حالة وقوعهما بيد الشرطة أو العسكر، فانهما سينظر إليهما ليس كأكثر من صبي صغير وشيخ طاعن في السن ولا يؤخذان كعنصرين خطيرين. ولم يعترض الصبي على رأي الشيخ، إذ أنه كان يمنحه الثقة التامة وله معه تجربة السفر إلى السيد.

في صباح اليوم التالي تناولوا طعام الفطور مع شروق الشمس. ووضعت الفتاة بعض الزاد المتكون من البيض المقلي والبصل والخبز في خرج صغير حمله الصبي. ولم ينس هذا أن يأخذ معه هويته المدرسية. واستغرب الصبي حين أتخذ الشيخ وجهة معاكسة للطريق المؤدي إلى المدينة. وظن أن الشيخ قد التبس عليه الأمر، فسأله ما إذا كان متأكدا من الإتجاه؟ أجاب الشيخ أنه يعرف الطريق مثل جيب سترته وإن الطريق الذي تتخذه السيارات يشكل قوسا كبيرا يلتف حول الجبل لمسافة غير قصيرة ثم بّين له أنه بالإضافة إلى هذا الطريق ثمة طريق ثالث يستعمل عادة في الليل. ولما كان هذا الطريق وعرا، لذا يسلكه الناس عادة في النهار. بعد مسيرة غير قصيرة بلغت حوالي

ثلاث ساعات وصلا سفح الجبل الوعر المطل على نهر (آوه سبى). أخذا قسطا من الراحة. قال الشيخ كما لو أنه يستشير الصبي:

" أمامنا طريقان، يجب أن نفكر أيهما سنسلك، طريق غير قصير يؤدي إلى قرية خضر المهجورة والمطلة على الشارع العام المؤدي إلى المدينة وطريق وعر قصير جدا يؤدي مباشرة إلى المدينة، ولكن بنقطة سيطرة متشددة"

سأل الصبي عن أيهما أسلم. مسح الشيخ لحيته مؤكدا بان الطريق الأول هو الأسلم وواصلا السير باتجاهه. عندما وصلا قرية خضر المهجورة التي تحولت إلى أرض منبسطة، استرعى الاسم انتباه الصبي، فسأل الشيخ ما إذا كان أسم هذه القرية لها علاقة بخضر آغا الذي يتعاون مع الحكومة، أجاب الشيخ:

" كلا يا بني، يا كامه، لا علاقة لهذا الاسم بخضر آغا. إنه مجرد صدفة، إن القرية تحمل في الحقيقة اسم القديس خضر ولي الذي ظهر في هذه القرية عدة مرات وهو يوزع الدقيق على المحتاجين في أيام العوز. كان يظهر ويختفي مثل الشبح، دون أن يعرف أحد من أين يأتي وإلى أين يذهب. ومن سخرية القدر أن يكون خضر آغا هو صاحب هذه القرية المقدسة التي لم يتمكن أن يحميها. إنه مطيتهم التي يركبونها كما يشاؤون"

احتار الصبي من كلام الشيخ الذي لم يستوعبه فتساءل:

" ولكنني لا أفهم يا جد! كيف يخرب الشريك بيت شريكه؟"

" ستعيش يا بني، يا كامه وسترى العجائب بعينيك، إذ ذاك ستفهم الأمور"

نبّه الشيخ الصبي لوجود ربية قريبة تعود إلى خضر آغا وطلب منه أن لا يتكلم إذا نادوا عليهما. قال الصبي بصورة لا إرادية:

" ولماذا ينصب هنا ربية؟ هل يريد أن يدافع عن قريته المهجورة الخربة؟"

طلب إليه الشيخ مرة أخرى أن لا يتكلم ولا يلتفت باتجاه الربيّة. خرج رجل من الربيّة المنصوبة على تل عال شاهرا سلاحه باتجاههما وصائحا بصوت عال:

" قفا"

ولما وقفا طلب منهما بلهجة آمرة أن يرفعا أيديهما. ولما فعلا ذلك، خرج رجل آخر من

الربيّة وبيده بندقية إنكليزية قديمة، وراح ينحدر من التل باتجاههما، في حين ظل الرجل الأول شاهرا سلاحه. كان الرجل القادم يرتدي الملابس الكردية ويلف رأسه بلفافة مشكي بنفسجي داكن ينحدر من جانبيه شعره المسترسل الذي يدل على أنه درويش. وراح يتمعن في وجه الشيخ كما لو أنه يعرفه وقبل أن يقترب منهما صاح ضاحكا وبصوت عال وهو يلتفت باتجاه الربيّة:

" انظروا إلى هذا الضبع الهرم، إنه لا يزال حيا"

وحين فتح الرجل ساعديه ليعانقه، قال الشيخ مستغربا:

" حمه صالح، أهذا أنت؟"

وخلال المعانقة بكى الرجل قائلا بصوت خافت:

" لقد هدموا بيوتنا يا عم رمضان وخربوها على رؤوسنا"

طلب الرجل الشاهر بندقيته من الدرويش بلهجة آمرة مصطنعة أن يرجع إلى مكانه ويدع عابري السبيل يواصلان سيرهما. بعد مسيرة غير طويلة بلغا الطريق العام المبلط الذي يربط كركوك ببغداد. وراحا يمشيان بمحاذاته. بدا كل شيء للصبي غريبا. السيارات بمختلف أنواعها وهي قادمة ورائحة بسرعة خارقة. الرعاة بقطعانهم المنتشرة على امتداد البصر. عمليات الحصاد الجارية هنا وهناك، سواء بمكائن الحصاد أم باليد. وبدت المدينة من بعيد كما لو أنها غارقة في الضباب. عندما بلغا مقبرة الإمام حسن، أخذا قسطا من الراحة بجانب حب الماء الذي نصبه بعض المحسنين لعابري السبيل وراحا يتناولان غداءهما. وكان التعب قد استبد بهما.

كان ثمة باص صغير جاء ركابه لزيارة أحد القبور المقامة حديثا. ويبدو أن ركاب السيارة الأربعة قد انتهوا من أداء مراسيم الفاتحة وهموا بمواصلة سفرهم، بيد أن أكبرهم في السن وقف يتأمل الشيخ والصبي وكيف أنهما منهمكان في الأكل. بعد أن تمنى لهما شهية طيبة قال لهما أنهما إذا كانا يقصدان طوز، فيمكنهما أن يأتيا معهم حيث لديهم أماكن شاغرة في السيارة. قفز الشيخ من مكانه كما لو أنه كان يتوقع العرض، شاكرا إياه وداعيا له بالخير والتوفيق. بعد حوالي ربع الساعة وصلت السيارة مدخل المدينة. ولما كان الازدحام شديدا بسبب نقطة السيطرة المكتظة بأفراد الشرطة والجيش، اضطر السائق أن يخفف من سرعة السيارة فإيقافها. عند ذلك ظهر جندي

يحمل رشاشة كلاشنكوف ومد رأسه إلى داخل السيارة وراح يتفرس في الوجوه كما لو أنه يبحث عن شخص معين ثم أومأ للسائق برأسه أن يتحرك. كان الصبي قد أخرج رأسه من الشباك يراقب الناس وأفراد الشرطة بفضول وكيف أنهم ينزلون بالقوة بعض الركاب من السيارات ويضربونهم ويخرجون أكياس السكر والشاي والرز من صناديق السيارات ويفتحونها ويلقون بمحتوياتها على جانبي الطريق. وصاح الصبي بصورة لا إرادية:

" جدو، جدو، أنظر.. إنهم يلقون السكر والشاي في عرض الطريق.."

التفت السائق إلى الصبي وأومأ إليه بإشارة حذر من يده أن يسكت وإلا سيحلون جميعهم ضيفا على السجن. علق الرجل المسن الذي دعاهما لركوب السيارة، موجها كلامه إلى الصبي بصوت خافت:

" يا بني، إنك في الجبل يمكنك أن تقول كل شيء وترفع صوتك عاليا، وأما هنا في المدينة فعليك أن لا تفتح فمك ولا ترى ولا تسمع"

قال الشيخ ملتفتا إلى الصبي:

" هل سمعت كلام عمك جيدا يا بني، يا كامه؟"

وعلم الصبي في تلك اللحظة بأن الصمت هو الآخر يدل على شيء ما، فلم يفتح فمه، بل هزّ رأسه بالموافقة. عندما مرّت السيارة بالمدخل المؤدي إلى محلة الجمهورية، رجا الشيخ السائق أن يتوقف. وكرّر الشيخ شكره لفضلهم عليهما.

بعد أن ترجلا من السيارة، ظل الشيخ واقفا في مكانه يلتفت يمنة ويسرة وكأنه يريد أن يحدد موقعه من الجهات الأربع. وكان الخوف يراود الصبي في مثل هذه الحالات، خشية أن يكون الشيخ قد أضاع الطريق. وظل هو الآخر ينظر حواليه باستطلاع وفضول بانتظار ما يقرره الشيخ. قال هذا وهو يدقق النظر في الشارع الذي تتفرع منه ثلاثة أزقة فرعية:

" مكان نزولنا من السيارة صحيح، والشارع هو نفسه، ولكنني لست متأكدا من الزقاق. أعتقد يجب أن نتوجه إلى الزقاق الثالث وهناك ينبغي أن نطرق الباب الخامس على جهة اليسار"

وسارا باتجاه الشارع الفرعي الثالث. وحين رأى الشيخ دكانا صغيرا للمرطبات على يمين مدخل الزقاق، صاح مثل طفل:

" وصلنا، هذا الدكان هو دليلي"

وراح يجر الصبي من يده باتجاه الدكان:

" اعطنا زجاجتين من هذا الليمون يا أبني"

سأل صاحب الدكان الشاب ما إذا يريدان شربهما هنا أم يأخذانهما معهما. أجاب الشيخ أنهما يريدان أن يرويا عطشهما فورا. فتح الشاب الزجاجتين وراح يلبي طلبات الشيخ في شراء بعض الحلويات والملبس والبطاريات. وفي الطريق راحا يتلذذان بمص الملبس. وفكر الصبي بالفتاة وتمنى لو كانت الآن هنا تتمتع هي الأخرى بمذاق المشروب البارد والملبس الحامض حلو. بعد مسيرة قصيرة وصلا البيت الخامس؛ باب خشبي جميل، حفرت فيه نقوش جميلة وبوابة حديدية مزيّنة بزخارف ملونة. بيت كبير أنيق بطابق علوي ونوافذ حديثة وواسعة. قال الشيخ باعتزاز وهو ينظر إلى البناية بإعجاب، بأن صاحب الدار من أحد أبناء العشيرة، كان فقيرا معدما، ولكن الله أعطاه كل شيء، المال والأولاد وهو يستحق كل ذلك لأنه إنسان مجتهد ويساعد الآخرين. حين همَّ الصبي بطرق الباب، منعه الشيخ وهو يريه بفخر زر الجرس في الجهة اليمنى. وطلب منه أن يضغط هو عليه، ولما فعل الصبي ذلك، انفتح الباب بعد هنيهة وظهرت زوجة صاحب البيت التي عرفت الشيخ، فهمت بتقبيل يده في حين قبلها هو من رأسها ثم رحبت بالصبي وقبلته من رأسه. وقادتهما إلى غرفة الضيوف حيث الأرائك الوثيرة وجهاز تلفزيون كبير وسجاد مفروش على الأرض تتوسطها مائدة زجاجية منخفضة. كانت المرأة صامتة وحزينة، تبدو كما لو أنها تعرف كل شيء عنهما. تركت الغرفة هنيهة ثم عادت متخذة مكانها قبالتهما وهي تقول:

"الله ينتقم منهم، الله ينتقم منهم"

تبادل الشيخ والصبي النظرات المتسائلة. وحين سألها الشيخ عن صحة زوجها الحاج رشيد، قالت إنه في السوق وسوف يحضر قريبا وواصلت:

" إنه يقضي معظم وقته هناك ويأتي إلى البيت لتناول طعام الغداء، هل تريدان انتظاره أم تحبان البدء بالأكل. إنه أحيانا يتأخر"

شكرها الشيخ قائلا أنهما أكلا في الطريق وجبة خفيفة، ولكنهما بحاجة إلى الشاي.

بعد انتظار غير قصير وصامت جاء الحاج رشيد. تعانقا بحرارة وهو يسأل ضيفه ما إذا كان يتذكر آخر لقاء لهما في القرية وقبل كم سنة كان ذلك. وقبل أن ينتظر الجواب قال انه كان يعلم بأن مصير المنطقة سيكون هكذا، ولكن الله كريم، إنه سينتقم منهم إن عاجلا أم آجلا. وبعد أن فكرا مليا في إيجاد جواب دقيق للسؤال الذي طرحه الحاج رشيد، تذكرا أنه ترك القرية نهائيا مع عائلته قبل ثمان سنوات وبالضبط عند بدء الحرب العراقية الإيرانية في العام ١٩٨٠ وعندما أراد الشيخ أن يصف له ليلة الكارثة التي حلت بالقرية، قام الحاج رشيد لجلب صينية الطعام طالبا منه أن يؤجل كلامه إلى الليل، حيث أمامهم متسع من الوقت لتجاذب أطراف الحديث.

أعتقد الحاج رشيد في بادئ الأمر أن الشيخ والصبي قد هربا من جحيم المنطقة كي يجدا ملجأً في المدينة، ففكر في إيجاد عمل لهما؛ الصبي يمكن أن يعمل في المخبز الذي يملكه والشيخ يمكن أن يعمل حارسا في أحد المخازن وبذلك يتمكنان من ضمان مصدر معيشتهما وسكنهما وشأنهما كشأن معظم الذين تركوا المنطقة قبل عملية ما يسمى بالأنفال. وعندما فاتحهما بالموضوع ومدح قرارهما بالبقاء في المدينة وإمكانية وجود العمل لهما، قال الشيخ بلهجة حازمة إنهما لم يأتيا إلى المدينة للبقاء والتسكع فيها، إنما جاءا للبحث عن أماكن تواجد أهلهما وأهل القرية وأنهما يريدان مقابلة رئيس العشيرة خضر آغا للاستفسار منه ما إذا كان بإمكانه مساعدتهما بهذا الشأن.
أطرق الحاج رشيد رأسه محدجا في الأرض، ثم التفت إلى الشيخ سائلا:

" وأين تريد أن تعيش يا عم رمضان؟"

" سنعيش في قريتنا كما عشنا فيها منذ الأزل"

انطبعت ابتسامة حذرة على وجه الحاج رشيد:

" أنا لم أسمع منك هذا الكلام. وأرجو أن لا تتفوه به أمام أي شخص آخر، ولا سيما خضر آغا. أنا علاقاتي به جيدة، أزوره ويزورني ولكنني أعرف كيف أتكلم أمامه. له مشاكله وظروفه الخاصة به أيضا. أنا أشك فيما إذا كان بإمكانه مساعدتك في هذا الشأن. مع ذلك يمكننا أن نذهب إليه متى ما شئت، ولكنني أنصحكما بالبقاء في المدينة"

قال الشيخ بتحد: " إذا هو يدعي بأنه رئيس عشيرتنا، فعليه أن يثبت ذلك"

" نحن الآن في زمن آخر يا عم رمضان، كل فرد يخاف على حياته، بما فيه خضر آغا نفسه، لقد رأيت بنفسك ما حصل للمنطقة"

قال الشيخ بلهجة يائسة:

" لمن نتوجه إذن؟ إننا نريد فقط أن نعرف شيئا عن مصير أهلنا ليس أكثر"

أطبق عليهم صمت عميق، أنشغل خلاله الشيخ بلف لفافتين، وضع إحداهما في علبة فضية يحملها في المناسبات فقط ثم قطع الصمت مستفسرا الحاج رشيد ما إذا يعرف شيئا عن مجمعات الصمود وبني صلاوة وجمجمال. أجاب الحاج رشيد بحذر بأنه يعرف هذه المجمعات، ولكنها قديمة ولا تحتوي على أهالي منطقتهم وأن نبش مثل هذه الأسئلة الخطيرة لا يجلب سوى الشؤم ونصحه أن لا يتطرق إلى مثل هذه المسائل حين يجلس في مقهى أو مع أي إنسان آخر، حتى الجدران في المدينة لها آذان.

" أين المفر إذن؟"

" نحن لا نستطيع أن نقفز فوق ظلنا يا عم رمضان، هذا هو قدرنا المكتوب على جبيننا، يجب أن ننتظر أمر الله"

بدا للصبي كما لو أنه يفتح عينيه لأول مرة على الحياة. تذكر الكوابيس التي طاردته في مدينة أحلامه الغريبة وأحس بنفسه وحيدا في عالم مقفر كئيب وهاجه الحنين إلى القرية، إلى الفتاة، إلى الجدة، إلى العنزات الثلاث، إلى برج المراقبة، إلى المدرسة، إلى المخبأ الذي جمع أنفاسهما الحارة، إلى الأنقاض التي قررا هي وهو بإزاحتها. كان يراقب كل شيء عن كثب دون أن تكون له رغبة في قول شيء ما، بيد أن تفكيره الذي كان يتركز حول خضر آغا، دون أن يعرف سبب ذلك، يدفعه أن يقول شيئا ما، شيئا قد يزعج مضيفهم الذي لم يخف حقيقة كونه صديقه. ولولا أنه مضيفهم الذي خدمهم، لوخزه هو الآخر. قال الصبي:

" أعتقد أن لصا مثل خضر آغا لا يستطيع أن يحل مشكلتنا يا جد، لذلك أقترح أن نرجع إلى بيتنا معززين مكرمين ونظل ننتظر هناك، كما قال العم الحاج رشيد، أمر قدرنا المكتوب على جبيننا"

قال الحاج رشيد ضاحكا بارتياح:

" هذا ما أردت أن أقوله، ولكن خانتني الشجاعة. إنهم كلهم لصوص، ولكن خطرين. اللص الشريف يسرق ويهرب، وأما هؤلاء فإنهم يسرقون ثم يقتلون صاحب البيت. هذه هي الحقيقة، ولكن لا يجوز النطق بها، ورغم ذلك أنصحكم بزيارته، ربما فلتت منه معلومة قد نستفيد منها جميعا"

وتقرر أن يسافروا إليه غدا بسيارة الحاج رشيد، على أن يكونوا عنده قبل الساعة العاشرة صباحا، ذلك أنه في أكثر الأحيان يسافر إلى مركز المحافظة للّقاء بالمسؤولين.

١٩

في تمام الساعة التاسعة صباحا اتخذوا أماكنهم في سيارة المرسيدس التابعة للحاج رشيد. الشيخ جلس في المقعد الأمامي والصبي امتلك المقعد الخلفي العريض كله، وهو يميل تارة إلى هذه النافذة وأخرى إلى تلك. ولم تضطر السيارة للوقوف في نقطة السيطرة، إذ اكتفى الحاج رشيد بمد ساعده محييا أفراد العسكر والشرطة الواقفين الذين أشروا له بمواصلة السير. وحين بلغوا مقبرة الإمام حسن، صاح الصبي بصورة لا إرادية:

" أنظر يا جد، هل تتذكر هذه المقبرة؟"

لم يرد الشيخ، إذ إنه كان منسجما مع الحاج في حديث عميق، يبدو أنهما بدءا به منذ الليلة الفائتة دون أن يكملاه ودون أن ينتبه إليهما الصبي الذي كان غارقا في عالمه الخاص. كان يفكر في كيفية اتخاذه لهذا الطريق في المرة القادمة، إذا ما جاء لوحده بدون الشيخ. إذ أن هذا، كما أكد له أكثر من مرة، لن يعيش إلى الأبد، إذ ذاك يضطر أن يأتي وحده أو مع الفتاة، حيث يمكنه أن يتباهى أمامها. وبدا له الطريق، أسهل مما تصوره، رغم طوله. وطالما أنه صبي ضئيل بهذا العمر، فإنه يمكن أن يتسلل عبر أية نقطة سيطرة بدون صعوبة، وهذا يعني أنه يستطيع أن يتحرك بكل حرية بين قريته الخربة وهذا العالم من الآن إلى ثلاث سنوات أخرى. هذا هو الجانب الإيجابي لضآلته وعمره، وأما الجانب السلبي لهذين الشيئين اللعينين اللذين لا يرتاح لهما، هو موقف الفتاة منه، إذ تعتبره صبيا صغيرا أو طفلا وتعامله كما لو أنه شقيقها الصغير أو أبنها. هكذا يتصور هو المسألة وأما هي فربما تراه رجلا ناضجا. ألم تعبر له أكثر من مرة عن مثل هذا الشعور، ألم تعانقه وتقبله من خده وتضع يده بين كفيها؟

إنه ينبغي أن يقوم بعمل ما، عمل رجولي يثبت من خلاله أنه رجل، أن يقتل خضر آغا مثلا، ذلك أنها تكرهه. وبمجرد التفكير في القتل، أحس بقشعريرة غريبة تطغي على أعصابه وتذكر ليلة الكارثة التي شارك فيها رجاله. ولكنه إذا قتله ونجا دون أن يلقوا عليه القبض فإلى أين سيهرب؟ إنه في كل الأحوال لا يمكنه البقاء في القرية، إذن عليه

أن يلتحق بالشبان الخمسة الذين لهم علاقة مباشرة بحركة المقاومة، ولكنهم مثلما قالوا له بصراحة، لا يريدونه إلا بعد أن يكمل الثامنة عشرة من العمر، أي بعد حوالي ثلاث سنوات. ثم أنه كقاتل يظل مطاردا ومطلوبا للعدالة. إنه بذلك يثبت أمامها رجولته، ولكن على حساب خسارته لها، إذ أنها ليس من المعقول أن تركض وراءه من جحر إلى آخر.

وراح يتأمل الحقول الذهبية المترامية وراء النافذة. مكائن الحصاد المنتشرة هنا وهناك تخلف وراءها غيمة من الغبار. والشمس الساطعة تغرق الكون بأشعتها الذهبية الساطعة. ترى ماذا تفعل شيرين الآن؟ هل هي جالسة مع الجدة أم أنها تسحب الماء من البئر؟ أم أنها تجلس في البرج تراقب الأفق البعيد بانتظار ظهور نقطتين سوداوين؟ إنه يفتقدها ويفتقد البيت كله. إنه إذا عاد إلى القرية، سيخلو إليها في برج المراقبة ويتحدث معها هذه المرة بشكل آخر. ويجب عليه أن يجبرها، بأي شكل من الأشكال، على أن تتصرف معه كرجل. ولكن ماذا يعني هذا كله؟ من يقول أنها لا تنظر إليه كرجل؟ ولكنك كنت خجولا أمامها ومنكمشا على نفسك حين تعرت أمامك في المدرسة. كان يمكنك أن تندفع أكثر وبشكل أقوى، بيد انك ذهلت من وطء الصدمة. ومن لا يذهل أو يصدم حين يرى لأول مرة جسدا قمحيا تغسله أشعة الشمس الذهبية. وأي إحساس هو ذلك الذي تسرب إلى جسدك وأنت تستقبل بظهرك نعومة راحتها المخدرة التي كانت تنزلق من خلال رغوة الصابون عبر ظهرك. كان قلبك يكاد يقفز من فمك وأنت تطلق التنهدات من أتون محرقة لا تعرف الانطفاء. وهي أحست بكل ذلك وكانت تريد أن تحتك بك أكثر، ولكنك كنت تتحاشى ذلك خوفا أو خجلا أو لسبب كنت لا تعرفه. هل كان امتناعك صحيحا؟ أم كان ينبغي عليك أن تبدي لها اندفاعك مثل رجل قوي بل ووقح، وليس مثل صبي خجول متردد. إنك هذه المرة يجب أن تتصرف معها بشكل آخر.

وأحس بالحنين إلى الفتاة وعالمها حيث السكون والصمت المطبق. وتمنى لو أخذته السيارة إلى هناك فورا ليبدأ معها هذه المرة بشكل آخر، ولكن لا بأس، لا داعي للندامة، فالزمن أمامك والدنيا ليست عبارة عن يومين. والآن عليهم أن يقابلوا هذا الرجل الأسطوري الذي صوره في ذهنه مثل عملاق هائل بوجه قبيح لا يعرف الابتسامة. وتمنى في داخله لو كانت المدرسة كسابق عهدها مفتوحة الأبواب ومكتظة

بالطلبة، كي يتمكن من تقديم تقرير شفوي لطلاب صفه في درس الإنشاء حول زيارته للمدينة ومن ثم للقرية لمقابلة رئيس العشيرة خضر آغا، ولكن لو كانت المدرسة على حالها السابقة والقرية غير مهجورة، هل كنت تتمتع بمشاهدة خبايا الفتاة المذهلة، ناهيك عن التعرف عليها؟ القدر هو الذي ساقك إليها أو ساقها إليك، فلو لم تصعقك كارثة تلك الليلة المشؤومة ولم يأخذ الشيخ إلى السيد، لما تعرفت عليها. وكذلك هي، لو لم تفقد أهلها وخطيبها المزعوم نتيجة نفس الكارثة التي حلت بهم، لما فقدت عقلها مثلك. إذن مصيركما المشترك هو الذي دعاكما أن تلتقيا، وكان أن انتقلتما في خيمة السيد من الجحيم إلى الفردوس. هكذا هي الحياة: جحيم وفردوس، كما قال المعلم المشرف على صفك. هناك من يخرج من الجحيم ويتسلل إلى الفردوس. ولكي يحافظ على فردوسه يلقي بالآخرين في الجحيم. تماما مثل صغار العصافير التي تحاول أن تلقي بعضها البعض إلى خارج العش، وبالتالي يتم التخلص من أضعف الفراخ. ولكن لا يلبث هذا المتسلل إلى الفردوس أن يفقد هو الآخر، لسبب ما، نعيمه الفردوسي من قبل شياطين يرسلونه إلى الجحيم. وتذكر خضر آغا، أليس هو أيضا من هؤلاء الشياطين الصغار الذين ساعدوا كبير الشياطين في تخريب قريتهم وتهجير أهلها إلى حيث لا يعلم إلا الله وسرقة ماشيتهم وقمحهم؟ كل ذلك من أجل الحفاظ على مواقع أقدامهم في الفردوس. ولكن، هل من الضرورة إلقاء الآخرين في الجحيم من أجل البقاء في الفردوس؟ هل الله هو الذي كتب ذلك في اللوح المحفوظ أم أنه من صنع البشر أمثال خضر آغا؟ لقد قال المعلم ذات مرة أن الله لا يتدخل في مثل هذه الأمور وأنه لا يسلط الظالمين على الفقراء، وإنما الذنب هو ذنب هؤلاء الذين يستسلمون للكسل ولا يستلون سيوفهم بوجه الشياطين، ولكن، لماذا لا يتمتع هؤلاء الشياطين بنعيم الجنة دون أن يدعوا الآخرين وشأنهم؟ هل لابد لهم أن يرسلونهم إلى الجحيم كي يتنعموا هم بالفردوس؟ ليعيشوا في فردوسهم بأمان ويدعوا الآخرين يعيشون بين بين. كلا، قال المعلم، إنك من أجل أن تحتفظ بفردوسك، يجب عليك أن تفتح أبواب الجحيم كي تستقبل الذين يزاحمونك للاستيلاء على الفردوس. وقبل أن يتوصل الصبي إلى نتيجة، قطع الحاج رشيد سلسلة أفكاره بصوته العالي، موجها الكلام إليه:

" أنظر يا كامه هذه هي القرية التي يسكنها رئيس عشيرتنا خضر آغا. لقد تقلصت

العشيرة كلها بقراها الثلاثين وتحولت إلى هذه القرية الوحيدة، هذا رغم أنه يخدم هؤلاء منذ أكثر من ثلاثين عاما"

لم ينطق الصبي، ولكنه استغرب من كلام الحاج رشيد الذي سبق له أن وضعه في خانة المتربعين في ضواحي الفردوس. واختلطت عليه الأمور. إنه ليس في الجحيم، ولكنه يتكلم مثل أهل الجحيم، إنه يتكلم مثل أولئك الشبان الخمسة الذين هم فعلا من سكنة جهنم. ولكن، من يدري ربما أنه يريد أن ينافس خضر آغا كي يحتل مكانه وينصب نفسه رئيسا على العشيرة التي اضطر خضر آغا للمساهمة في تدميرها وتهجير أهلها ومن ثم فتح أبواب الجحيم أمامها. علق الشيخ:

" أجل، كي يبقى هو وزبانيته يتمتعون بالنعيم"

وراح الصبي يراقب كل شيء بدقة، هاهو نهر يفيض بالماء المتدفق، تسبح فيه البطات الملونة الجميلة، يمر من أمام البوابة التي اجتازتها سيارة المرسيدس. ثمة كراس ومقاعد ومصاطب في باحة الدار المزدانة بالأشجار والعشب الندي والأزهار. خمسة أو سبعة رجال جلسوا في الهواء الطلق يرتشفون الشاي بتكاسل. وثمة في الساحة الواسعة الملحقة بالحديقة الخضراء المزدانة بالورود والأزهار الملونة، مكائن زراعية وعربات وسيارات نقل صغيرة. ما أن ترجّلوا من السيارة، إلا وقام الرجال من أماكنهم متوجهين نحوهم. التفت الشيخ بسرعة إلى الصبي قائلا له بصوت خافت بأن الرجل الممتلئ البشوش الذي لم يتجاوز الستين في الوسط هو خضر آغا نفسه. لم يكن قبيحا ومرعبا مثلما تصوره الصبي في ذهنه، بل رجلا جذابا، تقدم من الشيخ مبتسما وعانقه مناديا إياه باسمه ثم عانق الحاج رشيد وصافح الصبي والابتسامة لا تفارقه. قال خضر آغا بتباه كما لو أنه يعرف كل شيء، موجها كلامه إلى الشيخ:

" عرفت انك قد خرجت بسلامة يا شيخ رمضان، ستعيش وسترى أمورا أغرب"

لم يستغرب الشيخ من كلامه، ورد بصورة عفوية: " لا فرق إن كنت ميتا أو حيا، المهم هو حياتك يا خضر آغا والتي هي حياة العشيرة"

استغرب الصبي من كلام الشيخ الذي لم يعجبه، بل وجده مجاملة فيها مبالغة، بل ونفاق لا يناسب شخصية الشيخ. ولكن من يدري؟ ربما أنه يلجأ إلى النفاق كي ينتزع منه بعض المعلومات الضرورية عن مصير أهلهم. ولاشك أن هؤلاء الرؤساء بحاجة إلى

هذه اللغة المليئة بالنفاق والدجل، وإلا فإنهم لا يصغون إلى كلام الرعية. إذ تكون الزيارة كلها هباء ا في هباءاً. ولكن كيف عرف أن الشيخ تخلص من الكارثة؟ لا شك أن الضابط الشاب هو الذي أخبره بذلك. وهو؟ هل يعرف عنه شيئا؟

قادهم خضر آغا إلى قاعة المضيف المفروش بالسجاد والمحاط من جميع الجوانب بالأرائك الوثيرة. استغرب الصبي أن الآخرين لم يأتوا معهم إلى قاعة المضيف، بل رجعوا إلى أماكنهم. وفهم الصبي من التفاتة سريعة إليهم أنه يريد أن يختلي بهم. وحين اتخذوا أماكنهم، فتح خضر آغا جهاز التلفزيون الكبير بالإضافة إلى تشغيله جهاز راديو الترانسستر الصغير الذي يحمله في يده وقال:

" الآن نستطيع أن نتكلم بكل صراحة ودون خوف، للجدران آذان يا شيخ رمضان. أليس كذلك يا حاج رشيد؟ أنت لست حرا حتى في بيتك"

أدرك الشيخ أن ثمة لعبة في فتح جهازي التلفزيون والراديو في آن واحد ولا شك أن الحاج رشيد سيشرح له فيما بعد سر اللعبة، ولكنه قرر أن يكون حذرا في كلامه، إذ أن خضر آغا رغم المودة التي يبديها، يمكن أن يتحول إلى ذئب مفترس. إن له أكثر من وجهين. إنه ينبغي عليه أن يسمع فقط، وحذار من أن يخالفه في رأيه. إنه الآن في مكان يتحمل كلمة "نعم" فقط، وأما كلمة "لا" فلا مكان لها هنا ولا يمكن أن توصلك إلى نتيجة.

وبدأ خضر آغا بمدح نفسه وأنه لولا سياسته الحكيمة لتم القضاء على العشيرة ولكانت هذه القرية التي تلم شمل كل العشيرة، أرضا منبسطة وخرابا كما حصل مع القرى الأخرى التي لم يتمكن من إنقاذها:

" وأنتما، أنت وحفيدك، حالكما حال الآخرين. يمكنكما البقاء هنا فهي قريتكما وأهلها أهلكما"

تململ الشيخ وأراد أن يقول شيئا، ولكن خضر آغا لم يفسح له المجال بكلامه المستمر:

" أنت تجلس في المضيف تستقبل الضيوف وتأكل ما نأكله، حالك حالنا. والصبي يمكن أن يعمل راعيا لأحد قطعاننا"

استغل الشيخ فرصة إشعاله لسيكارته الأجنبية وقال كما لو أنه يجبر نفسه على إخراج الكلمات:

" إن بركتك يا خضر آغا واسعة والله سيوسعها أكثر فأكثر، إننا لا عضيد لنا غيرك وغير الله. جئنا لنعرف شيئا عن مصير أهلنا"

تغيرت ملامح وجه خضر آغا ولم يتمكن من كتم غضبه:

" قلت لكم إن للجدران آذانا. إذا طرحت عليهم مثل هذا السؤال فسيهدمون هذه القرية ويحرقون العشيرة كلها. عملت المستحيل من أجل إنقاذ القرى، ولكن القانون هو القانون. هل فهمت يا شيخ رمضان؟ وإذا قررت البقاء هنا، فعليك أن لا تفتح فمك بمثل هذه الأسئلة الغبية. كل البلاء جاءكم من وراء سلاطة ألسنتكم وتهوركم ووقوفكم إلى جانب المتمردين"

عرف الشيخ أنه قد تجاوز الحد وأن هذا المخلوق الذي يعتبر رئيس عشيرته، لا يعرف حقا أي شيء عن مصير الأهل. ورغم ذلك فإنه لم يندم على هذه الزيارة التي عرف فيها الشيء الكثير. إنهم إذن ذهبوا إلى المجهول، إلى حيث لا عودة. وأما الصبي فصب تفكيره في شيء آخر. إنه عرف كيف يسلك الطريق إلى هنا في المرة القادمة، إذا تطلب الأمر، إلى معقل خضر آغا، ولكنه وجد أن هذا الرئيس ليس سوى إنسان ضعيف لا يحل ولا يربط، ولذلك لا يستحق أن يشغل باله بالتفكير في خطته التي فكر فيها كثيرا. إن بقاءه أو موته، كما قال الشيخ، سيان. وفكر أنه حتى إذا قرر الشيخ الانتقال إلى هنا، فإنه لمن المستحيل أن يترك قرية الأجداد، رغم تحولها إلى قرية أشباح، ومع كل ذلك فإنه سيسأل شيرين ما إذا كانت ترغب في الانتقال إلى هنا. أطبق عليهم الصمت لهنيهة، قطعها الحاج رشيد كعادته في مثل هذه الحالات محاولا تبرير كلام الطرفين:

" إننا كلنا أبناء عشيرة واحدة يجري في عروقنا نفس الدم، وإن الفضل في بقائنا إلى الآن في مثل هذا الزمن العصيب، يعود بلا شك إلى حنكة خضر آغا، وهو لا يبخل بخدمته على أبناء عشيرته إذا تمكن من ذلك. وأبناء العشيرة الذين يأتون إليه كل يوم للاستفسار عن مصائر أهلهم لهم الحق أيضا. أنا أعتقد أنه لا يقصر في متابعة أخبار أولئك الضحايا، فإذا سمع خبرا هنا أو هناك، فلا شك أنه سيبلغني به، وأنا بدوري

سأبلغهم بالأمر، على أن يتم كل شيء بسرية تامة"

كان خضر آغا قد عاد إلى مرحه القديم وكأن شيئا لم يكن:

" أجل، على أن يتم كل شيء بسرية تامة"

حين استأذنوا للانصراف، ألح عليهم خضر آغا على البقاء من أجل تناول الغداء معه، بيد أن الحاج رشيد أعتذر بسبب أشغاله الكثيرة. عندما تركت السيارة القرية مخلفة وراءها سحابة من التراب.

قال الحاج رشيد بسخرية:

" هذا هو رئيسنا المحترم، لقد واجهتماه بنفسيكما. إننا كلنا تحولنا إلى فئران، من أكبر رئيس إلى أصغر خادم –التفت إلى الوراء– هل تريد أن تعيش في قصره وتعمل راعيا لقطيعه يا كامه؟"

أجاب الصبي بحزم: " كلا يا عمي الحاج رشيد، أبدا"

علق الشيخ بتهكم: " وأنا يريدني أن أجلس في مضيفه لاستقبال الضيوف، وهذا يعني توزيع القهوة عليهم، لا يا بني، يا كامه لا، سنرجع إلى قريتنا ونعيش مع الأشباح، وإذا هاجنا الحنين إلى الأقارب، فسنزور الحاج رشيد ونشبع عنده من المأكولات اللذيذة"

قال الحاج رشيد بتباه: " بيتي بيتكم، ولكنني لا أنصحكم بالعودة، فكرا جيدا. اجلبا العجوز إلى هنا والله كريم"

هزّ الشيخ رأسه بالرفض قائلا بإصرار:

" كلا يا حاج رشيد، فكرنا جيدا. لا مكان لنا هنا. إما قريتنا أو الموت"

وفكر الصبي بالشبان الخمسة الذين اختلط أمرهم على العجوز التي لا تعرف حتى الآن ما إذا كانوا رجالا حقيقيين أم أشباحا. وتذكر الليلة التي انبثقت فيها الأضواء الحليبية وأعمدة النور من كل مكان وعاد فيها جميع أهالي القرية إلى بيوتهم. لا شك أن مثل تلك الليلة ستعود فعلا، وستمتلئ البيوت بأهاليها وينشغل الأطفال الحفاة والصبيان باللعب والضجيج في الأزقة التي ستعج بالحركة والحياة. وستمر السنوات الثلاث بسرعة ويتحول هو إلى رجل حقيقي، إذ ذاك لا يضطر إلى رفع رأسه إلى أعلى

كي يحدق في عيني شيرين الجميلتين، بل ستتجاوز قامته قامتها، فلا تضطر هي كي تنحني حين تريد أن تطبع قبلة على خده. ولكن، كيف سيكون مصيره يا ترى إذا ظل جسمه على حاله دون أن ينمو مع السنوات؟ إذ ذاك سيتحول من حيث شاء أم أبى إلى قزم. لا شك أنها ستنفر منه وتهمله ملتجئة إلى أحد هؤلاء الشبان الخمسة الأقوياء. والمرأة تركن دائما إلى الرجل القوي أو الغني. ماذا يفعل إذ ذاك؟ ولكن، لماذا ينبغي عليه أن يتحول إلى قزم؟ ألم تقل له ذات مرة حين رأت التراكتور في زيارة لبيته:

" أنت غني يا كامه، كنت لا أعرف بأنك تملك إلى جانب العنزات الثلاث تراكتورا، والذي يملك مثل هذه الماكنة، لا شك أنه يملك أرضا واسعة أيضا"

وكان أن سرتما إلى حيث أرضكم المزروعة ويدك تشبك يدها الدافئة. أجل أنها اعتبرتك فلاحا غنيا. وأنت تستمع إليها بتباه وفخر. وأنت تعرف بأن الفلاح الغني له اعتباره في الريف. وأطبق صمت غير قصير على جو السيارة الهادئ الذي كانت تخرقه أنغام أغنية لعلي مردان:

ثوبك من الجيت الأزرق الداكن

بالله عليك، ارفعيه قليلا،

إنه طويل جدا..

نقل النغم الشجي الصبي إلى أجواء قريته، وفكر في شيرين الحبيبة وتمنى لو كانت الآن جالسة إلى جنبه لتتمتع بهذه الأغنية الجميلة وليتمتع هو بسحر عينيها.

وأما الشيخ، فظل يفكر في سر لعبة فتح جهازي التلفزيون والراديو في آن واحد. عندما انتهت الأغنية، بادر إلى الاستفسار عن هذا الأمر الذي لم يفهمه، وراح الحاج رشيد يشرح بتباه، كيف أن الدولة تراقب المسؤولين وتسمع كلامهم من خلال أجهزة دقيقة لا تتجاوز حجم البقة. والوسيلة الوحيدة للتشويش على هذه البقة هي فتح أجهزة التلفزيون والراديو. هزّ الشيخ رأسه باستغراب:

" كنت قد سمعت بوجود مثل هذا الشيء، ولكنني لم أصدق ذلك. سبحان الله . الآن عرفت ماذا تعني، للجدران آذان"

ونقله النغم هو الآخر إلى أجواء قريته التي حن إليها وبدا له كما لو أنه فارقها منذ

دهر. عندما بلغت السيارة المنطقة التي سلكها الشيخ والصبي إلى الطريق العام، افتعل الشيخ حجة وطلب من الحاج رشيد أن يوقف سيارته لقضاء حاجة سريعة. وما أن توقفت هذه عن السير، إلا وترجل الصبي قبل الشيخ وهو يؤشر بيمناه إلى الممر الذي انحدرا منه يوم أمس قائلا بفرحة:

" هنا، هنا عبرنا الجبل، ومن هنا يجب أن نرجع إلى القرية حالا"

قال الشيخ هو الآخر بفرحة طفولية:

" نعم يا بني يا كامه، هذا ما أردته أنا أيضا ولهذا السبب طلبت إيقاف السيارة"

ندم الحاج رشيد على إيقافه السيارة وقفز هو الآخر منها محاولا إقناعهما بكل الوسائل كي يعودا إليها ويقضيا عنده على الأقل ليلة أخرى، ليلة واحدة فقط، ولكن عبثا. وظل جامدا متسمرا في مكانه يتابعهما بعينيه بذهول وكيف أنهما يسرعان الخطى بحيوية وإصرار.

كان الصبي يقفز بسرعة وبحركات متجانسة، فرحا جذلا، إلى أن تواريا عن الأنظار.

ماركليبيرك: ١/١٠/٢٠٠٦ – ٢٩/٦/٢٠٠٧